

عماتي زينب



بقلم

د. أحمد السندوبي..

بطاقة الكتاب:
اسم الكتاب: عماتي زينب
اسم الكاتب: أحمد السندوبي
نوع الكتاب: رواية
عدد الصفحات: 462 صفحة
المقاس: 20x14
رقم إيداع: 2020/20706
الترقيم الدولي: 978-977-6736-07-8
الطبعة: الأولى، 2020م

رئيس مجلس الإدارة
مها المقداد

للتواصل والطلب من داخل أو خارج مصر:
00201129195867-00201033966291

الغلاف والتنسيق الداخلي والمراجعة

فريق دار المصرية السودانية الإماراتية للنشر والتوزيع

أقر المؤلف بأنه وحده صاحب الحقوق الفكرية للكتاب، وأنه يضمن للناس عدم التعرض من الغير بخصوص الملكية الفكرية. كما صرح أن هذا الكتاب ليس في مضمونه ما يمنعه القانون، وأن الآراء والأفكار التي يتضمنها محتوى الكتاب تعبر عن فكر المؤلف فقط ولا يعبر عن رأي الناشر، ولا يوجد داخل الكتاب نقل أو استعارة بما قد يعرض الناشر للمسؤولية القانونية.

عماتي زينب..

بقلم

أحمد السندوبي

فريق عمل
دار المصرية السودانية الإماراتية للنشر والتوزيع

تصميم الغلاف: إسلام عبدالحليم

التنسيق الداخلي: مريم محمد سيد

دار المصرية السودانية الإماراتية للنشر والتوزيع-مها المقداد



+201289024055

Mahaelmukdad@gmail.com



المصرية السودانية الإماراتية
للنشر و التوزيع



إهداء

إلى والدتي التي كنت دائماً تلومني على الإفراط في
القراءة وتنعتني بلقب "سقراط"، ومع ذلك كانت
تتحدث مع الآخرين بفخر عن حبي للقراءة..
إلى زوجتي وقارئتي الأولى التي دوماً تحفزني للكتابة
ومع ذلك تقوم بدور الـ Editing disc وتراجع كل
كلمة بميكروسكوبها النقدي.
إلى ابني "هادي" الذي مازال يقاوم محاولاتي لجعله
يحب القراءة ومع ذلك منحني أروع أوقاتي عندما
رأيتُه منغمساً في قراءة روايتي الأولى ثم أخذ يناقشني
في أحداثها وتفصيلها.
إلى عائلتي الكبيرة، إخوتي وأصدقائي
كنت أود أن أهدي لكم عملاً يفيض بالتفاؤل والطاقة
الإيجابية ولكن ما باليد حيلة فكل إناء بما فيه ينضح.
أحمد السندوبي

1

عزبة الجنائنة

"عزبة الجنائنة هي بلا شك أجمل مكان على سطح الأرض. هي بالفعل بقعة خارج نطاق الزمان والمكان. فمع مرور عقود من الزمن تغيرت طبائع الناس وعادلتهم وطغت علامات الحداثة والتمدين بوجهها القبيح على القرى والأرياف محولة إياها إلى مناطق مسخية لا حافظت على طبيعتها الريفية الجميلة ولا استفادت من مميزات الحداثة في المدن. ولكن تظل عزبة الجنائنة علامة مميزة وبقعة ناجية من طوفان التغيير الذي نال ما حولها من قرى ونجوع".

عمي المهندس إبراهيم.

كلمات عمي الباشمهندس فعلاً صادقة تماماً. فرغم أنه عاش معظم حياته خارج العزبة إلا أنه ظل دائماً يتغنى بجمالها وسحرها. ومع اقترابي الآن من

العزبة تجد كلماته في أذنيّ صدّي مختلفًا خاصة بعد غيبتني الطويلة عن العزبة. صدقوني ستنبهرون حقًا بالعزبة، ليس الأمر فقط جو الأرياف والبساطة واللون الأخضر والهواء النقي وكل ما ينبهر به أهل المدن عند زيارتهم للأرياف. فلعزبتنا جوها الخاص وزمانها الخاص. لا داعي للشرح أكثر فقط ظلوا معي وسنرى سويًا كل شيء.

لقد اقتربنا كثيرًا فهذه آخر بيوت القرية فلو مشينا بمحاذاة هذه التربة – نسميها عندنا البحر القديم- لوجدنا في آخر هذا الطريق الترابي عزبتنا الأثيرة.

هاهي سراية "الزواينة" تلوح من بعيد على الضفة الأخرى. هي ليست سراية بالمعنى الحرفي ولكنها بيت كبير يحيط به سور مرتفع وتظهر من خلفه حديقة كبيرة.

"الزواينة" عائلة كبيرة وهم ليسوا من أهل العزبة ولا من أهل القرية، يقال أنهم جاءوا في زمن جدي الأكبر وبنوا سرايتهم وزرعوا جنيّة الموالح الكبيرة ثم أخذوا يضموا الأراضي إليها بقوة السلاح حتى وصلت حدودها للبحر الجديد –اسمه على الخريطة البحر الصغير- في شمال القرية. وبالتالي صارت نصف أراضي العزبة داخل نطاق جنيّة الزواينة.

ويقال أن "حسن أبو زينة" كبيرهم قد هدد جدي الأكبر بالسلاح حتى يبيع له أرضه بسعر بخس حتى يضمها إلى زمام الجنيّة، وأن جدي جدي الأكبر خرج من العزبة بحسرتة بعدها ولم يعد قط، ولكن حفيده استطاع استرجاع أرضه بعد ذلك وهي المرة الوحيدة التي تدخل فيها قطعة أرض إلى زمام الجنيّة ثم تعود لصاحبها مرة أخرى.

ترك الزمن آثاره على السراية ولكنها لا تزال تحتفظ بهيبتها وغموضها.

في وسط الأراضي الزراعية يبدو منزل عمتي زينب الكبيرة. كأنها تعمدت أن يكون بيتها خارج العزبة ولكنها لم تستطع الابتعاد كثيرًا. فظل بيتها على الضفة الأخرى من مدخل العزبة كأنه يراقب الداخل والخارج.

هاهو كوبري الزواينة وعلى ناصيته غرفة طينية صغيرة هي قهوة درغام.

هيا لنعبر الكوبري الصغير، أمامنا ماكينة المياه العتيقة التي ترفع المياه من البحر القديم إلى قناتين صغيرتين تدخل إحدهما إلى الجنيحة مباشرة بينما الأخرى هي من ستكون رفيقة رحلتنا إلى داخل العزبة.

هاهو، بيت من طابقين مطليّ باللون الأصفر له شرفة تمتد بطول البيت. سمعت صوت أذان الفجر من مسجد العزبة المجاورة وأنا أهدق في منزل جدي "سالم"، أفكر في كل من فقدتهم وكل من أشتاق لرويتهم.

من أمام بيت جدي "سالم" يمتد طريق ترابي ضيق يحده يميناً بيت جدي "سالم" ثم بيت أخيه "الحاج علي" ثم بقية بيوت العزبة في صف واحد على يمين الطريق. وعلى يسار الطريق تقع التربة الصغيرة ومن ورائها صف من أشجار الجازورين بأوراقها الأسطوانية الرفيعة ذات اللون الأخضر القاتم ومن ورائها سور من عيدان الغاب المتقاطعة تظهر من فتحاته جنيحة الزواينة المليئة بأشجار البرتقال والليمون واليوسفي.

بعد نهاية بيوت العزبة ينحرف الطريق إلى اليمين قليلاً فتتحرف معه التربة وسور الأشجار فتبدو الأشجار من مدخل القرية وكأنها تسد نهاية الطريق.

كنت في طفولتي أرى صف أشجار الجازورين في نهاية الطريق كأنها نهاية العالم وعندما كنت أرى جدي أو أبي وهما ذاهبين للغيط أعتقد أنهما يعبران من بين الأشجار التي تسد الطريق إلى عالم آخر قبل أن أعرف أن الطريق فقط ينعطف يمينا ثم يكمل سيره حتى البحر الجديد.

وجدت نفسي ألث ودقات قلبي تتقاذف في إيقاع مضطرب، كنت أعرف أن مغادرة العزبة صعبة وأن العودة إليها أصعب ولكني لم أعتقد أنها بهذه الصعوبة، كأن الطبيب -أو بالأصح الداية- يقوم الآن بدفعي داخل رحم أمي مرة أخرى. عفوا لقد بالغت في وصف مشاعري، أعرف أنكم ترون المشهد عادياً لوحة جميلة لمنظر ريفي عادي وذلك لأنكم لم تعرفوا بعد خلفية الأحداث، فعزبتنا ليست عادية على الإطلاق أو ربما هي عادية بطريقة أكثر من اللازم، دعونا من هذا ولنتقدم بهدوء قبل أن يستيقظ أهل العزبة، معظم البيوت الطينية تم إعادة بنائها بالأسمنت، صار هناك أكثر من بيت له أكثر من طابق بعدما كان ذلك مقتصرًا على بيت جدي سالم ودار الرفاعي فقط.

ها قد وصلنا لدار الرفاعي، سأصعد ببطء كي لا أوقظ أحداً. الباب مغلق بالففل نفسه الذي وضعته منذ سنوات ورغم الصدا الذي يغطيه استجاب للمفتاح، جلست في ارتياح على فراش أمي، الآن أستطيع الإجابة عن أسئلتكم.

دار الرفاعي

"عزبة الجنائنة هي أسوأ مكان على ظهر الأرض، بقعة ملعونة بالمرض والجهل والحقد والحسد، لن تجد أحدًا قد انصلح حاله من أهل العزبة إلا من فرّ بجلده وغادرها مبكرًا، أما من ظل فيها فهي أنت ترى بعينيك، هل يوجد مكان آخر على الأرض ابتلاه الله بكل تلك المصائب؟ ولكني أعرف أنك ستكون خائبًا مثل أبيك وستظل بالعزبة حتى تكون مثله."

عمتي زينب الكبيرة

دائمًا ما تصدمني كلمات عمتي "زينب" الكبيرة، فهي لا تكلف نفسها عناء تخفيف وقع الصدمة على من تكلمه ولا تزيّن عباراتها بأي كلمات دبلوماسية أو تورية أو كناية، بل هي تستخدم سيف الحقيقة لأمعًا قاطع دون غمد. هذا ما يجعل الجميع يحاولون تفادي ضربات لسانها التي وإن كانت تحمل جزءًا كبيرًا من الحقيقة إلا أنها غالبًا ما تكون جارحة.

أما عن وصفها للعزبة فكانت دائماً أراه متجنّياً، خاصة أنها هي نفسها لم تستطع الابتعاد عنها كثيراً، وظلت تتابع كل صغيرة وكبيرة في العزبة إما من شرفة منزلها أو من خلال رحلتها اليومية لبیت جدي سالم.

دعونا من ذلك الآن، فأمامكم فرصة ذهبية لرؤية أجمل مشهد في الكون؛ شروق الشمس في العزبة، خرجت من باب غرفتي المبنية فوق سطح دار الرفاعي واقتربت من سور السطح الشرقي لأتابع شروق الشمس كما اعتدت دائماً قبل مغادرة العزبة، كانت المفاجأة هي أن بيت جارنا "حامد أبي العوضي" قد ارتفع ليحجب عني شروق الشمس، لازال هناك حل، تسلفت القمرید البارز في جانب جدار الغرفة وصعدت فوق أكوام القش التي تغطي الغرفة، كنت دائماً أفخر بأن سطح غرفتي هو أعلى نقطة في العزبة وكنت أسميه برج المراقبة، الحمد لله أنه لازال كذلك. بدأ لون الأفق يتغير تمهيداً لشرق الشمس ولم يستطع الطابق الجديد في بيت "حامد أبي العوضي" أن يحجب ذلك عني وأنا في برج المراقبة.

دائماً ما كنت أحب متابعة شروق الشمس على العكس من "عمر" و"سهام" اللذين كان يفضلان منظر غروب الشمس، حاولت أن أشرح لهما ما أشعر به عندما يبدأ قرص الشمس تدريجياً في الظهور من خلف مزارع القصب الخاصة بـ"عبدالمقصود" مغيراً لون الأفق بخليط من الألوان الساحرة وناشراً معه النور والدفء والأمل، مصحوباً بأصوات العصافير والحمام وصياح الديكة، كنت أشعر وقتها بموجة من الأمل في صدري بأن القادم سيكون أفضل، ولكن "عمر" و"سهام" أصراً على موقفهما فوقفت معهما ذات يوم وقت المغرب

لأتابع قرص الشمس وهو يختفي تدريجيًا وقت الغروب خلف الأفق خلف أشجار جنينة الزواينة، وعندما اختفى آخر جزء من قرص الشمس شعرت بأن روحي انسحبت معه خلف الأفق وأن الأمل انتهى مع انسحاب النور من السماء، تذكرت وفاة أمي وجدتي نعمت، تذكرت أن "عمر" و"سهام" سيذهب كل منهما إلى بيته فيجد أمه بانتظاره لتوبخه لأنه تأخر أو لأنه لم يحافظ على نظافة ملابسه، بينما سأعود أنا لأجد عشائي تركته لي جدتي أنيسة فأخذه وأصعد لغرفتي وحيدًا، قررت بعدها إنني لن أقف لأتابع الغروب أبدًا.

هاهو قرص الشمس بدأ يولد، كنت أعرف من أين سيظهر بالضبط، نحن في نهاية فصل الصيف فلا بد أنه سيظهر من بين آخر نخلتين من النخلات الخمس اللاتي يزين الأفق من خلف حقول القصب، فمن خلال متابعتي الدائمة عرفت أن مكان الشروق يتغير على مدار العام.

لم يثر في شروق الشمس أي مشاعر هذه المرة، وبدأت أصوات العصافير والحمام مزعجة بشكل غريب، من الواضح أن كل شيء قد تغير حتى شروق الشمس، نزلت من على برج المراقبة ودخلت الغرفة، لازلت أذكر حين قرر أبي بناء تلك الغرفة اي، فبعد وفاة أمي قرر أبي أن يتزوج، بعدها انتقلت أنا للعيش في بيت جدي "سالم" -جد أبي- مع جدتي "نعمت". قال لي أبي وقتها أنه أيضًا بعد انفصال أمه عن أبيه تزوج أبوه جدي عبد الحميد- وانتقل أبي للعيش في نفس الغرفة مع جده لأبيه "سالم" وجدته "نعمت" وأنه عاش في تلك الغرفة حتى تزوج بأمي. فكان على من ضمن ما ورثته عن أبي أن أرث يتيمة ومصيره والغرفة التي عاش فيها وحيدًا.

وقتها نقل أبي فراش أمي وخزانة الملابس الخاصة بها إلى غرفتي في بيت جدي "سالم". عشت مع جدتي "نعمت" عدة سنوات لم أشعر خلالها قط أنني بلا أم. فرغم كبر سنها وضعفها إلا أنها كانت ترعاني جيداً وتهتم بي وكانت تدعو الله أن يعينها على تربيتي كما ربت جدي "عبد الحميد" -ابنها- وأبي "سالم" -حفيدها- ثم تحتضنني وتقول أن أعز الولد: ولد ولد والولد. لا زلت أذكر رائحتها العطرة وصوت سعالها في الليل وأزيز صدرها عندما كانت تضميني والبخاخات التي كانت تستعملها لعلاج الربو، وشعرها الأبيض الذي كانت تصفره في ضفيرة واحدة بالغة الطول.

ومع وفاة جدتي نعمت فقدتُ أمي مرة أخرى، وقرر أبي بناء هذه الغرفة فوق سطح دار الرفاعي، دار الرفاعي هي بيت مملوك لجدي سالم يقال أنه اشتراه قديماً من صديق له يدعى الحاج "محمد الرفاعي" وكان يعمل خفيراً لدى عائلة الزواينة، وكان صديقاً مقرباً لجدي سالم ورغم أنه ليس من أهل العزبة إلا أنه اندمج مع أهلها كأنه أحدهم حتى أنهم زوجه من إحدى بنات العائلة، ومما يروى عنه أنه كان يقوم وحده بحراسة جنيحة الزواينة بكاملها ولم يكن أحد يستطيع سرقة برتقالة واحدة منها وأن الزواينة اضطروا لإقامة السور الذي يحيط بالجنيحة فقط بعد أن تقاعد وقرر الانتقال بزوجه وأولاده لبلد أخرى.

وبعد أن اشترى جدي "سالم" بيته قرر أن يبقي اسمه كما هو "دار الرفاعي" وهو الاسم الباقي حتى الآن رغم وفاة جدي "سالم" منذ سنوات طويلة، وعندما قرر جدي "سالم" أن يزوج ابنه الأكبر -جدي عبد الحميد-

زوجه بدر الرفاعي، وعندما قرر جدي عبد الحميد أن يزوج ابنه -أبي- بنى له طبقاً ثانياً في دار الرفاعي، وعندما توفيت جدتي "نعمت" بنى لي أبي هذه الغرفة. لازلت أذكر خطوات بنائها وسقفها المدعم بألواح الخشب والغاب ثم أكوام القش، ونقل أبي فراش أُمي وخزانة الثياب هنا، وصارت هذه الغرفة منزلي المستقل وبرجي الخاص للمراقبة.

في أول ليلة لي في هذه الغرفة جلس معي أبي سألني إن كنت حزيناً لأنني سأقيم هنا، فقلت له: بالعكس، الغرفة جميلة جداً وعلى الأقل سأكون بجوارك وجوار إخوتي وبجوار جدي "عبد الحميد" وجدتي "أنيسة" (زوجة جدي الثانية).

فنظر لي نظرة غير مصدق ثم سألني إن كنت خائفاً؟ فأكدت له أنني لست كذلك. لم أكن أكذب عليه وقتها فأنما لم أكن حزيناً على مغادرة بيت جدي "سالم"، فبعد وفاة جدتي "نعمت" كنت أعيش منعزلاً في البيت الكبير، حيث تم تقسيم البيت بين ثلاثة من أبناء جدي "سالم" وصار لكل منهم شقته ومدخله الخاص وصرت أعيش وحيداً في غرفتي. ولم أكن أكذب حين قلت لأبي أنني لم أكن خائفاً فلقد كنت أنتظر انصرافه حتى أفعل ما كنت أتوق إليه منذ بدء بناء الغرفة وهو التسلق إلى سطحها. وبالفعل استخدمت مهارتي في التسلق وانطلقت إلى السطح في ليلتي الأولى وكان القمر بدراً وقتها، واكتشفت أنني في أعلى نقطة في العزبة، أرى من هنا الحقول الممتدة حتى البحر الجديد، وشرقاً أرى حقول القصب ومن ورائها بيوت عزبة "فرنسا" المجاورة، وجنوباً أرى بيوت عزبتنا وأحواشها وحظائر الماشية كلها حتى بيت جدي سالم بل وأرى بيت عمتي "زينب" الكبيرة على الجانب الآخر من البحر القديم وأرى منذنة

الجامع الكبير في القرية، وغرباً تمتد جنينة الزواينة تحدها جنوباً السراية
والحديقة المحيطة بها ثم تمتد الجنينة إلى مالا نهاية.

يومها خيل إلى أنني أرى وسط اشجار البرتقال عينان تلمعان في الظلام
لجزء من الثانية.

أفقت من ذكرياتي على صوت قدمي أحدهم يصعد الدرج، بالطبع ستكون
جدتي "أنيسة" – زوجة جدي- تحمل الطعام لطيوورها التي تربيتها في غرف
صغيرة في الجهة المقابلة لغرفتي.

كان حدسي صائباً.

-عبده! متى عدت من السفر؟ الحمد لله على السلامة، لقد ظنناك لن تعود
كباقي الغائبين.

3

العائلة

"إن عائلتنا تعد من أكبر وأهم العائلات في المركز بل وفي المديرية كلها، فجدنا الأكبر الحاج" على الشرقاوي" كان من أعيان محافظة الشرقية ويقال أنه كان من أهم مساعدي" أحمد عرابي"، وبعد نفي" عرابي" غادر الشرقية وجاء إلى هذه المنطقة مع أولاده وإخوته، كانت هذه الأرض كلها مليئة بالصبار والحشائش فقاموا باستصلاحها وزراعتها. وزوجته هي جدتنا الحاجة "عزيزة" كانت من أكبر عائلات الشرقية ويقال أن أباهما كان إقطاعيًا كبيرًا، وقد حجّت إلى بيت الله سبع مرات. أما أبي الحاج" سالم الشرقاوي" فكان الوحيد في العزبة الذي يجيد القراءة والكتابة وكان حافظًا لكتاب الله، واستعان به الزواينة لتسجيل تجارتهم ومحاصيلهم وبعد تركه لهم كان الوحيد الذي استطاع الوقوف في وجههم واستردّ أرض جدي منهم وأقنع باقي الفلاحين أن يبيع لهم محاصيلهم في المنصورة بدلًا من تسليمها للزواينة بسعر بخس، وكان

أول من أرسل أولاده للمدارس فكان من بينهم المهندس والصيدلي والمدرس والمحامي، أما أمي الحاجة "نعمت" فكانت من عائلة عريقة ذات أصول تركية، نحن عائلة متميزة نختلف كثيراً عن كل من حولنا، لابد أن يعي أبنائنا ذلك جيداً" نبذة مختصرة من محاضرة عمي الأستاذ "عبد الله سالم" عن العائلة.

هذه هي محاضرة الفخر والعزة التي كان لا يفتأ عمي الأستاذ "عبد الله" يكررها في كل مناسبة، كان الجيل الأكبر من العائلة يطربون لهذه المحاضرة ويؤكدون على ما قال ويزيدون في كل مرة دواعي جديدة للفخر. بينما الأجيال التالية كانوا يملأون منها ويشككون في حقيقة الكثير منها، كان "ماجد ابن عمتي زينب الكبيرة" يقول أنها محاضرة أشبه بقصائد الفخر لدى شعراء الجاهلية وكلمها بدأ عمي "عبد الله" في محاضراته التفت "ماجد" وهمس إلينا (عمرو بن كلثوم) فيكتم "عمر" و"سهام" ضحكاتهما بينما لم أكن وقتها أفهم ما يقول وما علاقة "أم كلثوم" بالأمر. بينما كام "ماجد" يسخر من عمي "عبد الله" ويقول أن العائلة في تاريخها الكثير من الأسباب التي تدعو للخزي ولكن عمي "عبد الله" يداري عليها بهذا الهراء.

الآن دعوني أعرفكم بعائلتنا الكريمة، ولكن مهلاً الأمر يحتاج إلى بعض التركيز، بل الكثير منه، فالعائلة عندنا متشابكة بدرجة شديدة التعقيد، وأسباب ذلك هي بعض العادات المتوارثة مثل تعدد الزوجات بالإضافة لكثرة عدد الأبناء بالتالي فمن المعتاد أن يكون للرجل أكثر من عشرة أبناء، هناك عادة أخرى فمن

يموت مبكرًا يجب على أخيه أن يتزوج أرملته ليرعى أبنائه وبالتالي يكون للشخص أشقاء ثم إخوة من الأم وربما آخرون من الأب.

العادة الثالثة هي الزواج المكبر بالتالي يبدأ الأبناء في الإنجاب بينما لازال الأبوان ينجبان فيكون الولد أكبر سنًا من عمه أو خاله. فلو دخلنا في شبكة صلات القرابة داخل العزبة سنصاب حتمًا بالدوار ففلان هو ابن عمه علان وابن خاله في نفس الوقت وهكذا..

دعونا نبدأ التعارف دون الدخول في أي من المناطق شديدة التعقيد؛ جدي الأكبر "علي بن علي الشرقاوي" كان له ثلاث زوجات وأنجب الكثير من الأبناء والبنات، أكبرهم هو الحاج "علي" وتنطق "الحاجعلي" مدغمة ولم أعرف لماذا تنطق بهذا الإدغام ولكن الجميع يصرون على ذلك، أما سبب تلقيبه بـ"الحاج" فكان ذلك لأن والدته أدت فريضة الحج بينما كانت حاملاً فيه فالتصق به لقب الحاج منذ ولادته، الابن التالي هو جدي الحاج "سالم"، جدي "سالم" لم يتزوج إلا مرة واحدة، جدتي "نعمت"، ويقال أن ذلك لشدة حبه لها وتعلقه بها وقد انجبت له ثمانية أولاد وبنيتين، أكبرهم هو جدي "عبد الحميد" وأصغرهم هو عمي "حافظ".

القاعدة الأولى في العزبة: الابن الأكبر يسمى باسم جده لأبيه أو يسمى محمداً، لا خيار ثالث. بالفعل سمى جدي "سالم" ابنه الأكبر "عليًا" وكنه توفي في سن صغيرة بعد ولادة أخويه "عبد الحميد" و"إبراهيم"، وعندما رزقه الله بابن ثالث سمّاه "عليًا" أيضًا.

القاعدة الثانية: عندما يسمى أكثر من ولد بما عُبِدَ من الأسماء وهو أمر شائع فينادى الأكبر بـ"عبد" وينادى الآخرون بأسمائهم كاملة، بالتالي كان ينادى "جدي عبد الحميد" بصفته الأكبر بـ"عبد" بينما إخوته "عبد القادر" و"عبد الحافظ" ينادون بأسمائهم كاملة أو تختصر كما حدث مع عمي "عبد الحافظ" حيث كنا نناديه "حافظ".

القاعدة الثالثة: البنت الكبرى تسمى "زينب".

ولهذا قصة أيضاً فعندما رزق الله جدي "سالم" بابنته الأولى سماها "زينب" ولكنها توفيت فلم يستخرج لها شهادة وفاة، وعندما رزقه الله ببنت أخرى سماها أيضاً "زينب" ولكنها أيضاً توفيت بعد شهور، ولما رزقه الله بالبنت الثالثة سماها "زينب" ولم يستخرج لها شهادة ميلاد اعتماداً على شهادة ميلاد "زينب" الأولى. فكانت الثالثة هي عمتي "زينب الكبيرة" وكانت دائماً تؤكد أن سنّها في الأوراق الرسمية أكبر بخمس سنوات من سنّها الحقيقي وأنها رسمياً أكبر من عمي "عبد الله" بينما هو في الحقيقة يكبرها بعام. وبالنسبة لتسميتها بعمتي "زينب الكبيرة" ففي الواقع هذا الأمر يتعلق بي، فعندما تزوج جدي عبد الحميد من زوجته الأولى جدتي "حميدة" أنجب منها ولداً واحداً هو أبي "سالم". ثم انفصلا، بعدها تزوج هو من زوجته الثانية "أنيسة" وعندما أنجب بنتاً سماها طبعاً "زينب"، وعندما تزوجت جدتي "حميدة" من الحاج "جمعة" أنجبت بنتاً وسمتها أيضاً "زينب". فصار لي عمتان بنفس الاسم؛ عمتي "زينب أم عبد" (أخت أبي من الأب)، وعمتي "زينب أم جمعة" (أخت أبي من الأم)، وحيث أن عمتي "زينب الكبيرة" (زينب

أم سالم) هي عمة أبي فكنت أناديها أيضًا (عمتي زينب) وللتفرقة بينها وبين عمتي "زينب" الأخرتين سميتها عمتي "زينب الكبيرة". ها قد بدأ يصيبكم الدوار. أعتقد أنني الوحيد في العالم الذي له ثلاث عمات بنفس الاسم.

نعود للعائلة الكريمة؛ جدي "عبد الحميد" تزوج مرتين، ولديه ولد واحد من زوجته الأولى "حميدة" وهو أبي، ولديه من زوجته الثانية "أنيسة" ولدان وبنت واحدة، أكبرهم هو عمي "طه" وأصغرهم هو "عمر"، عمتي زينب أم عبده" كانت تكبرني بعدة أعوام بينما "عمر" كان يصغرنى بشهور فكنت أناديه باسمه رغم أنه عمي، مثلما كان يفعل أبي مع عميه "فتحي" و"حافظ"، فعمي" فتحي كان أكبر منه بعام وعمي" حافظ" كان أصغر منه بعام، وبالتالي كانوا أقرب أن يكونوا إخوته أكثر من كونهم أعمامه.

أبي أيضًا تزوج مرتين، فبعد وفاة أمي تزوج من زوجته الثانية "سامية" -صرت أناديها بخالتي- وأنجب منها إختوتي محمد وأمل. الآن وقد عرفنا الخطوط العريضة لعائلتي نعود لموقعنا فوق سطح دار" الرفاعي" عندما رأنتي جدتي "أنيسة".

احتضنتني جدتي "أنيسة" بقوة وأخذت تبكي وتعاتبني على غيابي الطويل، وأخبرتني أن أبي كاد يجن وأخذ يبحث عني في كل مكان، وعندما ينس الجميع من عودتي كان هو على إصراره أنني سأعود، حتى اتصل به عمي "فتحي" وأخبره أنه قابلني في" السعودية " عندها أخذ يوزع الشرابات في العزبة. أخذت جدتي "أنيسة" تحكي لي عما حدث في العزبة أثناء غيابي؛ فلان مات وفلانة تزوجت وعلان تشاجر مع أخوه وعلانة أصابها مرض خبيث وهكذا..سيدة طيبة جدًا هي جدتي "أنيسة" ورغم أنها لم تكن جدتي -هي زوجة

جدي- ولكنها كانت تعاملني كأبنائها تمامًا، الفرق الوحيد أنني أبيت ليلتي في غرفتي فوق السطح. كانت دائمًا مبتسمة، ورغم ما حط عليها من نوائب الدهر كانت دائمًا لا تحمل همًا. عيبتها الوحيد اهتمامها بأخبار العزبة، من تزوج ومن مرض ومن اختفى ومن تشاجر وهكذا. وكانت تتشارك هذه الصفة مع باقي نساء العزبة، حيث يجتمعن صباح كل يوم على مصطبة منزل "التابعي" وهو رجل فقير محدود الذكاء طيب القلب ولكن زوجته "هدى" هي مركز تجميع وتوزيع الأخبار في العزبة.

نزلت مع جدتي "أنيسة"، لم يكن في البيت غيرها وعمتي "زينب أم عبده". احتضنتني عمتي زينب بقوة ولاحت ابتسامة في وجهها الذي لم ير السعادة منذ سنين وأخذت تسألني أين كنت وماذا فعلت.

جهزت جدتي "أنيسة" الفطور وأخذت تكمل لي سلسلة الأخبار وأنا نصف مستمع لها. الخبز الأبيض والمش والجبن والبادنجان والجريز والبصل الأخضر وكذكة الشاي الكبيرة. في نفس هذا المكان وعلى هذه الطويلة كنا نتناول إفطارنا يوميًا مع جدي "عبد الحميد" رحمه الله وكان المكان بالكاد يتسع لنا ولضحكاتنا وكلامنا وأخبار جدتي "أنيسة". الآن لم يتبق إلا هاتين البائستين ولم يعد يُسمع إلا أخبار جدتي أنيسة.

سمعت صوت باب يفتح في الدور الثاني وصوت خطوات تهبط الدرج، فخرجت جدتي "أنيسة" مسرعة -الآن لاحظت أن ظهرها صار منحنيًا وأن مشيتها صارت مختلفة كأن إحدى ساقيهما تؤلمها- وقالت: يا "سالم"، "عبده" عاد.

توقف صوت الخطوات، فخرجتُ متردداً.

أبي.

أحبّ أهل الأرض إلى قلبي.

وجدته متجمداً في وقفته على الدرج، تركتُ السنوات آثارها على وجهه، أطلق لحيته، ونحف جسده أكثر، ولكن لم يتخلل الشيب شعره ولا لحيته، تماماً كجدي "عبد الحميد" لقد توفي وشعره أسود تماماً رغم أن أخويه "عبد الله" و"علياً" تمكن الشيب من شعر رأسيهما.

تمنيت أن ألقى بنفسي في حضن أبي وأبكي وأعتذر له عن كل شيء، ولكنني تجمدت أنا الآخر في مكاني حتى هتفت جدتي "أنيسة":

- سلّم على أبيك يا "عبد" وقبل رأسه.

تحرك أبي نازلاً واحتضنني وقال: الحمد لله على السلامة، متى وصلت؟

منذ قليل.

حسناً تناول إفطارك حتى تنظف لك أختك "أمل" غرفتك حتى ترتاح قليلاً وبعد الغداء سنجلس سوياً.

4

عُمر

"لو امتلكت آلة الزمن لما ترددت لحظة في اختيار الزمن الذي أريد العودة إليه، إنها أيام طفولتنا ولعبنا سويًا أنا وأنت و"سهام" و"ماجد"، العقلة والمضرب في حوش دار الرفاعي، الأولوة أمام بيت جدي "سالم"، صيد السمك من ترعة العزبة، وجمع التوت من على الشجرة، ورحلات البحر الجديد، مراجيح العيد، صوت مزمار عم "أبي حجاج" والتفافنا حول عربة المتلجات عند دخوله العزبة، لعب الكرة مع الأولاد في العزبة.

ورغم ظروف أهلنا ورغم نشأتنا في هذه العزبة المعزولة عن العالم إلا أنني أستطيع القول بكل ثقة أننا عشنا طفولة رائعة، أما كل ما بعد ذلك فهو محض هراء."

الدكتور عمر عبدالحميد.

كان "عمر" هو رفيق عمري، نادرًا ما أجد ذكرى في طفولتي أو صباي لم يشاركني إياها عمر، كان يومي يبدأ في بيت جدي "سالم" عندما يحضر عمر من دار الرفاعي، كان يرفض أن يتناول إفطاره مع أبيه وأمه وإخوته ويقول لهم أنه سيفطر مع جدته "نعمت" ومع "عده" فتعطيه أمه بعض الشطائر فيحملها ويقطع الطريق جريًا إلينا لنفطر سويًا مع جدتي "نعمت" وننتظر أن تنزل "سهام" بنت عمي "عبد الله" من شقتهم في الدور الثاني ويأتي "ماجد" ابن عمتي "زينب الكبيرة" من بيتهم على الضفة الأخرى من البحر القديم.

رغم عدم وجود وسائل ترفيه وقتها كنا نجد كل يوم شيئًا جديدًا لنفعله؛ نلعب في بيت جدي "سالم"، نصعد للسطح لنشاهد الحمام الذي تربيته جدتي "نعمت" والأرانب التي يربّيها عمي "عبد الله"، كان كل أطفال العائلة ينادون أبناء جدي "سالم" (عمي) بما فيهم أبناء عمتي "زينب الكبيرة" رغم أنهم أحوالهم وأنا رغم أنهم أعمام أبي.

كانت أوقاتًا غاية في السعادة نلعب في الحوش الخلفي للبيت وسط الأشجار أو نحاول الحصول على التوت الأحمر من الشجرة العتيقة، نذهب إلى حظيرة الماشية -نسميها الدوار- مع أبي وعمي "طه"، نشاهدهم وهم يضعون لها التبن أو البرسيم أو نتابعهم وهم يأخذون كل واحدة إلى حوض الماء لتشرب. ثم شجرة التوت الأبيض في آخر الدوار.

هناك لعبة الأولة الأثيرة؛ نرسم مربعاتها الثمانية على الأرض ونلقي قطعة من قشر البرتقال ونحجل بين المربعات وغالبًا ما تفوز "سهام" علينا.

الاستغماية وهي أن يختبئ أحدها ويبحث عنه الآخرين، وكان "عمر" أبرعنا حيث يتسلق بجسده النحيل الأسطح ويدخل في الأماكن الضيقة المظلمة بحيث لا يراه أحد. العقلة والمضرب؛ قالبان من الطوب نضع فوقهما عصا صغيرة - العقلة- ثم باستخدام عصا أطول -المضرب- نضربها بعيداً، وعلى الشخص الآخر أن يلتقطها بيده قبل سقوطها ليفوز فإن لم يستطع يحاول هو أن يلقيها بيده لتمر بين قالبى الطوب بينما اللاعب الأول يحاول باستخدام المضرب أن يمنع العقلة من الوصول للمرمى، مرة أخرى كان "عمر" هو الأفضل.

المنقلة؛ المربع الشهير المقسم على تسع مربعات صغيرة -يسمونها الآن (إكس أو)- كنا نلعبها باستخدام ثلاثة أحجار وثلاثة من نوى البلح، لا أذكر أن ماجد خسر أي مباراة فيها.

هناك ألعاب البنات التي كانت تبرز فيها "سهام" مثل نط الحبل والقال وهي لعبة تلعب بخمسة أحجار صغيرة تضعها في كفها وتقفزها في الهواء ثم تحاول التقاطها مرة أخرى على ظهر يدها المفرودة، ثم تلقيها مرة أخرى لتلتقطها في كفها في تتابع سريع.

نجري وراء الأوز في العزبة حتى نجعله يقفز في التربة، كل أوزة مربوط على جناحها قطعة ملونة من القماش لتمييز كل سيدة الإوز الخاص بها. نذهب إلى دار الرفاعي لنلعب هناك. عندما يقترب عم "أبو حجاج" بعربة المتلجات -نسميه "زطّة"- من مدخل العزبة يطلق نفيراً عالياً من مزماره المعدني فيجري كل منا ليحضر نقوداً من أمه أو من جدتي "نعمت" ثم نلتفت حول العربة مع باقي أطفال العزبة نناديه في إلحاح أن يعطينا أولاً. هناك أيضاً ذلك الشاب الأسمر النحيل الذي يحمل عصا طويلة مليئة بأكياس غزل البنات.

أحياناً كنا نتسلل عند ماكينة المياه العتيقة لنلعب عند الفسقية وهي بئر مياه عميقة وهي من المحرمات في العزبة نظراً لفقدان العديد من أطفال العزبة فيها من قبل، ومع التنبيه الشديد بعدم الذهاب هناك كان "عمر" يقودنا فتمشي على حافة البئر الأسمنتية ببطء ونحن ننظر للبئر العميقة وصوت دقات الماكينة المتتابة في الخلفية كأنه دقات قلوبنا المتسارعة، الغرض من ذلك لم يكن فقط المغامرة وإنما الحصول على تلك الأزهار البديعة التي تنبت خلف الفسقية، أزهار بيضاء بها دائرة صفراء في المنتصف لا تنبت إلا في هذا المكان.

ثم هناك يوم "الخبيز" وهو يوم إعداد الخبز، يتم الاستعداد من الصباح الباكر، تقوم جدتي "نعمت" بإعداد الدقيق واللبن والسمن والخميرة وتتجمع زوجات أبنائها وابنتها -عمتي "زينب الكبيرة"- (ابنتها الأخرى "سعاد" تقيم مع زوجها بالمنصورة)، ويقمن بالعجن وفرد العجين ثم تكون مهمة جدتي "أنيسة" هي الجلوس أمام الفرن. يكون هذا بمثابة يوم عيد بالنسبة إلينا، نشاهد هذه الخطوات، نحاول المساعدة في تكوير القش ولقّه في أشكال بيضاوية كي يتم إلقائه في الفرن وهي عملية صعبة غالباً ما نفشل فيها. نتابع خطوات فرد العجين -التبيط- وربما تعطينا جدتي "نعمت" قطعة من العجين لنشكلها كما نشاء رغم اعتراض الأمهات. نتابع خطوات إشعال الفرن، جدتي "أنيسة" تضع العجين على المطرحة الخشبية وتضعه داخل الفرن بمهارة، ثم باستخدام عصا حديدية تقربه من النار أو تقلبه، ثم تقفز بكرات القش داخل الفرن لتبقية مشتعلاً. وعندما ينضج الخبز تقذفه بيديها خارجاً ثم باستخدام العصا تحمل قطعة قماش سوداء -غالباً اسودّت من سناج الفرن ذاته- مغموسة في إناء به ماء لتنظف به الفرن قبل أن تدخل دفعة جديدة من الخبز.

الخبز في العزبة أنواع: هناك العيش الأبيض وهو رقيق جداً وهش للغاية وميزته أنه يمكن تخزينه لمدة طويلة دون أن يفسد وقد يكون مستديراً أو على أشكال بيضاوية طويلة. ثم هناك الكماج وهو أصغر حجماً وأكثر سمكاً ويستخدم يومياً في الإفطار والعشاء، ثم القُرص: وهي أصغر من الكماج وتعجن باللبن والسمن ويضغط على سطحها بمنقاش يصنع دوائر مزخرفة على سطحها حتى لا تقب في الفرن، هناك أيضاً فطير الذرة وهو يصنع من دقيق الذرة، حجمه كبير، مقرمش وطعمه لذيذ.

لا ننسى طبعا الفطير الفلاحي -نسميه في العزبة المشلتت- وهو يصنع بطريقة معقدة من عجينة تُفرد لمساحة كبيرة ثم تُطوى في طبقات عديدة يفصل بينها السمن وقطع الجبن الأبيض. وإذا ذكر المشلتت ذكر الكفافي وهو يشبهه ولكن دون الطبقات الكثيرة.

في آخر الخبز يتم إعداد أرغفة السمن والسكر-نسميه الأبورى- للأطفال وهو ما نكون في انتظاره من أول اليوم. بعد الخبز لابد من الاستفادة من حرارة الفرن، فتقوم جدتي "نعمت" بشي السمك أو البطاطا أو الذرة بالإضافة لإعداد حلة الأرز المعمّر -نسميه المدور- على موقد جانبي بجوار الفرن. كان يوم الخبز يوماً شاقاً لنساء العائلة لكنه كان بمثابة احتفال لنا.

فعلاً رغم ظروفنا وظروف عزبتنا الصغيرة المنعزلة إلا أننا حظينا بطفولة مميزة وذكريات رائعة.

في إحدى المرات كنا نلعب في حوش دار الرفاعي أنا و"عمر"، فوجدنا مفاتيح جدي "عبد الحميد" ملقاة على الأرض، عرفناها على الفور، لا توجد ميدالية ولكن ميزنا على الفور المفتاح الأسود الكبير للباب الخارجي لدار الرفاعي، تشاجرنا سوياً من يعطيه لجديتي "أنيسة".

-أنا من وجدها أولاً.

-لكنها مفاتيح أبي.

-هو أيضاً جدي.

-مهلاً دعنا نجرب المفاتيح أولاً.

وأخذ "عمر" المفاتيح لي تجربها في قفل غرفة المخزن، وهي غرفة صغيرة في آخر الحوش، جدرانها العتيقة مبنية بالطين وبها الكثير من الشقوق، جدارها الخلفي ملاصق لترعة صغيرة وسقفها مغطى بقش قديم حال لونه للأسود. أخذ "عمر" يجرب المفاتيح في القفل الصدى حتى استجاب أخيراً. أصدر الباب الخشبي صريراً وهو يتحرك كأنه لم يُفتح منذ قرون، آخر مرة رأيت هذه الغرفة مفتوحة كانت في نهاية الصيف الماضي حيث أخرج منها جدي وأبي ميزاناً كبيراً ومجموعة من الحبال الضخمة وذلك لوزن محصول القطن.

لما انفتح الباب لم نجد شيئاً غريباً؛ بعض أجولة السماد، الميزان الكبير، بعض الأدوات كان يستخدمها جدي أحياناً في تصليح ماكينة المياه الصغيرة،

فأس قديم، فقط لفت انتباهي أن أغصان نبات الغاب التي تنبت على شاطئ التربة قد اخترقت الجدار الطيني ونمت أخصانها بمحاذاة الجدار حتى سقف الغرفة بينما زحفت جذورها داخل الغرفة.

قال "عمر": عبده، انظر ماذا هناك.

فخطوت عدة خطوات لأرى ما هناك، عندها سمعت صوت الباب يغلق والقفل يوضع مكانه مع صوت ضحكات "عمر". هذا ليس مضحكاً، الغرفة مظلمة تماماً، لم أكن ممن يخافون الظلام، ناديت "عمر": افتح يا "عمر"، هذا ليس مضحكاً.

فقال وسط ضحكاته: ماذا أيها الفتى الشجاع، هل أنت خائف من الظلام؟

لست خائفاً ولكنك تعرف أن جدي قال أنه ليس مسموحاً لأحد بدخول هذه الغرفة، ولا أريد أن يعرف أننا دخلناها.

حسنًا، توسّل إلى قليلاً.

حينها سمعت الصوت، ينادي باسمي في خفوت، وشعرت بشيء يزحف على الأرض والجدران، ارتجف جسدي رعباً عني، وبدأت عينيّ تعتادان على الظلام، شعاع نور صغير يأتي من شق في الجدار، أرى فعلاً أشياء تتلوى وتزحف على الأرض الجدران، ثم رأيت عيين صفراوين تنظران لي وسمعت الصوت الخافت: عبد الحميد، أنا في انتظارك، لن تستطيع الهرب، عندما يحين الوقت ستأتي، أنت لي.

أخذت أطرق الباب في جنون وأنادي "عمر" وأكيل له كل ما أملك من سباب حتى شعرت بشيء يصل لقدمي ويجذبها حينها صرخت حتى فقدت وعيي.

أخذت جدتي "أنيسة" تحكي لي ما فاتني من أخبار العزبة، كنت قد عرفت معظم الأخبار من عمي فتحي ولكني تركتها تحكي بالتفصيل كعادتها، "عمر" صار طبيباً، "سهام" تخرجت من كلية التربية وتعيش مع زوجها بالمنصورة، و"ماجد" تخرج من كلية الإعلام، عمي المهندس "إبراهيم" مات.

رغم معرفتي بالخبر إلا أنني لم أقبله بعد، هذا الرجل المهيب الذي طالما اعتبرناه شخصية أسطورية، كان يختلف عن أهل العزبة في شكله وملابسه ولكنته وطريقة كلامه، حتى أولاده لم يكونوا مثلنا، كان أول من غادر العزبة، ذهب للقاهرة للدراسة بعد تخرجه سافر للكويت وظل هناك لمدة طويلة وعندما عاد استقر في القاهرة مع زوجته القاهرية وأولاده، كان حضورهم للعزبة بمثابة عيد لنا، حيث يجتمع الجميع ونلعب مع أولاده الذين كانوا يرون كل شيء في العزبة غريباً؛ الحقول، الحمير، الكلاب، الحمام، التربة.

لم يكن عمي المهندس "إبراهيم" يقبل أن يناديه أحد "عمي" فقط، أذكر أن عمي "طه" ناداه مرة "عمي إبراهيم" فغضب غضباً شديداً وقال أنا اسمي الباشمهندس إبراهيم. كان يرفض أن تتم مساواته بأحد إخوته. حتى أخاه الأكبر

جدي "عبد الحميد" كان يناديه "الباشمهندس". أولاده صارت أسماؤهم "هشام بن الباشمهندس" و"عمرو بن الباشمهندس" وهكذا.

عندما كنت أذهب مع جدي وأبي لزيارته في القاهرة كنت أنبهر جداً بالقاهرة وشوارعها ومعالمها وكنت أعتقد أن عمي الباشمهندس هو من أكبرها وربما عمدتها. لم أتوقع قط أن يموت رجل كهذا ويدفن في نفس القبر مع جدي "عبد الحميد".

تملّصت بصعوبة من جدتي "أنيسة" وخالتي "سامية" وأخوي "محمد" و"أمل" وقلت لهم أنني سأصعد لأنام قليلاً في غرفتي. اقتربت مني عمتي "زينب أم عبده" وقالت: ألن تخبرني لماذا اختفيت؟ وماذا حدث لك؟

اعتادت عمتي "زينب" ألا أخفي عليها أي شيء، فكانت دائماً موضع أسراري، ولكن الآن اختلفت الكثير من الأمور.

قلت لها: طبعاً سأحكي لك كل شيء، ولكن ليس الآن.

قالت بخبث: لن أخبرك بأخبار "عبير" حتى تحكي كل شيء.

-عبير؟ هل هي في العزبة؟

-أجل.

قالتها وانصرفت تاركةً إياي على السلم في طريقي لغرفتي، صعدتُ إلى
السطح ونظرت لآخر العزبة، ظهرت عدة بيوت كامتداد للعزبة، لم يعد بيتها آخر
بيت في العزبة ولكنه ظل كما هو، ترى أين هي عبير الآن؟

نظرت على حوش دار الرفاعي فاقشعرّ بدني عندما وقعت عيناى على
غرفة المخزن العتيقة.

فيفا جنائية

"هناك نوعان أساسيان من كرة القدم؛ كرة القدم التي نعرفها جميعًا ويرأسها الاتحاد الدولي لكرة القدم (الفيفا) وينظم كأس العالم وبطولات كأس الأمم القارية، وكرة القدم الأمريكية وتمارس أساسًا في الولايات المتحدة.

غير ذلك هناك اتحاد عزبة الجنائية لكرة القدم (الفيفا جنائية) حيث تنقسم كرة القدم لعدة أنواع: كرة القدم العادية التي يلعبها بقية خلق الله-نسميها هنا التخشيشة- وشروطها هنا أن يكون هناك عدد كافٍ من اللاعبين لتكوين فريقين، الاختلاف أنه ليس هناك زمن محدد بل تنتهي المباراة عندما يصل أحد الفريقين لعدد من معين الأهداف يتم الاتفاق عليه قبل المباراة ويكون غالبًا ستة أهداف في بعض الأحيان 12 هدف- وإذا تعادل الفريقان 5-5 فلكي يفوز فريق فعليه أن يتقدم بفارق هدفين.

غالبًا ما يكون المرمى عبارة عن حجرين، لا قوائم ولا عارضة، وتحديد إن كانت الكرات المرتفعة ستحتسب هدفًا أم لا يعتمد في الأساس على ارتفاع

صوتك وقدرتك على فرض رأيك على الخصم واستخدام الأيمان المغلظة لإثبات صحة رأيك.

النوع الثاني هو المخفية وتختلف فقط بوجود حارس مرمى واحد ويسدد عليه الفريقان في نفس الوقت وذلك لنقص عدد اللاعبين. النوع الثالث عندما يكون هناك لاعبان فقط هو ضربات الجزاء حيث يتبادل كل منهما تسديد ضربات الترجيح على الآخر. النوع الرابع: في حالة وجود لاعبين فقط أيضاً وهو الصدة ردة، كل لاعب يقف أمام مرماه ويسدد الكرة ويصدها الآخر ثم يتركها تقف ويسددها من مكان وقوفها.

المهم أن العزبة تملك من الإمكانيات والمهارات ما يؤهلها للاشتراك في كأس العالم لولا الخلافات السياسية مع الفيفا"

"علاء أبو السعيد" كابتن فريق العزبة.

أفقت فوجدتني في غرفتي على فراشي وجواربي يجلس أبي يبكي.

-أبي، ماذا حدث؟

-لاشيء يا بني، هل أنت بخير؟

-الحمد لله، أنا آسف يا أبي أنني دخلت غرفة المخزن ولكن "عمر" هو من فتحها وخدعني وأغلق الباب.

وماذا حدث بالداخل؟

حكيت لأبي وأنا أرتجف ما رأيت في الغرفة، فابتسم ابتسامة مرتجفة وقال: يبدو أنك فقط خفت من الظلام وتعثرت فارتطمت رأسك بالباب وفقدت وعيك.

ماذا عن الأشياء التي كانت ترحف على الأرض والجدران؟

فضحك وقال: هذه فقط أغصان الغاب وجذوره، لم نجد شيئاً آخر في الغرفة.

ماذا عن الصوت الذي ناداني؟

ماذا قال لك؟

فلما حكيت له ما سمعته امتقع وجه أبي وقال: هذا صوت من خيالك فقط، لأنك كنت خائفاً، المهم عدني ألا تدخل المخزن مرة أخرى.

-إذا لم يكن هناك شيئاً يخيف لماذا لا تريدني أن أدخل المخزن؟ ولماذا يغلقه جدي دائماً بالقفل؟

-لأن به ثعابين يا عبده ولقد أحضرنا أحد الرفاعية لإخراجها من قبل ولم يستطع، هل فهمت؟

-لماذا تبكي إذا يا أبي؟ لم أرك تبكي من قبل.

-لأنني خفت عليك يا بني.

طبعاً نال "عمر" يومها علاقة محترمة من جدي، المشكلة أنه خاصمني ورفض الكلام معي.

-عمر، هل من الممكن أن تخبرني من منّا يفترض أن يغضب من الآخر؟ لقد خدعتني وحبستني في المخزن المظلم ووقفت في الخارج تضحك بينما أنا أصرخ في الداخل.

-أنا طبعاً، أنا المخطئ أنا مزحت مع طفل ساذج مثلك، يصرخ مثل الفتيات ويقلب الدنيا علينا لأنه خائف من الظلام، وما النتيجة؟ الفتى المدلل ينال كل الاهتمام، الكل قلق عليه، وأنا أنا التوبيخ والضرب والعقاب ويتم اتهامي أيضاً أنني سرقت مفاتيح أبي.

-ولكننا وجدناها في الحوش.

-ولكن أحداً لم يصدقني.

لم أحك لأحد -غير أبي- ما رأيت في المخزن حتى لا أزيد جرعة السخرية التي ألقاها.

استغرق الأمر عدة أيام حتى عادت علاقتي بـ"عمر" لسابق عهدها، وعدنا لمغامراتنا سوياً بأرض القصب الخاصة بعبد المقصود، مرة نقذف الأحجار على شجرة الجميز العتيقة في مدخل العزبة للحصول على الجميز.

ومع مرور السنوات لم يعد مسموحاً لـ"سهام" اللعب مع الأولاد، وشدّدت عمتي "زينب الكبيرة" الحصار على "ماجد" فكان نادراً ما يأتي للعزبة. لم يتبق إلا أنا و"عمر".

بدأنا نلعب مع باقي الأولاد في العزبة وكوننا صداقات جديدة مع "أحمد بن حامد أبي العوضي" جارنا، و"علاء بن السعيد أبي سعد" و"حسن بن عبد الملاه أبي سعد".

وصار لمتعتنا وجوه أخرى؛ استخراج الطعم من شاطئ التربة واستخدامه في صيد السمك بواسطة صنارة يدوية الصنع، ألعاب من نوعية "القرد وصاحبه"، "شد الكُبس-كهربا"، "صلح"، وطبعا اللعبة الأساسية هي كرة القدم، طبعا بالقوانين التي وضعها "الفيفا جنائية" كما أسماها "علاء".

وقتما تتوفر كرة تتوقف جميع الألعاب وتنطلق مباريات كرة القدم حتى غروب الشمس، كان "علاء" هو أكثرنا مهارة وفريقه غالباً هو الفائز، يراوغ، يسدد الكرة بين قدمي اللاعبين الآخرين، يرفع الكرة من فوقهم ويستقبلها مرة أخرى، يسدد على الطائر، يمرر بكعبه، خلاصة القول كان لاعبا متكاملًا.

كلنا اعترفنا بعلو كعبه علينا إلا منافسه المباشر "حسن أبا عبد الملاه" الشهير بـ"حسن شنكر"، لم يكن "شنكر" يملك نصف مهارات "علاء" ولكنه

كان يملك القوة البدنية التي تمكنه من انتزاع الكرة في الصدامات المباشرة والصوت العالي الأجش الذب يعترض على محاولة احتساب أخطاء عليه نتيجة لعبه الخشن، وكان دائماً يهدد أنه يسدد بنصف قوته فقط وأنه لو سدّد بكل قوته أو لو "قمبز" على حد قوله لما استطاع أحد صد الكرة.

كنا نجتمع ثم نبدأ في تقسيم أنفسنا إلى فريقين؛ فريق "علاء" وفريق "حسن شنكر"، كل منهما يختار لاعبا بالتبادل حتى يكتمل الفريقان ثم يبدأ اللعب. أذكر في إحدى المرات كنت في فريق "حسن"، وأنا طبعاً من أسوأ اللاعبين لا أجيد هجوماً ولا دفاعاً، فأخذ "حسن" يغير مكاني (تقدّم يا "عبد" للهجوم وسأبقى أنا هنا حتى أوقف "علاء")، (عُد يا "عبد" للخلف وسأتقدم أنا حتى أستطيع التعادل)، (عبد، احرس أنت المرمى ودع "أحمد" يتقدم ولا تجعلهم يسجلون)، طبعاً كل هذا بلا فائدة، تلقينا هدفاً تلو الآخر ومع كل هدف يأتي "عمر" ليرقص أمامي ليغيظني أن فريقه هو الفائز، احتسب خطأ لصالحنا فذهبت لـ "حسن" وقلت له: لماذا لا تقمبز الآن، أرهم تسديدك القوية حتى يتوقفوا عن السحرية منا.

فقال "حسن": "حسنًا، إنه الوقت المناسب.

ثم قام بتشميمير سرواله عن ساقه اليمنى إلى ما فوق الركبة وثبت الكرة وأخذ يعود للخلف حتى صار خارج الجرن الذي نلعب فيه، ووقف يهدد وينذر بأنه سيقمبز (هل أنتم مستعدون؟)، وانطلق يجري نحو الكرة وسدّد.

كانت التسديدة ضعيفة جدا، مما أثار سخرية "علاء" و"عمر" وبقا الفريق. احمَرَّ وجه "حسن" وقال: ليست هذه هي القمبزة، لقد ارتطم إصبعي بالأرض قبل أن أسدد.

كنا بالطبع نلعب حفاة، ظللت طوال المباراة أحفره حتى يريهم تسديده وهو يحاول التملص ثم يجرب وكل مرة تخيب التسديدة، حتى فهمت في النهاية أن القمبزة ما هي إلا أسطورة اخترعها للتهديد فقط أنه لا يريد التسديد بكل قوته حتى لا يؤدي أحدا أو يمزق الكرة.

ولم تكن سخرية "عمر" ورقصه المستفز يمثلان شيئا أمام ما يتلقاه الفريق الخاسر من "علاء"، حيث يستغل خفة ظله وسرعة بديته في غناء أغنية مرتجلة عن فشل الفريق الخاسر وأعضائه ويبدأ في إطلاق الألقاب عليهم، ومن الجدير بالذكر أن نصف ألقاب الأولاد من جيلنا كان مصدرها هو "علاء".

وفي بعض الأيام كانت تزورنا فرق من العزب المجاورة فتزداد سخونة المباريات. وفي موسم القطن تتوقف المباريات لأن غالبية أولاد وبنات العزبة يكونون في الحقول لمكافحة دودة القطن وهو ما نسميه (الفرقة)، ورغم كونه عملا شاقا يمارس تحت الشمس الحارقة تحت رقابة شديدة من الخولي الذي تلاحق عصاه كل مخطئ أو كسول، إلا أن الأولاد كانوا يجدون المتعة في تجمعهم والأغاني الجماعية والمقالب والذكريات التي يحكونها في استمتاع لاحقا.

وكنّت ألحّ على أبي أن يسمح لي بالذهاب ولكنه كان يرفض رفضاً تاماً – رغم أن جدي "عبد الحميد" أبدى موافقته- إلا أن أبي كان يصرّ على موقفه وكان دائماً يقول أنه يريدني أن أكون مثل أولاد عمي الباشمهندس "إبراهيم" وعمي الأستاذ "عبدالله" وعمتي "زينب الكبيرة" وأنه متأكد أنني سأكون طبيباً أو مهندساً أو ضابطاً. وبعد إلحاحي ووساطة جدي "عبد الحميد" كان يسمح لي فقط بمرافقته أثناء جمع القطن.

وبعد انتهاء موسم القطن تعود المباريات لسخونتها لا يوقفها إلا غياب الكرة حين تتمزق تماماً لحين حصولنا على كرة جديدة يكون لصاحبها حق تحديد مواعيد المباريات وحق اختيار فريقه. وفي حالة أن تثقب الكرة يتم ترقيعها بقطعة من البلاستيك عن طريق سكين ساخن.

وفجأة غاب "علاء" عن المباريات لعدة أيام، ولما سألنا عنه قالت أخته أنه مريض، وبعد يومين ذهب به أبوه للمنصورة، وكانت المباريات مستمرة في انتظار "علاء" لنخبره بالنتائج التي حدثت في غيابه، وعن فوزنا على فريق عزبة "فرنسا" وعن مفارقات "شنكر".

حتى جاءنا الخبر في الأسبوع التالي.

"علاء" مات.

ألقيت جسدي على فراشي وظللت أحدّق في سقف الغرفة.

لو قال لي أحدهم من شهر مضى أنني سأرى هذه الغرفة مرة أخرى لقلت أنه قد جُنَ حتمًا. فلقد خرجت من هذه الغرفة وقد نويت ألا أعود للعزبة حيًّا ولا ميتًا، وكنت طوال السنوات الماضية أعتقد أن هذا القرار لا نقاش فيه وأن شيئًا في الكون لن يزعجني عن هروبي من العزبة.

ولكن حتى الهروب فشلت فيه.

حتى حياة الهارب بدون أهل ولا وطن التي قررت أن أعيشها والتي يعدها الكثيرون فشلًا. قد فشلت فيها، أي أنني فشلت في الفشل نفسه.

كانت عمتي "زينب الكبيرة" دائمًا تقول لي إنني لن أفجح في شيء قط وأنني سأظل طوال عمري خائبًا.

ورغم فشلي في كل شيء جربته، وخيبة الأمل التي أصبت بها كل من حولي إلا أنني لم أقتنع بklamها وكنت متأكدًا أنني يومًا ما سأجد طريقي الذي أنجح فيه وأثبت نفسي.

ظلتُ أتقلب في الفراش وسط ذكريات تدور كلها حول نبوءة عمتي "زينب الكبيرة".

"عمر" يتسلق شجرة التوت في خفة

(انظر يا عبده، لا بد أن تتمسك بيديك جيدًا وتلف ساقيك حولها هكذا، هيا جرب، تمسك جيدًا، ليس هكذا، ستسقط، لا فائدة)

الشيخ "عباس" يلوح بعصاه في غضب في الكتّاب:

(يا ولد، لا تخلط السور ببعضها البعض نحن نحفظ سورة البلد" ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة) ما تقوله أنت (تواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) هذه الآية في سورة العصر، هذه المرة الثالثة التي تخطئ فيها هل سنظل طوال السنة نكرر نفس الآيات، زملاؤك أتمّوا بالفعل حفظ" جزء عمّ" بالكامل).

"ماجد" يقول في نفاذ صبر:

(يا "عبده" قلت لك ألف مرة "2ط نق" هو محيط الدائرة نحن نريد هنا حساب مساحة الدائرة، هل تعرف القانون؟ حسناً هو "ط نق تربيع" هل تستطيع أن تحسبها؟ ماذا؟ لا تعرف ما هي "ط"؟ لا اا اا اا هذا كثير).

"علاء" يرفع الكرة ثم يستقبلها بقدمه ويثبّتها:

(انظر يا "عبده"، لا بد أن تستقبل الكرة هكذا أولاً قبل أن تسددها لأنك لو سددها مباشرة على الطائر لن تستطيع التحكم فيها جيداً، هيا أرني، لا ليس هكذا، سأريك مرة أخرى، هيا افعل مثلي، لا، أعتقد يا "عبده" أن تلعب في فريق "شكر" أفضل وهو سيدريك على تسديدته المميزة حتى تقمبز مثله).

الأستاذ "عبد المجيد" يلوح بعصاه الأثيرة "عزيزة" كما يحب أن

يسميها:

-أعطيت الولدَ كتابًا، يا "عبد الحميد" أعرب كلمة "الولد".

-فاعل مرفوع بالضمّة.

-يا بني، الكلمة على آخرها فتحة، هل عميت؟

-حسنًا، هي مفعول به.

-الآن أعرب كلمة "كتابًا".

- "كتابًا" هي التي تعرب مفعولاً به بينما "الولد" تعرب فاعلاً.

-هلا قرأت لنا عنوان الدرس الذي نشرح فيه منذ نصف ساعة أيها

العبقري.

- "الأفعال التي تنصب مفعولين".

-حسنًا، الآن أعرب "كتابًا".

-صفة.

-هنا انهالت "عزيزة" على ظهري.

-سهام تنط الحبل في رشاقة:

(عليك أن تمسك طرفي الحبل بيديك ثم تديره هكذا وتقفز، هيا، لا تنتظر إلى قدميك فقط اقفز، أدر الحبل بيديك أسرع، اقفز لأعلى أكثر، قلت لك لا تنتظر إلى قدميك، عندي اقتراح أفضل، ألعب شد الحبل مع الأولاد أفضل)

الصول " عبد اللطيف" يقف خلفنا ويقول بصوته الجهوري:

مرور شعاع البصر من فتحة الناشكناه الخلفية مرورًا بسنّ نملة الدبابة وحتى أسفل منتصف الهدف، هل هذا واضح، ثبتّ الدبشك إلى كتفك بقوة، ويدك تكون ميتة على السلاح، لا تتحرك ولا تتنفس إلا بأوامر قائد عظيم ميدان الرماية، استعد، اضرب، كل العساكر ثابت محلّك، عسكري "عبد الحميد" فقط اضرب مرة أخرى، يا عسكري يا مهزأ طبق قاعدة النشان جيّدًا وثبتّ السلاح بقوة، هيا، استعد، اضرب، يا "عبد الحميد" لو قامت الحرب استخدم السونكي فقط سيكون هذا أفضل من أن تطلق النار على زملائك بالخطأ.

"أحمد أبو حامد" يسدد الكرة موجّهاً تعليماته:

لنكون حارساً جيّدًا لابد أن يكون رد فعلك سريعًا، ارتم على الكرة، لا تحاول صدها بقدميك فقط، استخدم يديك أنت الآن حارس مرمى، أمسك الكرة بقوة وأجعل صدرك خلف يديك حتى لا تغلت منك الكرة، انتبه لقدميك جيّدًا لأن "علاء" يحب تسجيل الأهداف من بين قدميك كل مرة، ضم ساقيك واستخدم يديك، هيا جرّب، قلت استخدم يديك هل فهمت؟

عمتي " زينب عبد الحميد" تقول:

حقًا يا "حميد" تريد أن تتعلم الرسم؟! حسنًا تعال، أمسك القلم هكذا، لا تضغط على الورقة أجعل القلم مائلًا على الورقة وطرفه يلامسها فقط، لا تضغط، حاول أن ترسم عينًا كهذه، قوس لأسفل وآخر لأعلى، لا جرب مرة أخرى، ثبت يدك لا تدعها تهتز، لا تضغط على الورقة، جرب مرة أخرى، وليكن، دائرة في المنتصف، هل هذه دائرة؟ ارسم الرموش، هذه أقرب لمكنسة يا "حميد" وليست عينًا، هل تعرف يا "حميد" أنا متأكدة أنك فنان بالفطرة ولكنني أقترح أن تجرب نوعًا آخر من الفنون غير الرسم، جرب الغناء أو رقص الباليه.

"جاناكا" سائق الشركة يجلس بجواري في سيارة الشركة:

شوف "حميد" رجل يسار دوس كلاتش مرّة، رجل يمين دوس بنزين شوية شوي، بعدين شيل رجل يسار شوية شوي ما في سرعة سرعة عشان سيارة ما في وقف، معلوم؟ يلا أمسك دركسيون كويس، عيون فوق ليش أنت ناظر تحت، شوية شوية، دور مرة ثاني، "حميد" أنت نفر خربان مخ مافي.

الصول "عبداللطيف" يصرخ بقوة:

كتفًا ١١ ١١ ١١ ١١ سلاح

حد تتين ثلاث هوب

حد تتين ثلاث هوب

حد تتين ثلاث هوب

جنبًا ١١ ١١ سلاح

أنت يا عسكري "عبد الحميد" يا عديم الدم، لقد اقترب موعد العرض ولازلت لا تعرف كيف تقوم بعمل كنفًا سلاح، لو رآك سيادة اللواء في العرض تمسك السلاح بهذه الطريقة سنذهب وراء الشمس جميعًا، ستّة استعد يا عسكري.

"نصر الدين" يقول بلهجته السودانية المحببة:

-أنت يا زول أنت حكايتك شنو، شغل ما داير تشتغل، تليفزيون ما داير تتفرج تعرف الحاصل شنو في الدنيا، لا بتخرج ولا تروح حديقة ولا هناي، كورة ذاتو ما داير تلعب، هسيّ أنت عايش في الدنيا بتسوي شنو؟

"أبو نايف" غاضب لأنّي لا أستطيع التعامل مع الزبائن وبدأ متجر الأحذية يخسر بسببي.

جدتي "نعمت" تضحك من محاولاتي فرد العجين فلا أستطيع جعله دائرة مستوية.

"سلامة" زميلي في مدرسة الصنائع يحاول أن يعلمني كيف أفتح المطواة بيد واحدة بحركة سريعة فأفشل في كل مرة وأجرح يدي.

عمي "طه" يحاول أن يعلمني كيف أثبت السرج على الحمار حتى أثبت العربية الكارو فيه.

أرفع رجلي من على الدبرياج فتنتفض السيارة ويتوقف الموتور.

"علاء" يسدد الكرة من بين قدمي في المرمى.

السرج يقع من على ظهر الحمار وسط صراخ عمي "طه".

أضغط الزناد بقوة فتنتطلق الطلقات كلها بعيداً عن الهدف.

صوت طرقات على الباب.

ثم أفقتُ على صوت عمتي "زينب عبد الحميد": (افتح يا "حميد"،
أعرف أنك لم تنم).

الموت

"الموت هو الحقيقة الوحيدة في هذه الدنيا، انظر إلى كل ما حولنا من أمور وأحداث ستجد أنها تتقاذفها رياح التغيير والتقلب، فلا شيء يستقر على وضع، ولا إنسان يستقر على حال، يبقى فقط الموت ثابتاً راسخاً وسط هذه العاصفة المتدافعة المتقلبة كشجرة كبيرة تمتد جذورها لأعماق الأرض، تقف في وجه الريح والأمطار والسيول، تنمو محاصيل وتُحصَد، تنبت شجيرات وتذبل، وتبقى هي راسخة ثابتة.

الموت هو نهاية كل شيء، وربما بداية كل شيء، كلنا نعرف أننا نتجه إليه وأننا لا بد ملاقوه، وكلنا لا نتعظ به ولا نجهز له عدتنا وعتادنا، كل من قد سبقنا إلى الموت قد سبقنا فقط بخطوة، كأننا في طريق يقطعه نهر—مثل طريق عزبة المئة وثمانين- هناك من يركب الصندل ويعبر للجانب الآخر وهناك من ينتظر دوره على الضفة حتى يعبر"

جدي عبد الحميد أبو سالم.

الصندل: قارب يعبر بين ضفتي النهر.

لطالما اندهشت من علاقة جدي "عبد الحميد" بالموت، فهو دائم الحديث عن الموت والعظاات التي يجب أن نتعلمها منه، دائماً يذكر من ماتوا من أقاربه وأصدقائه، وكيف مات كل منهم، وكيف كانت جنازته، وهل حضر الجنازة عدد كبير من الناس أم لا، يزور المقابر كل يوم خميس ليوزع النقود على المُقربين، ويزور قبور أبيه وأمه وجدته وباقي أقاربه.

كان لا يفوت جنازة في القرية أو أي من العزب المجاورة لنا إلا حضرها وحضر العزاء، أما داخل العزبة فقد كان هو الذي يتولى الأمور في حال حدوث حالة وفاة، يتفق مع الحانوتي وأصحاب الفراشة، يجهز القبر ويفرشه بالرمل ويجهز الأسمنت، يحضر الغسل، ويحدد مواعيد الجنازة، يشرف على فرش الجرن الكبير بالقش استعداداً لتلقي العزاء، يحمل النعش، يصلي الجنازة إماماً، ويحمل المتوفى إلى قبره بنفسه، ويلقي العظاات على مسامع المشيعين، ويعود ليقف في أول الصفوف لتلقي العزاء، ويتابع بيت المتوفى إن كان أهله في حاجة إلى شيء ويستقبل الضيوف القادمين من خارج العزبة.

كنت أراه يفعل ذلك بتفانٍ واستمتاع، وكان أبي مساعده في كل تلك الخطوات. لم أشعر قط أنه حزين على المتوفى ولم أره يبكي قط حتى على والدته جديتي "نعمت"، كان يبدو مشغولاً ومتحمساً يلقي الأوامر هنا وهناك (هل اتفقت مع أصحاب الفراشة؟-يا "سالم" هل جهزت الرمل والأسمنت؟-هل ذهب "طه" لطبيب الوحدة لاستخراج تصريح الدفن؟-يا "عبدالله" اذهب معهم لتثبيت الميكروفون فوق سطح البيت).

مرة واحدة فقط سمعته يبكي ولم يكن بسبب وفاة أحد بل عندما فقد أرضه.

ولقد ورث أبي منه هذا الاهتمام وكان يصاحبه في كل هذه الخطوات.

لا أذكر متى ماتت أمي، ولا أذكر عنها إلا صورة مشوشة لسيدة جميلة تداعبني وهي تضحك، وحقيقة لست أدري هل هي ذكرى حقيقية أم أنها من نسج خيالي لأنها تبدو تمامًا كما هي في الصورة الوحيدة لها والتي يحتفظ بها أبي.

كانت أمي قد سقطت من فوق سطح دار الرفاعي لكنها وقفت على التو وقالت أنها بخير ورفضت الذهاب إلى طبيب، وعلى آخر اليوم وجدوا أنها لا تستطيع الحركة فأخذوها إلى المنصورة ورجعوا بها في اليوم التالي جثة هامة.

لذلك ظل أبي دائمًا يمنعي من تسلق سطح غرفتي ويغضب جدًا لو علم أنني صعدت إلى سطحها. طبعًا أنا لا أذكر شيئًا عن حادثة أمي، جدتي "أنيسة" هي من حكّت لي كل هذا، ما أذكره فقط هو بكاء أبي وهو يحتضنني طوال الليل.

أما أول علاقتي بالموت فكان الحاج "سعد" الأخ الأصغر وغير الشقيق لجدي الأكبر "سالم"، وآخر الأحياء من ذلك الجيل، كان رجلاً طاعناً في السن يجلس طوال اليوم أمام بيته أو على جسر التربة في الأيام المشمسة، يرتسم العبوس دائمًا وأبدًا على ملامح وجهه المليئة بالتجاعيد والأخاديد التي حفرها الزمن، كان "علاء" و"حسن" حفيدها- يقبلان يده إذا مررنا من أمامه، أما إذا أزعجه صياحنا أو ارتطمت به الكرة أثناء لعبنا فكان يرفع عصاه مهددًا ويطلق

علينا سيلاً من الشتائم والسباب الذي تتميز به عزبتنا. حيث أن لعزبتنا قاموسها الخاص من الشتائم التي يستخدمها أهل العزبة بإفراط في كافة المواقف، يكفي أن تمر بالعزبة مرة واحدة لترى امرأة توبّخ ابنتها أو رجلاً يعاقب ابنه لتسمع ما لم يحلم به مختصو علم الأمراض.

رغم بكاء "علاء" و "حسن" لم أبك على وفاة الحاج "سعد" ولم أشعر بالحزن، فظل ضميري يؤنبني لأنني لم أبك مثلما بكى صديقي. لم تكن وفاته لتؤثر في حياتي مطلقاً فأنا لا أذكر أنه كلمني مرة واحدة باستثناء السباب والتهديد بالضرب، لكنني لم أتخيل الأمر، هذا الرجل كان موجوداً والآن لم يعد كذلك، لازال البساط الذي كان يجلس عليه أمام منزله كما هو، ومؤكّد أن عصاه لازالت موجودة، لكنه لن يجلس في هذا المكان مرة أخرى.

صدمتني فكرة الموت أكثر مما صدمني موت الرجل، فجأة ينتهي كل شيء، كل ما فعله وقاله وحلم به، كل ما نجح فيه أو فشل فيه أو انتوى فعله.

لكن مع بدء طقوس العزاء في العزبة نسيت كل شيء وبدأت أتابع في شغف، الجرن الكبير يفرش بالقش النظيف، الفراشة وهي أقمشة ملونة بألوان زاهية تنصب على أعمدة خشبية على حدود الجرن الكبير، الميكروفون. ثم يبدأ العرض الحصري الخاص بعزبتنا، يبدأ أبناء وبنات وأقارب المتوفى في إظهار مدى حزنهم ولوعتهم على فراقه. أحدهم يصرخ ويبكي في هستيريا ثم يشق جلبابه، وهذه تلطم وجهها بكلتا يديها، تلك تضع التراب على رأسها، فيأتي بعدها من ينزل التربة ويضع طيناً على وجهه وهو يصرخ. كل واحد يؤدي دوره ثم يستجيب لمن يحاولون تهدئته فيجلس ليشاهد العرض التالي كأنها

مسرحية وطبعًا لا بد لكل شخص أن يزيد على ما فعله الآخرون ليبين أنه الأكثر حزنًا.

كنت أجلس على سور شرفة منزل جدي "سالم" بجوار "عمر" و"ماجد" و"سهام"، نجلس مشدوهين غير مصدقين لما يحدث، خاصة فيما يقولون أثناء العرض من اعتراض على إرادة الله وإهانة الذات الإلهية.

بعد ذلك كانت الجنازة، النعش الخشبي يخرج من المنزل على أكتاف رجال العزبة يقودهم جدي "عبد الحميد" طبعًا وسط أصوات الصراخ من حريم العزبة، وتعبّر الجنازة نحو كوبري الزواينة متجهة إلى المسجد الكبير بالقرية، وقف عمي "طه" على الكوبري لينهر أطفال العائلة ويأمرهم بالعودة فلم يتسنّ لنا متابعة باقي الرحلة.

بعد عودة رجال العزبة، بدأت الصواني في الظهور، من كل بيت في العزبة تخرج صينية عليها طعام الغداء، تتجمع الصواني في الجرن الكبير ويقف كل رجل أمام الصينية الخاصة ببيته ويدعو الضيوف والأقارب فيلتف الناس على هيئة حلقات حول الصواني، ويختفي الحزن الذي يغلف الوجوه، ثم تظهر ابتسامة هنا وهناك، ثم تظهر أصوات الضحكات وينسى الجميع المتوفى.

تتراص الأرائك الخشبية بمحاذاة البيوت بطول العزبة، كل بيت يخرج ما لديه من أرائك لتكون صفًا طويلاً، في أول الصف يقف أكبر أبناء المتوفى وجدي "عبد الحميد" وبضعة رجال، ويسلم صف المعزين عليهم ثم يجلس المعزون على الأرائك ليبدأ الشيخ "عباس" في قراءة القرآن في الميكروفون.

تستمر هذه الأجواء ثلاثة أيام ثم تعود العزبة لهدوئها مرة أخرى.

كان هذا لقائي الأول مع الموت ولكن الضربة الحقيقية كانت بعد ذلك بعام.

كنا نجلس جلستنا المعتادة على سور بيت جدي "سالم" نشاهد حدثًا هامًا في العزبة؛ قمينة الطوب.

أكوام كبيرة من التراب وضعت في الجرن، ثم يتم خلطها بالماء ثم عجنها عن طريق بقرتين تدوران داخل هذا الخليط (يسمونه المعجنة)، كل رجال العزبة تقريبًا يشاركون في المعجنة.

في اليوم التالي جاء رجال متخصصون من القرية لصب الطين في قوالب متساوية باستخدام قطع معدنية، ثم يتركونها لتجف في صفوف على أرض العزبة، انتشرت القوالب الطينية في كل مكان في العزبة مع حراسة مشددة حتى لا يلهو بها الأطفال ويقفوا عليها فيفسدوها. بعدما تجف تأتي المرحلة الأصعب؛ بناء القمينة.

والقمينة هي بناء مكعب الشكل به عدة فجوات في أسفله تمتد بطول المكعب، يتم بناؤه برصّ الطوب اللبن فوق بعضه بمهارة بدون أسمنت وبعد اكتمال البناء يتم وضع طبقة من الطين عليه.

الخطوة الأخيرة هي تسوية هذا الطوب، يتم ملء عيون القمينة بفروع الأشجار والحطب ثم تشعل فيها النار، ويظل الرجال يطعمون النار داخل العيون وحول القمينة ليوم وليلة، وحتى يحمرّ لونها وتصير كجمرة كبيرة من النار.

ورغم توقف لعب الكرة ومطاردتنا أثناء محاولة السير فوق الطوب النئى، ورغم الدخان الكثيف، كنا مستمتعين جداً بهذا الحدث. ولكن كان هناك شخص أبعد ما يكون عن الاستمتاع؛ جدتي "نعمت".

كانت جدتي "نعمت" تعاني من ربو مزمن، ودائماً تحمل معها بخاخاً صغيراً، وكل أسبوع يأتي "بسيوني" التمرجي (الممرض) حاملاً المحقن الزجاجي الكبير والعلبة المعدنية ويتم تسخينهم على النار ليعطي جدتي حقنتها الأسبوعية، وأثناء الخبيز كانت تعد العجين وتجهز كل شيء ولكنها تحاول الابتعاد عن الفرن قدر الإمكان، ومع ذلك كنت أسمع صفير أنفاسها ليلاً، وسعالها في الصباح الباكر.

ثم كان يوم إشعال القمينة، الجميع مشغولون بالقمينة، عمي عبدالله يغلق كل النوافذ والأبواب ولكن بلا فائدة، تتسرب الأدخنة السوداء إلى كل مكان، "سهام" ورثت الربو عن جدتها ولم تستطع متابعة النار معنا.

بعد انطفاء النار ظلت الأدخنة تخرج من القمينة لتملأ سماء العزبة.

كانت جدتي "نعمت" تعاني أسوأ لحظاتها، سمعت صوت سعالها فدخلت عليها الغرفة، كانت تجاهد لالتقاط نفسها، صوت الصفير عالٍ جداً، سارعت وناولتها البخاخ، لم تستطع استخدامه، أخذت أضغط على البخاخ في هيسستيريا أمام فمها، لكنها لم تستطع استنشاقه، وظلت تنظر إلى في إعياء.

صعدت السلم جرياً وأوسعتُ باب شقة عمي "عبد الله" ضرباً بقبضتي وبقدمي، فخرج إلى غاضباً وأغلق الباب خوفاً من تسرب الدخان للدخل حيث

تناهى إلى مسامي صوت سعال "سهام"، فقلت له: جدتي "نعمت" مريضة جداً.

أحضر عمي "عبد الله" طبيب الوحدة الذي أعطاها حقنة وأكد أنها لا بد أن تذهب إلى المستشفى.

أخذت أبكي وأنا أمسك بيدها أثناء نقلها إلى السيارة البيجو. فقبلتني وقالت بصوت لا يكاد يسمع: لا تخف.

فربت جدي "عبد الحميد" على كتفي وقال: لا تخف يا "عبد الحميد"، جدتك قوية ولن يهزمها بعض الدخان، إن شاء الله غداً نرجع بها وهي في خير صحة، وإن شاء الله يمد الله في عمرها حتى تعدّ الفطير الخاص بزواجك.

وعادت السيارة بدونها وبدون جدي "عبد الحميد". حيث تم حجزها في المستشفى وأصرّ جدي أن يبيت بالمنصورة عند أخته عمتي "سعاد" حتى يحاول زيارتها في الصباح بواسطة من زوج عمتي الذي يعمل بالجامعة.

بعد يومين كان العزاء في بيت جدي "سالم" الذي امتلأ بالنساء المتشحات بالسواد، وملاً أذني صوت صراخهم، أحسست بالضيق، أناس أغراب يجوسون في بيت جدي وفي غرفة جدتي، عمتي "زينب" الكبيرة تبكي وتصرخ فيهم (لا أحد يدخل على أمي)، جدي "عبد الحميد" يشرف على استعدادات العزاء، عمي "عبد الله" يبكي في صمت، عمتي "سعاد" تصاب بالإغماء، أبي يحمل النعش مع باقي رجال العزبة، عمي المهندس "إبراهيم"

يقف مع جدي لتلقي العزاء، العمدة والمأمور جالسان في الصيوان، صوت الشيخ "عباس" يرن في الميكروفون، أنا و"عمر" و"ماجد" و"سهام" منزوون في الشرفة، تمتد أيدي أمهاتهم تباغاً فتنشلهم واحداً بعد الآخر، وأبقى وحيداً.

الآن أنا فعلاً يتيم.

الضربة الثانية كانت غير متوقعة. فرغم غياب "علاء" عن لعب الكرة معنا لمدة أسبوع ورغم علمنا أنه مرض ورغم أن "حسن" أخبرنا أنه ذهب للمستشفى في "المنصورة" إلا أننا لم نتوقع قط أن "علاء" سيموت. كيف يموت؟! هو ليس عجوزاً ولم يسقط في الفسقية ولم يقع من فوق السطح، لماذا يموت إذًا؟ كل الناس يمرضون ويبرأون فلماذا يموت "علاء" في سن صغيرة؟ لا أفهم ما هي الحمى الشوكية ولا أريد أن أفهم ولكن لماذا أصابته هو بالذات من دون الناس؟ كان الأمر مخالفاً لكل ما كنت أعرفه آنذاك عن الموت والحياة.

كان الخبر صاعقاً لنا، سمعنا الصراخ فجرينا لنرى ماذا هناك. السيارة البيجو البيضاء اللعينة تقف أمام بيت "علاء". ترى من مات؟ جدته؟ ربما أبوه؟

ثم بدأ اسم "علاء" تتقاذفه الأفواه في إشفاق، ماذا يعني هذا؟ أخت "علاء" الصغيرة تجري باكية بمحاذاة التربة وإحدى نساء العائلة تجري ورائها. "حسن" يجلس على الأرض وسط الجرن ويبكي بصوت عالٍ.

"علاء" مات.

لا أذكر شيئاً عن العزاء وتفصيله فقد كنت مذهولاً طيلة أيام العزاء. أذكر فقط جلوسي بجوار "حسن" و"عمر" و"أحمد" في صيوان العزاء في المكان الذي كان يمثل المرمى أثناء لعب الكرة كأنه حداد على كابتن الفريق.

إذن لن نحكي لـ"علاء" عن مباراتنا التي لعبناها مع فريق عزبة فرنسا أثناء غيابه، لن نسمع تعليقه على ضربة الجزاء التي أضاعها "حسن"، لن نسمع الأغاني التي يرتجلها بعد كل مباراة، من سيطلق علينا الألقاب المضحكة؟

لماذا يصبر الناس على إرسال ذويهم عندما يمرضون إلى المنصورة؟ كل من يذهب إلى المنصورة لا يعود. قررتُ إنني لن أذهب إلى هذه المدينة الملعونة أبداً، كان جدي يصطحبني معه في المواسم لزيارة عمتي "سعاد"، وكنت أنبهر بجمال المدينة وبمنظر النيل واستمتع باللعب مع "ياسر" و"عفاف" أبناء عمتي "سعاد"، ولكنني بعد وفاة "علاء" رفضت الذهاب إلى تلك المدينة مرة أخرى.

توقفتُ بعد "علاء" عن لعب الكرة رغم عودة المباريات بعد عدة أسابيع، صار "عمر" هو قائد الفريق ولكنني رفضت اللعب متحججاً بأنني اقتنعت أخيراً أنني لا أجيد اللعب.

شخص آخر أثرت فيه وفاة "علاء" بشدة.

"حسن شنكر"، لم يعد مرحاً ضحوكاً مثلما كان، لم يعد يسمح لأحد أن يناديه "شنكر" وهو الاسم الذي أطلقه عليه "علاء" -رحمه الله. لم يعد يلعب

معنا بحجة أنه كبير ولا يصح أن يلعب مع الأولاد الصغار رغم أنه يكبرنا بعام أو عامين فقط.

رغم مناوشاتهما المستمرة إلا أن موت ابن عمه كان صدمة كبيرة لـ"حسن" لم يستطع تجاوزها. ورغم توقفه عن لعب الكرة في العزبة إلا أنه كان يلعب في المدرسة. وأثناء دورة المدرسة لكرة القدم والتي تقام بين الفصول في وقت الفسحة، كان "حسن" يلعب مع فريقه واحتسبت لصالحه ضربة حرة. ثبت "حسن" الكرة وعاد للخلف ليسددها مشيرًا لزملائه أن يبتعدوا، هنا انطلق الصوت من بين الطلبة المتجمعين لمشاهدة المباراة: (قَمِيز يا شنكا !! الر).

ورغم إنكار "عمر" أنه من قالها إلا أنني لم أصدق. كنت لاحظتها أقف خلف المرمى ورأيت تعبير وجه "حسن" حين سمع الجملة فاقشعر جلدي. شاط "حسن" الأرض وطاشت تسديده بينما وقع هو على الأرض يمسك قدمه ويبيكي ولم يكمل المباراة ولم يلعب بعدها أبدًا.

لم أصدق أن "حسن" كان يبكي بسبب إصابته، بل ربما هو شاط الأرض عن قصد ليبرر بكاءه، فلقد رأيت لـ"حسن" الكثير من الإصابات بسبب لعبه الخشن ولكنه كان يذهلنا بقوة تحمّله حتى أنه جرح قدمه يومًا وأخذ يسيل الدم منها ورفض أن يخرج من المباراة وأخذ يضع على الجرح ترابًا ويضغط عليه بقدمه الأخرى حتى يتوقف الدم ليكمل اللعب. لكن في تلك المرة في المدرسة عرفت أن "حسن" سيبيكي قبل أن يسدد.

للأسف كان لقائي مع الموت تلك المرة قاسياً جداً ولكني لم أعلم وقتها أن
الضربة التالية ستكون أكثر قسوة.

عمتي زينب أم عبد الحميد

"عندما تُريك الدنيا وجهها الأفضل لن تشعر وقتها بذلك، لن يخطر ببالك أن هذ هو الوجه الأفضل وأنك تعيش أسعد وأهدأ أيام حياتك، إلى أن تدير الحياة لك وجهًا آخر لتفاجأ وقتها أن الأيام الصعبة التي كنت تعيشها لم تكن الأسوأ مقارنة بالأيام العصيبة التالية، فالحياة ليست أبداً تبادلاً بين الأبيض والأسود بل هي درجات من اللون الرمادي أو الأدق أنها تتبدل بين الأسود والأسود الحالك.

بالتالي غالباً ماتجد نفسك أمام خيارات جميعها سيء، فتضطر لاختيار خيار أنت متأكد أنه خيار خاطيء محاولاً تفادي ما هو أسوأ. وغالباً ما يأتي ذلك الأسوء الذي كنت تحاول تفاديه لتندم على اختيارك الخاطيء؛ لأنك كان من المفترض أن تختار الأكثر خطأً.

الخلاصة في وسط غابة من الخيارات السيئة، إياك أن تختار اختياراً أنت تعرف أنه خاطيء حتى لو كان أقل سوءاً من باقي الاختيارات، لأن كل الاختيارات السيئة تقود لنفس النهاية، فإن كان لابد من الاختيار عليك اختيار أسوأ الأسوأ حتى تصل سريعاً للنهاية التي تقود إليها كافة الخيارات."

عمتي زينب أم عبد الحميد

وقفت مع عمتي زينب أم عبدالحميد فوق سطح دار الرفاعي أمام غرفتي. استندت إلى سور السطح وأخذت أتأمل الطريق الترابي الذي اختلطت جزئيات أتربته بحبات عرقنا وذكريات طفولتنا ثم رفعت نظري خلف سور الغاب نحو أشجار الليمون والبرتقال في جنيئة الزواينة. حميد، ألن تخبرني لماذا اختفيت؟ وأين كنت طوال هذه السنوات؟

فقلت باقتضاب: كنت في السعودية.

نعرف هذا طبعًا، فقد اتصل عمي فتحي وقال إنه قابلك هناك، ولكن ماذا كنت تفعل هناك؟ ولماذا لم تتصل بأحد منّا طوال هذه الفترة؟ بالأصح لماذا هربت منا؟

فقلت: ليس الأمر هكذا، لماذا أهرب منكم؟ فقط قررت أن أجرب السفر مثلما فعل الكثيرون ولكن الأمور لم تسر كما توقعت ولم أوفق في عملي هناك فلم أرد أن أعود من هناك فاشلاً فأخذت أجرب عملاً بعد آخر.

ولماذا عدت الآن؟ هل حققت النجاح الذي كنت تريده؟

فابتسمت في مرارة: بالطبع لم أحقق سوى المزيد من الفشل ولكنني قررت العودة بعدما حكى لي عمي فتحي عما حدث بين أبي وبينكم.

-لا تقل بينكم، بل بينهم، فأنا لا دخل لي بما يفعله بقية إخوتي. ولم هربت من البداية؟

فهزرت رأسي دون أن أرد فقلت: هل كان ذلك حزنًا على وفاة جدك أم بسبب موضوع عبير؟

فالتفت إليها وقلت: بالمناسبة ما أخبارها؟

لقد عادت من مصر وتعيش منذ سنة في العزبة؟

*ماذا عن حالتها الصحية؟

أنت تعرف هي لا تحب أن تتكلم عن هذا الأمر، ولكنها تبدو بخير، فقط كل بضعة أشهر تراجع المستشفى في مصر.

*هل تزورينها؟

ليس كثيرًا ولكن أستطيع زيارتها من أجلك شريطة أن تخبرني بشيء.

*وماهو؟

-أنت لم تخف عني سرًا من قبل لماذا لا تريد أن تخبرني لماذا هربت؟

*لأنك تعرفين بالفعل.

امتقع وجهها وقالت: ماذا تقصد؟

نظرت في وجهها الذي فارقتة الابتسامة من سنوات طويلة، ذلك الوجه الحبيب الذي تبدو ملامحه أكبر من عمره بعشر سنوات على الأقل، لم أستطع قط المراوغة والكذب أمام هاتين العينين، التفت مرة أخرى وشردت ببصري في أشجار الجنية الممتدة إلى نهاية الأفق ثم قلت: أنت تعرفين جيدًا لماذا غادرت العزبة، وممن أحاول أن أهرب ولكنك تتجاهلين ذلك على أمل أن يكون حدسك خاطئًا، لقد هربت محاولاً ألا أقع فيما وقعتِ أنت فيه.

لم تفه عمتي زينب ببنت شفة وتسلفت في صمت وانصرفت دون حتى أن أسمع وقع قدميها. شعرت بندم شديد على ماقلته لها ولكن كان ذلك عهدي معها دائماً، لم أستطع أن أكذب عليها قط.

كانت هي دائماً الأقرب إلى قلبي من بين إخوة أبي، كانت تكبرني ببضعة أعوام فقط فكانت كأنها أختي الكبيرة ولكني لم أجرو على مناداتها باسمها مجرداً قط مثلما كان يناديها أخوها عمر.

ولكنها لم تكن تحب اسم زينب أم عبده وكانت تفضل أن أناديها عمتي زينب فقط ولكن نظراً لأشكالية عمتي زينب الكبيرة وزينب أم جمعة وافقت أن أناديها عمتي " زينب عبد الحميد " من دون " أم " التي هي قاعدة في كناية الأسماء في العزبة، وفي المقابل سألتني عن الاسم الذي أفضل أن تنادينني به " عبده " أم " عبده أبو سالم " أم " عبد الحميد الصغير " كما كنت تنادينني جدتي نعمت أم " عبودة " كما يناديني عمر وماجد أم " شكيحة " وهو اللقب الذي

أطلقه على علاء. فقلت لها أني أفضل اسم "حميد". فلما سألتني عن السبب أخذت أراوغ بعض الوقت ولكنها استطاعت أن تعرف مني السبب وهو أن "عبير" قد نادتنني به يومًا.

من يومها لم أستطع اخفاء سرّ عن عمتي زينب عبدالحميد أبدًا، فكانت هي محط أسراري كلها.

بالإضافة إلى أنها كانت تقف بجانبني دائمًا، تحميني من عمي طه الذي كان دائمًا يطلب مني وعمر أن نذهب لنساعده في دوار المواشي ويشكو لجدي من لعبنا طوال النهار دون فائدة فكانت عمتي زينب تقف في صفنا وكانت الابنة المفضلة لجدي عبد الحميد والوحيدة القادرة على التأثير عليه.

وأثناء شجاري مع عمر كانت دائمًا ماتقف في صفي.

أذكر يومًا كان ماجد يذاكر معي في دار الرفاعي، وكان ماجد يسبقني بعام دراسي ونظرًا لتأخري في الدراسة وشكوى المدرسين مني كان أبي يطلب دائمًا من عمتي زينب الكبيرة أن ترسل ابنها ماجد ليساعدني في المذاكرة، ورغم أن ماجد صديق طفولتي كان دائمًا هادئًا ولطيفًا إلا أنه أثناء المذاكرة معي كان دائمًا عصبياً وسريع الغضب، وكان غالبًا ما يرتفع صوته رغمًا عنه (هذه خامس مرة أشرح لك هذه النقطة ألا تفهم)، (لو أنني أشرح لخرفيشة-وهي الطوب الأسود المحترق في قلب القمينة-لكانت فهمت)، وفي إحدى المرات كان يشرح على ما أذكر الجهاز الهضمي

وأخذ يسألني فيما شرحه في اليوم السابق ما هو العضو الذي يقوم بكذا فكننت أجيب في كل مرة بإجابة واحدة (الاثنى عشر) لأن الاسم أعجبنى والتصق بذهني فكان يجيبني بصبر نافذ " لا يا عبده الإجابة هي البنكرياس "، حتى قال في إحدى المرات " الأمعاء الغليظة " فانفجرت ضاحكاً في هستيريا " الغظيظة؟ ما هي هذه الأمعاء الغظيظة؟ أول مرة أسمع عنها " ففوجئت به ينفجر غضباً كما لم أره من قبل ولا من بعد " لا لقد طفح الكيل، أمس شرحتها لك وأخذت أرسم وأوضح في القولون الصاعد والقولون المطين على رأسك واليوم تقول لي غظيظة، أنت فعلاً كما قال عنك الأستاذ عبد المجيد: أغبى من حمار العمدة " قالها وانصرف، دخلت عمتي زينب على فوجدتني جالسة في صمت وقد احمر وجهي فقلت لها " هل أنا فعلاً غبي كما يقول الجميع؟ "

فقالت " بالطبع لست غيباً، ولكنهم يشرحون لك بالطريقة الخاطئة، إياك أن تصدق ذلك، أنت إنسان ذكي ولكنك لا تعرف كيف تستخدم ذكائك بطريقة صحيحة " بعدها صارت هي من يذاكر معي دروسي.

كانت عمتي زينب أم عبده تختلف كثيراً عن كل فتيات العزبة، ليس فقط بسبب تفوقها في الدراسة، ولكن في طريقة تفكيرها ورجاحة عقلها، ولذلك كان جدي عبد الحميد فخوراً بها دائماً. هذا بالإضافة لصوتها الجميل في قراءة القرآن ومهارتها المميزة في الرسم.

لازلت أذكر يوم نتيجة الثانوية العامة عندما كانت الأولى على المدرسة،
لم أر جدي عبد الحميد سعيداً مثلما رأيته في ذلك اليوم، كان فخوراً بها، ليس
فقط لأنها الأولى على المدرسة وعلى القرى المحيطة بنا كلها، ولكن وهو الأهم
بالنسبة له- أن مجموعها كان أكبر من مجموع ابن عمي الباشمهندس إبراهيم
وابن عمتي سعاد.

كان جدي يحلم بأن تكون ابنته طبيبة لكنه فوجئ بها تطلب منه أن تدخل
كلية الفنون الجميلة.

كان جدي أول مرة يسمع عن هذه الكلية-وكذلك أنا- فأخذت تشرح لنا
عمتي زينب ما هي هذه الكلية ولماذا تريد الالتحاق بها، كان الأمر مبهرًا
بالنسبة إليّ، فطالما كنت انبهر بطريقة عمتي زينب في الرسم حيث كانت
لاتتوقف عن رسم أي شيء أمامها بدقة ومهارة وباستخدام أدوات بسيطة.

وتمتلئ غرفتها بأوراق مليئة برسومات لأشجار البرتقال وشاطيء
البحر الجديد وطريق العزبة وحقول القصب بل ولديها صورة لجدي "نعمت"
كلما رأيتهما اقشعر جسدي، ولكن الأمر لم يعجب جدي "عبد الحميد" الذي أخذ
الأمر على محمل المزاح في البداية ولكن عمتي زينب أصرت على موقفها
واستغلت محبة أبيها لها وتلبيته لكافة رغباتها وأخذت تلح عليه، استعان جدي
"عبد الحميد" بأخوته لإقناعها بدخول كلية الطب لتصبح أول طبيبة في العائلة،
فأخذ عمي "عبد الله" يحدثها عن مهنة الطب ومكانتها وأنها ستكون شرفاً
للعائلة كلها، وأخذت عمتي "زينب الكبيرة" تشرح لها أن دراسة الطب هي
نوع من الفنون أيضاً وأنها ستستمتع جداً بدراستها وتستطيع أيضاً الاستمرار
في تنمية موهبتها الجميلة بجانب الدراسة.

استمرت الضغوط على عمتي "زينب عبد الحميد" حتى كانت الضربة القاصمة حينما جاء عمي المهندس "إبراهيم" في إجازة للعزبة وعرض جدي "عبد الحميد" الأمر عليه فصدر فرمان على الفور "دراسة الطب لا تصلح للبنات، الخيار الأفضل للبنات هو كلية الصيدلة أو التربية، ثانياً لا داعي للدراسة في القاهرة من الأفضل أن تكون في المنصورة لتكون قريبة منكم" ورفض التعليق تماماً على كلية الفنون الجميلة، وملاً استمارة الرغبات بنفسه وذهب مع جدي عبد الحميد للمنصورة لتقديمها في مكتب التنسيق.

أدهشني وقتها رد فعل عمتي "زينب" عندما عرفت بما فعله جدي، لم يبد عليها أي شيء، لم تعترض ولم تناقش، ولكن علاقتها بجدي "عبد الحميد" اهتزت بشدة، وكلما حاول أن يسألها عن رأيها في كلية الصيدلة قالت أن الرأي رأيها هو وأنها لا تستطيع مخالفة أوامره. لكنها لم تعد تمزح معه كثيراً كعادتها.

ويوم أن جاء عامل البريد ينادي من أول العزبة باسم عمتي زينب عبد الحميد حاملاً معه خطاباً به استمارة الترشيح لكلية الصيدلة جامعة المنصورة ورفض تسليمها لأبي قبل أن يأخذ "الحلاوة"، انطلقت الزغاريد من جدتي أنيسة وخالتي سامية وجهزت جدتي أنيسة الشربات ووزعناه على العزبة كلها وأقام جدي عبد الحميد "ليلة لوجه الله" على حد قوله، فتم إعداد الطعام وجاء مجموعة من المشايخ في مقدمتهم الشيخ "عباس" يقرءون القرآن بصوت عالٍ وهم جلوس على الأرض في دائرة وجذوعهم تهتز للأمام وللخلف أثناء القراءة وبعد انتهائهم من قراءة القرآن تم وضع الطعام على طبلية كبيرة وسط

الدائرة فأخذوا في تناول الطعام بأيديهم بسرعة كبيرة هي أقرب للتخاطف والشجار.

وسط كل هذا كانت عمتي زينب أم عبد الحميد صامتة، لم تبد عليها سعادة وسط جموع المهنيين.

وبعد انتهاء الليلة، وبينما الجميع مشغولون بتنظيف البيت بعد الفوضى التي تركها المشايخ، نادى جدي "عبد الحميد" على ابنته "زينب" وجلس معها في الشرفة بينما كنت أجلس أنا وعمر تحت سور الشرفة فسمعت حوارهما.

- "زينب"، هل لازلت حزينة لأنك لم تذهبي للكلية التي كنت تريدينها؟
الفن الجميل؟

*لا، يا أبي.

- لا تكذبي علي، أنا أرى في عينيك حزناً من يوم التقديم، ولكن لابد أن تعرفي أنني لا يسعدني شيء في الدنيا قدر رؤيتك سعيدة، وأنت بالقطع تعرفين مدى محبتك في قلبي ومكانتك عندي.

ولكن يا ابنتي نحن أناس فلاحون، عشنا عمرنا بجوار أرضنا، أكلنا من رزقها وتطبنا بطباعتها، تشدنا إليها فلا نستطيع الابتعاد عنها إلى أن نعود وندفن فيها مرة أخرى، لا نحب الترحال ولا المغامرة، لا نريد أن نجرب إلا ما اعتدنا عليه أباً عن جد، نخاف أن نجرب أي شيء جديد علينا، نزرع المحاصيل التي زرعها أبائنا وأجدادنا، تعلمنا منهم أوان زراعتها وريها وحصادها

وتخزينها، نخاف أن نزرع مالم يعلمنا أجدادنا زراعته، لأننا لا نعرف أو ان زراعته وطرق رعايته وريه، وربما لا تناسبه تربة أرضنا، وربما لأننا لم نعتاد أن نجرب شيئاً جديداً، هذه طبيعتنا، عندما أرسلني جدك سالم للمدرسة قاومت بشدة، لم يذهب أحد من عزبتنا للمدرسة من قبل، فلماذا أنا؟ أريد أن أذهب إلى الغيط مثل أبناء عمي "الحاجعلي" وعمي "سعد"، لم أتحمل سخريتهم مني وأنا ذاهب بزي المدرسة في الصباح فقررت أني لن أذهب إلى المدرسة مهما حدث، فلما ينس مني أبي بعد هروبي المتكرر من المدرسة أخذني معه إلى الغيط ثم إلى جنيّة الزواينة حيث كان يدير لهم حسابات الجنيّة ثم عملت معه في تجارة القطن، لقد تعلمت منه الكثير بالفعل ولكني ندمت أنني لم أكمل تعليمي خاصة بعدما تعلم بقية إخوتي، خلاصة القول أني لم أكن أرغب أبداً ألا ألبى رغبتك ولكني بطبيعتي أخاف من أي شيء لا أعرفه، أنا أريدك أن تكوني أفضل فتاة في المديرية كلها ولكني لا أعرف شيئاً عن كلية الفن الجميل هذه أو أيّا كان اسمها، الفن عندنا عموماً يعطينا إحياء يخالف طبيعتنا المتحفظة ربما مما سمعناه أو رأيناه في الراديو أو التلفزيون، أنا أثق فيك وفي اختياراتك ولكني لا أعلم عن التعليم إلا الطبيب والمهندس والمدرس وبقا المهن التي نعرفها.

ثم إنني سألت المهندس "إبراهيم" فلم تعجبه أبداً هذه الكلية ثم إنه اعترض على الدراسة في مصر وقال إنه رأى هناك الكثير من المصائب التي تحدث للطالبات التي يدرسن بعيداً عن أهلهن واقترح أن الأفضل لك أن تكوني قريبة منّا في المنصورة ولكنه قال أن كلية الطب مكلفة جداً ومرهقة ولا تناسب البنات وقال أن كلية الصيدلة هي أكثر كلية مناسبة لك.

فاعلمي أيًا كان رأيك فيما فعلته أنني فعلته فقط خوفاً عليك ورغبة في رؤيتك في أعلى مكانة. فلا تغضبي مني إن كان قراري يخالف رغبتك فقط فكري أنني فلاح عجوز يخاف على ابنته.

*أنا لا أستطيع أن أغضب منك أبداً يا أبي ويعلم الله أنك أحب أهل الأرض إلى قلبي، وأني لم أكن لأخالفك في رأيك قط. أنا فعلاً كنت أحلم بدخول كلية الفنون الجميلة ولكني كنت أعرف أنك غالباً لن تقبل بذلك. كنت فقط أحاول ولكن في حال رفضك كنت سأدخل الكلية التي تريدها وكنت سأكون سعيدة لأنني سأحقق حلم أبي بأن يرى ابنته طبيبة رغم أنه ليس حلمي، ولكن ما أحرزني فعلاً أنك جعلتني أتخلى عن حلمي وتخلّيت عن حلمك أنت أيضاً انصياعاً لرغبة عمي المهندس "إبراهيم" الذي حتى لم يتكلم معي ولم يناقشني وكتب الرغبات كأنني جارية عنده لا رأي لها. أنا مستعدة للتخلي عن حلمي من أجل أبي ولكني لست مستعدة للتخلي عن حلمي وحلم أبي من أجل المهندس "إبراهيم". أنا لست غاضبة منك يا أبي ولكني حزينة لفقدان حلمي وحزينة مرة أخرى لأنني فقدت حلم أبي وأرى حزنه في عينيه حتى ولو لم يصرح به

الأسماء

"للأسماء في عزبتنا فلسفتها الخاصة التي لا تنافسها فيها إلا روايات الأدب الروسي العتيقة.

افتح الترجمة العربية لأي من كلاسيات الأدب الروسي مثل (دكتور جيفاجو) أو (الحرب والسلام) ستجد فهرسًا للأسماء في أول الرواية وهي سمة خاصة لتلك الروايات، وهذا ليس بسبب كثرة شخصيات الرواية وتداخلها فقط ولكن أيضًا لما تتميز به الأسماء الروسية؛ فلكل شخص اسمه الرسمي المكون من ثلاثة مقاطع مثل "ألكسندر ألكسندروفيتش جوردونوفسكي"، ثم هناك اسمه المخفف الذي يناديه به أصدقائه، واسم تدلّله به أمه وهو صغير، وعندما يكبر لابد أن يتغير اسم التدليل، ثم قد يحصل الشخص على لقب جديد يختلف كليًا عن اسمه، هذا طبعًا بالإضافة للسيدات اللاني تتغير اسمائهن وألقابهن بعد الزواج.

أما في عزبة الجناينة فالشخص يحصل على اسم عند ولادته- غالبًا يسمى على اسم جده أو أحد أفراد عائلته- وإذا حدث خلاف بين أبيه أو أمه وهذا الفرد من العائلة الذي سُمي تيمناً به فسيتغير اسمه فوراً.

ونظرًا لتشابه الأسماء وتكرارها يتم مناداته بكنيته مثل "محمد أبي سالم" وعند دخوله المدرسة تنكشف عادة سيئة لأهل العزبة؛ الاسم الرسمي في شهادة الميلاد يختلف تمامًا عن الاسم الذي يناديه به الناس طوال عمره وغالبًا لا يعرف بذلك أحد إلا عند دخوله المدرسة وظهور شهادة ميلاده.

فنكتشف أن شريف اسمه الحقيقي حسين، وحسن اسمه الحقيقي على، وأحمد اسمه الحقيقي رزق.

ثم تظهر الألقاب وما أكثرها في عزبتنا، ألقاب ليس لها معنى تطلق على الشخص وقد تُنسى في اليوم التالي أو قد تلتصق به طوال عمره.

هناك أيضًا الحرفة، خاصة إن كانت مميزة فتحل محل اللقب مثل فتحية الخياطة، على الحداد، عبده مفاتيح.

خلاصة القول الأسماء في عزبتنا تحتاج إلى فهرس مثل الروايات الروسية وأقترح أن يكتب على رق بماء الذهب مثل المعلقات ويعلق على الجميزة العتيقة في مدخل العزبة".

ماجد ابن عمي زينب الكبيرة.

لازلت أذكر أول يوم لي في المدرسة، إحساس هو مزيج من السعادة والخوف، أشعر بالسعادة لأنني كبرت وسأذهب للمدرسة مثل الكبار، وخوف من هذا العالم الغريب الذي يفتح أمامي. ارتديت الزي المدرسي في فخر، رغم خجلي في البداية لكونه يشبه فساتين البنات ولكني وجدت أن كل الأولاد يرتدون مثله، القماش ذو المربعات الحمراء والبيضاء، أخذني أبي لفتحية الخياطة لتأخذ مقاسي لتفصل لي زيًا مدرسيًا وسروالاً بنفس القماش، وكانت المفاجئة أنها فصلت لي حقيبة من نفس القماش لأضع فيها كتبي ودفاتري ولها جيب داخلي وضعت فيه القلم الرصاص والمبراة والممحاة الملونة التي أهدتني إياها عمتي زينب عبد الحميد.

ورغم أننا في عمر واحد تقريبًا أنا وعمر ومجد وسهام. إلا أن ماجد وسهام كانا قد دخلا المدرسة قبلنا بعام لأنهما يكبراننا بشهور وربما كما قال لي عمر-لأن أبويهما توسطتا بحيلة ما ليدخلاهما المدرسة مبكرًا عن أقرانهما.

خرجنا أنا و"عمر"-الذي كان يرتدي مثلي تمامًا- من دار الرفاعي وقطعنا الطريق بطول العزبة حتى منزل جدي "سالم" بخطوات وجلة كأننا نتعلم المشي لأول مرة. وهناك وجدنا عمي "عبد الله" في انتظارنا ويمسك في يده بكف "سهام" التي ترتدي زيًا مدرسيًا له نفس اللون ولكن تزيينه بعض الشرائط الحمراء بنفس لون الشرائط التي تزين بها ضفيريتهما، وكانت تحمل على كتفها حقيبة جلدية ملونة أخذنا أنا

و"عمر" نسترق النظر إلى الحقيبة وأقفاها اللامعة
ونقارنها بحقيبتنا القماشية المزودة بشريط قماشي
لنحملها على كتفينا.

مشينا مع عمي "عبد الله" و"سهام" وعندما
عبرنا كوبري الزواينة كان "ماجد" ينتظرنا هناك
فانضم إلينا.

بدأت فرحتي بحقيبتتي الجديدة تزول بعدما رأيت
حقيبة ماجد الجلدية التي يحملها على ظهره وزيه
المدرسي الذي كان أقرب لقميص عادي يرتديه مع
سروال أسود وحذاء جلدي لامع يختلف عن الحذاء
البلاستيكي الأبيض الذي نرتديه أنا وعمر. طريق طويل
قطعناه ونحن نحاول اللحاق بخطوات عمي عبد الله
السريعة، وأنا أحاول حفظ الطريق المتعرج بين بيوت
القرية حتى وصلنا إلى المدرسة العتيقة، وقفت في
رهة أمام البوابة الحديدية الكبيرة كأنها بوابة تقودني
إلى عالم آخر، عشرات الصبية يجرون هنا وهناك، فتح
العامل البوابة لنا عندما رأى عمي عبد الله- الذي يعمل
مدرسًا في نفس المدرسة- فدخلنا معه للداخل بينما ظل
بقية الأولاد في الخارج.

مبنى المدرسة يتكون من دور واحد يحيط بالفناء
الترابي.

جذب العامل حبلاً غليظاً ليدق جرساً حديدياً
عملاقاً، ثم فتح البوابة ليتدافع الأولاد بقوة من البوابة
ويجرون في الفناء مرددين " هيببييه خشيننا خشيننا"
اندهشت جداً من احتفالهم بدخول المدرسة، لماذا هم
فرحين هكذا، ولكني عرفت بعد ذلك أن ذلك يحدث مع
دق الجرس عند الفسحة " هيببييه فسحة فسحة "
وعند الخروج " هيببييه مرواح مرواح " وأنها على
سبيل التنبيه للآخرين الذين لم يسمعوا الجرس.

أشار عمي عبد الله نحو مجموعة من الأولاد

وقال لنا أن نذهب لنقف مع زملائنا في الصف
الأول.

ذهبنا في خطوات مترقبة كالتائهين بينما بدا
ماجد وسهام يعرفان المكان جيداً فذهبا إلى مكان
طابور الصف الثاني.

وقف أحد المدرسين وأخذ يصيح فينا بصوت
غليظ أن كل من هو في الصف الأول يقف هنا، وأخذ
ينظمننا في عدة صفوف بعصا غليظة. افترقت عن عمر

نتيجة تراحم الأولاد للوقوف في الصف بسرعة تفاديًا
لضربات العصا. أخذ الأستاذ ينادي الأسماء بسرعة من
كشف في يده وأخذ يتكلم عن (أولى أول) و(أولى ثاني)
وصفوف للبنات وصفوف للأولاد، لم أفهم شيئًا مما
يقول ولم أدر أين ذهب عمر وشعرت أنني على وشك
البكاء حين انتهى الأستاذ من قراءة الأسماء وقال:

هل عرف كل منكم

فصله؟

كان الأولاد بالفعل وقفوا في صفوف بينما تبقى
بضعة أولاد في أماكنهم لم يعرفوا أين يذهبون كنت أنا
طبعًا منهم ولاحظت أيضًا لأول مرة وجود أحمد بن
حامد أبي العوضي جارنا معي ضمن المجموعة
التائهة.

قال الأستاذ غاضبًا أننا إما أغبياء أو مصابون
بالصمم وأنه غير مستعد لقراءة الأسماء مرة أخرى
وأخذ يسأل كل واحد عن اسمه ويبحث عنه في
الكشف. هنا شعرت بأحد يجذبني من ملابسي، التفت
فوجدت عمر يجذبني قائلاً: أسرع تعال معي أنت معي

في أولى أول لقد سمعت اسمك وأخذت أشير لك وقتها
لكنك كنت واقفًا كالصنم.

أسرعت ووقفت في الصف مع عمر بينما أخذ
الأستاذ يوزع الأولاد الباقين حتى تبقى ولدان فقط.
أحدهما اكتشف الأستاذ أنه في الصف الثاني بينما الولد
يقسم أنه كان السنة الماضية في الصف الأول وبالتالي
فهو يقف مع طلبة الصف الأول معتقدًا أن هذا هو
مكانه للأبد فصرخ فيه الأستاذ غاضبًا أن يقف مع
تلاميذ الصف الثاني وقال إنه لو كان بيده لأبقاه فعلاً في
الصف الأول. الثاني كان "أحمد أبا حامد" الذي أخذ
الأستاذ يسأله مرارًا عن اسمه بالكامل ثم يبحث في
الكشوف بلا فائدة.

-هل أنت متأكد أنك في الصف الأول؟ أعني هل
هي أول سنة لك في المدرسة أم أنك كنت في الصف
الأول السنة الماضية كالحمار الذي قبلك؟، حسنًا قل
اسمك بالكامل.

-أحمد حامد العوضي على الشرقاوي.

هنا زفر الأستاذ في ضيق وقال: الآن فهمت،
لعنة الله عليك وعلى أبيك، أنت اسمك هنا رزق، أحمد

هذا تنادي به أمك عليك بجوار التربة أما هنا أنت
اسمك "رزق حامد العوضي"، هل فهمت؟

هز أحمد أبو حامد رأسه في ذهول وذهب ليقف
في الصف وهو لازال غير فاهم ما يحدث مثلنا.

بدأ الطابور وسط ذهولنا، تمارين الصباح،
الإذاعة المدرسية، عمي عبد الله يقود الطقوس
الصباحية، النشيد الوطني، ثم صوت الطبلية وبداية
تحرك الصفوف نحو الفصول. قادننا الأستاذ الغاضب
نحو فصلنا.

تدافع التلاميذ في سرعة نحو الأماكن الأمامية
بينما وقفت أنا ذاهلاً. ولكنني وجدت عمر ينادي على
ويشير إلى مكان بجواره قد حجزه لي في الصف
الأمامي.

وبدأ مشواري الدراسي. مع الوقت بدأت أرى
وجوهاً مألوفة، العديد من الأولاد والبنات من عزبتنا
موجودون في نفس المدرسة، أحمد أبو حامد معي في
نفس الفصل بالإضافة إلى بنت أخرى من العزبة وهناك
أيضاً بنت أخرى عرفتُها، إنها حنان بنت عمي "حسن
الساكت" وهو صديق لجدي "عبد الحميد" يمت لنا

بصلة قرابه يسكن في عزبة بعيدة ويأتي لزيارتنا في المناسبات راكباً جراراً أحمر كبيراً، كنا نعرف بوجوده في العزبة عندما نرى الجرار بعجلاته الخلفية العملاقة ومصابحه البارزة، فنجري لنتسلق الجرار ونلعب عليه، وأطلقنا عليه عم حسن الساكت لأنه كان يزورنا في المواسم والأعياد ويجلس صامتاً لا ينبس ببنت شفة ثم يقوم مودعاً جدي

وأبي ليمر على باقي بيوت العائلة مصطحباً معه إحدى بناته ليكرر نفس الأمر ثم يركب جراره ذي الصوت المرتفع ويرحل.

كانت الأمور تسير جيداً في البداية وذلك لأننا-أنا وعمر- كنا قد تعلمنا الحروف وبعض الكلمات الصغيرة بالإضافة لحفظ مجموعة من قصار السور وذلك في كتاب الشيخ عباس، لذلك عندما بدأت الأبله "فتوح"- المدرسة المسنولة عن فصلنا- التدريس لنا كان الأمر سهلاً. مع الوقت بدأ الأمر يزداد صعوبة بالنسبة إليّ- خاصة في الحساب- وعلى نهاية العام صرت أحتاج في الكثير من الأحيان لمساعدة عمر.

في الصف الثاني اقترحت على عمر أن نجلس في مكان آخر بخلاف الصف الأمامي حتى لا نكون في مهب الأسئلة وتحت رقابة المدرسين ولكنه رفض،

ظللت بجانبه لفترة ثم مالبت أن عدت للخلف وجلست بجوار رزق حامد- أحمد أبي حامد أو "موة" سابقًا- واكتشفت هناك أنك تستطيع فعل الكثير من الأشياء لا تستطيع فعلها في الصفوف الأمامية؛ التحدث مع رزق، الضحك، الأكل أثناء الحصة، إلقاء قطع الطباشير على الآخرين.

ورغم عدم جلوسي بجوار عمر إلا أننا ظللنا نذهب ونعود سويًا إلى المدرسة طوال دراستنا.

طبعًا كان اكتشاف أن عمر هو عمي مثيرًا للمزاح والسخرية سواء من التلاميذ أو المدرسين حتى اعتدنا أن أي مدرس جديد يدخل الفصل لابد أن تكون أول حصة عن عبد الحميد وعمه عمر، وهل يجعلك تكتب له واجباته؟، هل هو ولي أمرك؟، إذا كان هذا هو عمك ففي أي فصل يكون أبوك؟.

ومما زاد من سخريتهم أنني كنت أطول وأقوى بنية من عمر، في نهاية الأمر لم يعد الأمر مسليًا وبعد قليل ينساه الجميع لحين بداية سنة دراسية جديدة أو دخول مدرس جديد إلى فصلنا. مع الوقت ذهبت سعادي بالمدرسة

والزّي المدرسي والحقيبة القماشية خاصة مع
ظهور تأخري الدراسي مقارنة بعمر وتعرضي الدائم
للتوبيخ والضرب وأحياناً المد على القدمين.

فصرت أتكاسل في الذهاب إلى المدرسة وبدأت
سلسلة من التذمر والشكاوي؛ أريد حقيبة مثل حقيبة
ماجد، لا أريد أن أرثدي هذا الزي، هذا الحذاء
البلاستيكي غير مريح أريد حذاءً جلدياً، الطريق إلى
المدرسة بعيد جداً وأنا أصحو مبكراً جداً وأخرج في
البرد ومع ذلك أصل متأخراً.

وبعد أن كثرت طلباتي واعتراضي أيقظني أبي
مبكراً وجعلني أرثدي ملابس وحقيبتني ووقفنا أمام دار
الرفاعي ولما سألتته لماذا نحن واقفان هنا وإلى أين
نحن ذاهبان، قال لي: فقط انتظر.

كان الجو بارداً والشبورة تحجب الرؤيا فلا نرى
إلا سور الجنينة أمامنا وعدة أمتار من طريق العزبة
عن اليمين واليسار كأن الشبورة قد ابتلعت العالم كله
فيما عدا هذه الدائرة الصغيرة، وبدأت الطريق خالية ولا
صوت إلا صياح بعض الديكة التي فاتها موعد
الفجر. وفجأة قال أبي: انظر هناك؟

وأشار يميناً إلى الطريق التي تؤدي للحقول
وللبحر الجديد، لا شيء، دققت النظر ثانياً فبدأ لي
ظلان لشخصين يخرجان من الشبورة، أخذاً يقتربان في
بطء حتى دخلا في مجال رؤيتنا، إنهما بنتان ترتديان
زي مدرستنا وفوقه سترتان صوفيتان وتلف كل منهما
رأسها ووجهها بكوفية عملاقة. عندما اقتربتا حياهما
أبي فردتا عليه التحية وسلّمتا عليه بحرارة فقال لي:
هل تعرفهما؟

قبل أن أرد قالت إحداهما: طبعاً يا عمي سالم، أنا
وهو في فصل واحد. ثم فكت الكوفية عن وجهها، كانت
حنان بنت عمي حسن الساكت ومعها أختها الأكبر
هانم.

سألها أبي: متى خرجتما من العزبة؟

فقالت حنان وقد تكثفت الشبورة على هيئة

قطرات صغيرة على وجهها وشعرها ورموشها

وازرقت شفتاها من البرد: خرجنا من بعد الفجر
لأن الصندل لا يعمل في الصباح الباكر فيجب علينا أن
نمشي حتى كوبري عزبة " واحد " ثم نعود مرة

أخرى. فقال أبي وهو ينظر إلى شذراً: وهل تصلان في موعد المدرسة؟

فقالت: في معظم الأيام، ولكن في أيام المطر نتأخر دائماً وعندما أعطانا أبي حماراً سخر منا الأولاد وأخذوا يضربون الحمار ويضايقونه. لكن الحمد لله عند العودة من المدرسة نمشي حتى البحر الجديد ونعبر عن طريق الصندل ولا نضطر للمشي حتى كوبري عزبة واحد.

نظر أبي لي شذراً ثم أعطى كل واحدة منهما

بريزة (عشرة قروش) وقال لهما أن يوصلا السلام إلى عمي حسن، ورغم الفرحة البادية على وجهيهما إلا أنهما مانعتا بشدة لكن أبي أصر وأعطاهما النقود التي كانت آنذاك تشتري الكثير فأعادا لف الكوفية حول وجهيهما وأكملتا طريقهما.

من ضمن ميزات ذهابي للمدرسة هو تعرفي على أماكن لم يكن مسموحاً لي بالذهاب إليها وحدي، فالطريق إلى المدرسة يمر بمقام الشيخ مكاي حيث تقام ليلة الشيخ مكاي في موعد سنوي، بالإضافة إلى

العديد من المحلات ومكتبة أبو وهيب حيث نشترى الجلابد الأزرق غير الشفاف لكراسة الأملاء حسب التعليمات الدقيقة والغير قابلة للنقاش للأبلة فتوح ومقلة عبد الجيد حيث نشترى اللب والفول السوداني في طريق العودة والكشك الخاص بعم الشبراوي الذي نشترى منه النعناع والبسكويت والحلوى والذي كان يأخذ النقود أولاً ثم يسألنا بعدها عما نريد فإذا كان طلبنا غير موجود أقنعنا أن نشترى شيئاً آخر (لا، الحلوى خلصت. ولكن الحلوى تفسد الأسنان خذ بسكوبت أفضل- وأنت ماذا تريد لبان، لا يوجد، ثم إن اللبان للبنات فقط خذ نعناع أفضل). المهم عنده أن يقبض على مصروفي اليومي وكان خمسة قروش- شلن- ولا يهم ماذا كنت أريد أن أشترى.

خلف المدرسة كان الطريق الزراعي الذي يقود إلى المركز ومنه إلى المنصورة ثم إلى القاهرة.

أهم شيء لاحظته في طريقي إلى المدرسة كان منزل العمدة والخفير الجالس أمامه حاملاً بندقيته العتيقة، كنت رأيته من قبل عندما ذهبت مع أبي في العيد لزيارة أمه- جدتي حميدة- والتي كنا نزورها في المناسبات فقط.

بعد أسبوعين من بداية الدراسة لم يعد عمي عبد الله يصطحبنا معه في رحلة الذهاب والعودة، فكنا أنا وعمر وماجد نذهب ونعود سويًا وأحيانًا يرافقنا أحمد أبو حامد مما أتاح لنا فرصة الاستمتاع خاصة أثناء رحلة العودة، نشترى اللب من عبد الجيد- إذا ما توفر مع أحدنا نقود- نتسابق، نلعب حول محطة الديزل العتيقة ذات السلم الخشبي الطويل، أو نتابع عربات الديزل العتيقة-إن صادف مرورها وقت خروجنا- وهي تصدر صريرًا أثناء سيرها البطيء على القضبان حتى لتكاد تلحق بها إن هممت الخطأ، نتسابق فوق العوارض الخشبية للقضبان أو نتراهن من يمشي مسافة أطول فوق القضبان دون أن يلمس الأرض. نجرب طرق جديدة للعودة ونخوض تجربة التوهان في طرقات القرية، أو نطارد كلبًا ضالاً أو قطّة. في أحد الأيام قررت أن أجد بيت جدتي حميدة ووافق عمر أن يصاحبني بعد إلحاحي، عندما وصلنا أمام بيت العمدة أخذت أجرب الشوارع المحيطة به حتى وجدته.

بيت عتيق صغير له باب خشبي أسود اللون قد حال لونه وله مقبض على شكل يد تستخدم لطرق الباب. قال عمر: هل أنت متأكد أنه هو؟

فقلت له أنني متأكد تمامًا.

ولكن رغم تأكدي له رفض أن يأتي معي وقال
إنه سيرا قبني من بعيد فبالنسبة إليه هي طليقة أبيه.

طرقت الباب بالمطرقة المعدنية التي لولاها ما
كنت عرفت البيت ففتحت لي الباب عمتي زينب أم
جمعة.

وفي وسط ترحيبها وأحضانها لمحت عمر يشير
لي من بعيد أنه سينصرف. اندهشت عمتي زينب أنني
أتيت وحدي وتساءلت عن كيفية معرفتي الطريق.

فأوضحت لها أن مدرستي قريبة من هنا وأني
تذكرت الطريق من زيارتي السابقة مع أبي. نادى
عمتي زينب على أمها جدتي حميدة التي رحبت بي جدًا
وأخذت تقبلني وتحتضني بقوة وكانت تنادينني دائماً
بـ"الحبيب ابن الحبيب"، وأخذت تسألني عن أخبار
أبي. أعدت لنا عمتي زينب الشاي بالقرنفل الذي هو
المشروب المميز لمنزل جدتي حميدة وأحضرت طبقاً
من البسكويت. كانت عمتي زينب سعيدة جدًا بزيارتي.

كان المنزل صغيرًا وقديمًا جدًا، ورغم أن الأرض لا يكسوها البلاط إلا أن المنزل كان نظيفًا جدًا، جلسنا في غرفة الضيوف ذات الأرض الخشبية والأرائك الثلاث، أخذت أتأمل في الصور المعلقة على الحائط. عندما سألت أبي عندما كنا هنا في أحد الأعياد عن الأشخاص الذين في الصور غمزني وقال لي سأقول لك فيما بعد. وعندما خرجنا قال لي أن الرجل ذا الشارب القصير في الصورة الكبيرة هو عمي جمعة زوج جدتي حميدة الثاني ووالد عمتي زينب وأن الرجل الآخر في الصورة الصغيرة المرسومة بالألوان هو ابن جدتي حميدة الأخ الأصغر لعمتي زينب، ولما سألته لماذا لم أرهما من قبل، قال لأنهما متوفيان ولذلك لم أرد أن أتحدث عنهما أمام جدتك وعمتك. ولما سألته عن زوج عمتي زينب ولماذا ليس له صورة كذلك وأنا أعلم أنه توفي هو الآخر، فقال أن صورته معلقة في غرفة محمد وعبد الله ابني عمتي زينب.

أخذت أتأمل الصور وأنا أرتشف الشاي المسكر ذا الرائحة الجميلة، باقى الصور لمحمد وعبد الله، محمد سافر إلى العراق بينما عبد الله يدرس في الجامعة، بينما تعيش عمتي زينب مع جدتي حميدة ومعهما شخص ثالث.

"عبده ألن تأتي لتسلم على ستك (كُل)؟"

قالتها عمتي زينب وهي تقودني من يدي للغرفة المظلمة، نقترّب من الفراش المرتفع ذي القوائم النحاسية العالية فتقول "ستي، انظري من جاء يسلم عليك، إنه عبده ابن أخي سالم، لقد دخل المدرسة "ستي" كُل" هي أم جدتي حميدة، وهي امرأة طاعنة في السن، لم أرها إلا نائمة في ذلك الفراش ونظرًا لضعف نظرها وسمعتها كانت عمتي زينب تقوم بدور المرشد معها؛ "هذا أخي سالم جاء ليسلم عليك"، "هذا عبده بن سالم أخي" وهكذا.

اقتربت من الفراش وقبلت يد ستي النحيلة المليئة بالعروق. فقالت بصوت ضعيف "ما شاء الله، ما شاء الله، كبرت ودخلت المدرسة، بكرة تأخذ الشهادة وتسافر"

فقلت عمتي زينب: "هو في الصف الأول يا ستي، لا زال أمامه وقت طويل" فقالت ستي كل بصوتها المتحشرج: "أعرف، أعرف، ولكني أخاف عليه، لو كانت أمه أو جدته نعمت موجودتين ما قلقت عليه، ولكني سأظل قلقة عليه طالما بقى بجوار جده لعنة الله عليه".

وقعت الكلمة على كالصفعة، لم أر أحداً من قبل
يسب جدي وحمدت الله أن عمر لم يأت معي. دفعتني
عمتي زينب للخارج في سرعة وهي تقول " حسناً،
سنتركك حتى ترتاحي قليلاً يا ستي".

وفي غرفة الضيوف قالت لي عمتي زينب " لا
تحزن يا عبده، هي سيدة كبيرة ومريضة، وكان بينها
وبين جدك خلافات قديمة جداً ولكنها وهي جالسة
وحدها غالباً ما تتذكر أشياء قديمة جداً وتظل تحدثنا
عنها" لم تعكر كلمات ستي " كل " صفو زيارتي، ولما
عدت للمنزل وأخبرت أبي بأمر زيارتي لم يعترض
ولكنه نصحني ألا أصطحب عمر معي.

تكررت بعدها زياراتي لبيت جدتي حميدة حتى
بعدما أنهيت المرحلة الابتدائية وذهبت للمدرسة
الإعدادية التي تقع بعد الطريق الزراعي ولا أمر في
طريق ذهابي إليها قريباً من بيت جدتي ولكني ظللت
أزورها بانتظام.

لم أكن أحب الدخول على ستي " كل " ولكن كانت
جدتي حميدة تصر أن أدخل وأسلم عليها في كل مرة
بصحبة عمتي زينب رغم أن صحتها كانت تتدهور
باستمرار حتى صارت لا ترد نهائياً، وفي آخر مرة
رأيتها قبلت يدها الباردة بينما تشرح لها عمتي زينب

من أنا وأنتي جنت لأسلم عليها ولكنها لم ترد كالمرّة
التي سبقتها فقالت عمتي زينب أنها ربما تكون نائمة
خطر في بالي أنها ربما تكون قد ماتت وعمتي لا تدري
فيدها باردة كالثلج ثم إنها قد بلغت من العمر عتياً،
ولكن لما خرجت من الغرفة نادى على ستي "كُل"
بصوت متحشرج لكن قوي "قل لنعمت أنها ارتكبت
نفس الخطيئة مرتين، مرة عندما تركت زوجها يمشي
في ذاك الطريق ومرة لما سمحت له بجرّ ابنتهما إلى
نفس الطريق، قل لها "كُل" تقول لك إن لم تستطعي
أن ترسلي سالم لها لتربيته بعيداً عن أبيه وجده فعليك
أنت أن تحميه حتى لا ينجرّف مع أبيه وجده إلى طريق
الشیطان"

الجنينة

"يقال دائماً أن البيئة لها تأثير كبير في البناء النفسي للإنسان، ودائماً ما يضرب المثل بسكان المدن الساحلية وعلاقتهم بالبحر ومدى تأثرهم بوجوده كخلفية دائمة لأفكارهم وليس فقط كمعلم جغرافي في مدينتهم بل ككيان موجود في نفوسهم فتتشرب نفوسهم من صفاته وتقلباته وغموضه.

ينطبق الأمر كذلك على سكان البلاد الصحراوية الذين تسكن الصحراء في نفوسهم وتطغى رمالها على مشاعرهم وتعبيراتهم، كذلك المناطق الجبلية والجليلية وخلافه.

أما بالنسبة لعزبة الجنينة فإن الجنينة تمثل حجر أساس في العقل الباطن لأهل العزبة، فالشخص في العزبة يراها أمامه عندما يخرج من باب بيته، عند

ذهابه وعودته للغيط أو لدوار مواشيه، أو عندما يفتح نافذة بيته أو يصعد على سطح بيته، بل وتتوغل رائحة زهور البرتقال والليمون إلى داخل بيته، ويسمع صوت حفيف أشجارها ليلاً وهو نائم، أي أن الجنية تحيط به من كل جانب. ولكن الجنية لا تمثل لأهل العزبة فقط منظرًا جماليًا وخلفية خضراء لحياتهم، بل للأمر في وجدانهم أبعاد أخرى، فإيمانهم أنها كانت أرض أجدادهم وانتزعت منهم عنوة يتداخل مع إحساسهم بأنها جنة محرمة تبعد عنهم خطوات قليلة ولكنهم لا يستطيعون دخولها أو الأكل من ثمارها المحرمة، هذا بالإضافة إلى رمزية سور الغاب وصف الأشجار المتجاورة كالحراس هذا بالإضافة إلى العديد من الحكايات الخيالية عن الذناب والعفاريت والأشباح التي تجوب الجنية ليلاً كل هذا جعل الجنية تمثل حجر أساس في البناء النفسي لأهل العزبة منذ طفولتهم وأثر في حياتهم وأفكارهم بل وأحلامهم أيضًا.

فتجد أحدهم يحلم بأنه دخل الجنية ووجد بها كنزًا أو ربما عروس أحلامه، أو يحلم بأنه يجري في الجنية ويطارده ذنب من الذناب التي يسمع أنها تحرس الجنية أو أحد العفاريت وربما شبح حسن أبو زينة الذي يجوب الجنية ليلاً ليخنق من يقابله بحبل

من الليف إلى نهاية تلك الأساطير التي نسمعها في
العزبة منذ الصغر."

المهندس إبراهيم سالم

كان بيت عبير هو آخر بيوت العزبة لتبدأ بعده
الحقول الخضراء إلى مد البصر.

كان بيتًا صغيرًا كبقية بيوت العزبة، له شرفة
أمامية طويلة-نسميها شكمة- تطل على الحقول، بجوار
الشرفة شجرة مشمش بأوراقها ذات الحواف
المتعرجة.

ورغم أنني لم أرها تثمر قط إلا أنها كانت دائمًا
بالنسبة إلى شجرة مميزة جدًا، فلقد رأيت الكثير من
أشجار الفواكه في العزبة أو في الغيط أو حتى في
الجنينة إلا أنني لم أر شجرة مشمش إلا بجوار بيت
عبير.

كان أبوها عم "الحسيني" تربطه بنا صلة قرابة
من بعيد، لم أره قط إلا في جلباته الرمادي النظيف
يخرج من القرية صباحًا ليعود بعد الظهر، لا يعمل في

الفلاحة كمعظم أهل العزبة، ولما سألت جدي عن عمله قال أنه كان صولاً في الجيش وتقاعد.

أما زوجته فلم تكن من أهل العزبة، بل كانت مصرية- أي قاهرة- وكانت أخت أحد زملاء عم الحسيني في الجيش وهي من القلة النادرة من النساء اللاتي ليس لهن أصول من العزبة، وكانت سيدة طيبة، نظيفة، قليلة الكلام، لا تحضر جلسات النشرة الأخبائية اليومية على مصطبة بيت التابعي، وكانت كلما رأني ربتت على وقالت أن أمي كانت صديقتها. كنت دائماً ما أرى أن العزبة لم تلق بها أو ربما هي التي لم تلق بالعزبة.

أما عبير نفسها فكنت أرى أن الدنيا كلها لا تليق بها، كأنها جاءت من عالم آخر. كانت تشبه أمها في كثير من الأشياء، لهجتها الرقيقة التي اكتسبتها من أمها ومن الفترات الطويلة التي كانوا يقضونها في مصر-القاهرة- عند جدّها، والتي تختلف تماماً عن لهجتنا المحلية في العزبة والتي تكسر أواخر الكلمات بشدة وتستخدم حرف الشين المكسور كأداة نفي بطريقة مبالغ فيها، والتي كانت في كثير من الأحيان تجلب لنا السخرية من زملائنا في المدرسة.

ورغم أن أخويها الصغيرين كانت لهجتهما مثلنا
ويبدوان مثل بقية أطفال العزبة اللهم إلا البعض من
نظافة الثياب إلا أن عبير كانت تختلف، لهجتها، دائماً
ملابسها نظيفة، شعرها الناعم دائماً مربوط على شكل
ذيل حصان أو خصلتين على جانبي رأسها وليس على
شكل صغيرة كباقي فتيات العزبة، لون بشرتها،
لاتمشي حافية قط وهو سلوك غير معتاد في العزبة،
وكانت نادراً ما تلعب خارج البيت وغالباً ما تظهر أمها
لتراقبها كل فترة ثم تنادي عليها لتعود للبيت.

كانت البداية في شم النسيم، وأنداك كانت تلك
المناسبات حدثاً جلاً يحتفل به الجميع كباراً وصغاراً،
الجميع يذهب لقضاء اليوم إما عند البحر الجديد أو عند
التل، والتل يقع بعد البحر الجديد وهو تل صغير من
تربة غير صالحة للزراعة مليئة بشظايا فخارية صغيرة
كان هناك من حطم ألف زير في هذا المكان ويقول أهل
القرية أنه أثر فرعوني وأن الجحور التي تملأ التل
يعيش بها ذئاب لحمايته، ويتمادى البعض ويقول أن
مكان عزبتنا كانت مدينة فرعونية كبيرة وقصر الملك
كان مكان التل. المهم أنني كنت اتفقت مع عمر وأحمد
أبي حامد على الذهاب إلى التل-رفضت عمتي زينب
الكبيرة أن تسمح لـماجد بالذهاب معنا- وأعدنا العدة
لذلك رغم أن بقية العائلة ستذهب لقضاء اليوم على

البحر الجديد، الخطوة الأهم كانت العثور على "جركن" قديم عند أحمد أبي حامد قمنا بشقه نصفين لاستخدامه في الترحلق من فوق التل وهي متعة لو تعلمون عظيمة.

استيقظنا مبكرًا أفطرنا مع جدي، وعندما نادى علينا أحمد أبو حامد خرجت أنا وعمر ومعنا طعامنا ملفوف في منديل كبير لنجد أحمد ومعاه نصفي "الجركن" اللذين ستحسدنا عليهما العزبة كلها. بدأنا السير في الطريق نحو البحر الجديد وقابلنا في الطريق الضيق الكثير من أهل العزبة في طريقهم إلى البحر الجديد، وعند منعطف الطريق رأيت عبير وأمها وأخويها الصغيرين، كانت عبير ترتدي قبعة دائرية وردية اللون مزخرفة بزهور ملونة صغيرة تحيط بها نظرات الغيرة والحسد من فتيات العزبة.

وفجأة طارت القبعة مع هبة من نسيمات الخماسين فجرت إليها إحدى فتيات العزبة فالتقطتها ولبستها وأخذت تجري وهي تضحك فلما جرت ورائها عبير قامت الفتاة بإلقاء القبعة عبر التربة بعيدًا وسط الحقول التي على يمين الطريق وقالت وهي تضحك "

هيا اقفزي واعبري الترة وأحضريها إن استطعت
أيتها الخواجاية".

وقفت عبير تنظر إلى الترة في خوف، ولكن
أمها أشارت إلى ابنيها ثم إلى الجسر البعيد حتى يعبرا
ويحضرا القبة. هنا استخدمت مهارتي في قفز الترة
وقفزت في سرعة وسرت وسط أعواد القمح الخضراء
حتى أحضرت القبة وقفزت عائداً، نفضت التراب عن
القبة الجميلة ثم مددت يدي بها لعبير، ابتسمت عبير
في سعادة وامتنان وقالت " شكرًا يا حميد"، وكانت
البداية. عندما وصلنا إلى البحر الجديد تعللت لعمر
وأحمد بأنني سأظل هنا ولن أذهب معهم إلى التل لكي لا
يشعر ماجد بالحزن حيث سمحت له أمه بالذهاب للبحر
الجديد فقط. لوح أحمد أبو حامد بالجركن قائلاً: لا تكن
غيباً، ستضيع فرصة عمرك، ثم إن ماجد ابن عمك لا
يبالي بالجلوس وحده ستجده جالساً بجوار أي شجرة
هنا يقرأ في قصة، هذا إن جاء أصلاً. لكنني صممت
على عدم استكمال الرحلة فانصرفا غير مصدقين لما
يحدث. جلست في مكان قريب من المكان الذي جلست
فيه عبير وعائلتها، وانتظرت حتى جاء ماجد مع وفد
العائلة في مقدمتهم عمي عبدالله وأبي وعمي فتحي
وعمي حافظ وسهام وعمتي زينب عبد الحميد.

مالبتت أن ظهرت لفافات الخس والملائة والفول
الأخضر، ثم ظهر الفسيخ برائحته الشنيعة.

بدأت الألعاب بداية من شد الحبل والثعلب فات
وانتهاء بسباقات الجري. اشتركت عبير معنا في بعض
الألعاب ولذلك كان يومًا رائعًا.

كان كل الخوف أن تمطر السماء وتفسد علينا
اليوم كالعام السابق ولكن ذلك لم يحدث.

انضم إلينا عمر وأحمد بعد عودتهما من التل
وأخذا يحكيان عن اليوم الأسطوري الذي قضياه في
التل ولكني لم أندم أبداً على تضحيتي.

"جدي، لماذا لا يوجد مسجد في عزبتنا؟ بينما
عزبة فرنسا فيها مسجد، يصلون فيه الفروض
ويأتيهم خطيب يصلي بهم يوم الجمعة" قال جدي عبد
الحמיד: لأن عزبتنا صغيرة، ثم أن هناك مصلى بجوار
الجرن الكبير وآخر بجوار بيت "الحاجعلي". ولكن
عزبة فرنسا أصغر من عزبتنا، ولم يتعلم من أهلها إلا
القليل، فلماذا يكون لديهم مسجد ولا يكون عندنا مسجد.

*حسنًا يا شيخ عبده سأتكلم مع رجال العزبة
وربما استطعنا أن نحول المصلَّى بجوار الجرن إلى
مسجد.

صوت طرقات على الباب الخارجي لدار السباعي
في الصباح الباكر. ثم صوت جدتي أنيسة: من الطارق؟
- هل خالي سالم موجود؟

فتحت باب غرفتي ونظرت من سور السطح

فرأيت عبد الله ابن عمتي زينب أم جمعة فنزلت
مسرعًا لأفتح له الباب، لم أر عبد الله من قبل في
العزبة. قابلني أبي على الدرج متسائلًا فقلت له: إنه عبد
الله ابن عمتي زينب أم جمعة.

فقطب أبي حاجبيه وقال: اللهم اجعله خيرًا.

نزلت مع أبي الذي فتح الباب لنجد عبد الله الذي
قال فورًا بصوت تخنقه العبرات: لقد ماتت ستي "كل".

لأول مرة أرى عزاءً لا يتواجد فيه جدي عبد الحميد.

لقد أعطى جدي لأبي رزمة كبيرة من المال وأخذ يوصيه ماذا عليه أن يفعل بالتفصيل (لا تنس تصريح الدفن وشهادة الوفاة، لا تدفع أكثر من ذلك لأصحاب الفراشة وتأكد من نوع الكراسي التي سيحضرونها لابد أن تتفق معهم بوضوح على عدد الكراسي المنجدة والخشبية، تاكد أن أمك وأختك لا تحتاجان إلى شيء) ثم التفت إلى (عبد الحميد، لابد أن تقف بجوار أبيك في عزاء ستك لقد صرت رجلاً).

ورغم وجود العديد من رجال العزبة بالإضافة إلى عمي حسن الساكت إلا أن جدي عبد الحميد لم يحضر.

(عمتي زينب، هل معك ساعة؟) ردت عمتي زينب أم جمعة في دهشة: ساعة، لماذا تسأل؟

فقلت: عندما احتضنتني سمعت صوت كصوت ساعة جدي عبد الحميد.

ضحكت وقالت: وهل تظن أن بداخلي ساعة أم
أنني ابتلعت ساعة جدك.

فقلت بدهشة: ها هو الصوت لازال موجوداً.

فقلت: هذا صوت قلبي، لأنهم ركبوا لي جزءاً
معدنياً في قلبي عندما كنت مريضة بعد ولادة عبد الله.

فقلت بدهشة: وهل يستطيع الإنسان أن يعيش
بقلب معدني؟

فقلت: إنه جزء معدني صغير ركبوه في القلب
كما قال لي الأطباء ولكن لا بد أن آخذ دواءً باستمرار
لكي أحافظ عليه حتى لا يتجمد الدم فيه.

ظللنا أنا وعمر نذهب سوياً إلى المدرسة يومياً.

نعبر الطريق الزراعي لنصل إلى المدرسة
الإعدادية حينها ننفصل، يذهب عمر ليقف مع أصدقائه
وأذهب أنا عند البوابة.

في المرحلة الإعدادية تم فصل البنات عن
الأولاد، كانت مدرسة البنات تعمل في الفترة الصباحية،

بينما مدرسة الأولاد تعمل في نفس المبنى ولكن في الفترة المسائية. كنت أقف أمام أمام البوابة بانتظار الجرس في شوق، ليس شوقاً لدخول المدرسة بالطبع ولكن لخروج مدرسة البنات.

أقف في مكان مرتفع، أتابع أفواج الطالبات الخارجات من البوابة بزيهم الكحلي والحجاب الأبيض، أراقب الوجوه بتركيز حتى أراها، هاهي ذي، تلبس مثل باقي الفتيات ولكنها لا تبدو مثلهم أبداً.

أحياناً تلتقي عيوننا فتشبح بوجهها بسرعة.

أراقبها حتى تغيب عن نظري، حينها ينتهي اليوم الدراسي بالنسبة إليّ، فيما عدا رؤية عبير فكل ما يحدث هنا مجرد هراء.

تسللت في خفة ووضعت الوردة وسط أغصان شجرة المشمش ثم ابتعدت.

مشيت في الطريق نحو البحر الجديد وعندما انعطف الطريق توقفت وجلست على الجسر.

كنت في عصر أحد الأيام أحضرت زهرة من تلك
الأزهار البديعة التي تنبت بجوار سور الجنينة عند
الفسقية وجاءت في بالي فكرة أن أضعها وسط أغصان
شجرة المشمش المجاورة لبית عبير.

وجلست في نفس المكان الذي أجلس فيه الآن
أراقب شرفة البيت آملاً أن أراها.

لم تظهر عبير يومها، ولكن الوردة اختفت في
اليوم التالي مما شجعني على تكرار الأمر في نفس
الموعد في الأسبوع التالي حتى صارت عادة أسبوعية،
مرة زهرة من حديقة عمتي زينب الكبيرة ومرة من
سور الجنينة المجاور للسراية ومرة من الأزهار التي
بجوار الفسقية.

طبعاً لا بد أن يتم الأمر في سرية تامة، أولاً نحن
عزبة صغيرة يعرف بعضنا البعض ولو عرف أحد من
أهلها فلا مزاح في هذه الأمور، ثانياً لو انكشف أمري
وأنا أحمل وردة فسأتعرض لسخرية لا حدود لها في
مجتمع الشباب الذكوري الذي لا يرحم ويعتبر الزهور
جريمة تشبّه بالبنات أو بأبطال الأفلام الرقيقة.

لم أر عبير تأخذ الورود قط ولكنها دائماً ما كانت
تختفي في اليوم التالي. ولكني داومت على الانتظار هنا
حتى الغروب.

المنظر من هنا في منتهى الروعة، فمن مجلسي
هنا أرى الحقول على امتداد البصر وأرى بيت عبير
واضحاً ومن خلفه باقي بيوت القرية وأرى غرفتي
فوق دار الرفاعي، تنأى إلى سمعي صوت غريب من
خلفي، كأن أحدهم يدفع أغصاناً متشابكة، فجأة خرج
كلب من سور الجنيّة وقفز التربة وأخذ يجري بسرعة
بعيداً وهو يصدر أصواتاً غريبة.

انتفضت من خروج الكلب المفاجيء ثم حملت
حجرًا لأقذفه به جزاء فعلته لكنه كان انطلق بعيداً
بالفعل.

قفزت التربة ومشيت بجوار سور الجنيّة
وأخذت أبحث عن مكان خروج ذلك الكلب. خلف إحدى
أشجار الجازورين الملاصقة للسور رأيت فتحة صغيرة
في سور الغاب تختفي خلف جذع الشجرة.

تأكدت أن أحداً لا يراني ثم دفعت أعواد الغاب
بقوة لأوسع الفتحة ثم دفعت جسدي عبرها.

وقفت نافضاً التراب عن ملابسي غير مصدق لما
حدث، أنا فعلاً داخل الجنيّة، أخذت أتجول بين أشجار
البرتقال والليمون في انبهار، هي حديقة عادية جداً
ولكن الهالة التي حولها والصور والحكايات هي من
جعلني مبهوراً بما حدث. أخذت أتجول وسط الأشجار
وعندما اقتربت الشمس من الغروب خفت ألا أجد
الفتحة في الظلام فعدت باحثاً عنها فوجدتها بعد لأي.
فخرجت بعد أن تأكدت أن أحداً لا يراني ثم عدت إلى
العزبة.

وعندما نظرت إلى شجرة المشمش لم تكن
زهرتي هناك.

أخيراً اشترى جدي عبد الحميد تلفازاً، صحيح
هو صغير الحجم ويعرض الصور بالأبيض والأسود
فقط ولكنه كان إنجازاً. كان لعائلتنا دائماً قصب السبق
في مواكبة العصر، صحيح أن هذه المواكبة تأتي
متأخرة عقوداً عن العالم الخارجي ولكنها على الأقل
تسبق باقي بيوت العزبة.

فأنا أذكر حينما كانت المياه النقية موجودة في
بيت جدي سالم فقط، وكان هناك صنبوراً في الحوش

الخلفي يملأ منه أهل العزبة آنيتهم، وأذكر جدتي أنيسة وهي تحمل إناء الماء على رأسها كل مساء وهي عائدة من بيت جدي سالم إلى دار الرفاعي، هذا قبل أن تصل المياه إلى باقي بيوت العزبة، ينطبق الأمر على التليفون والكهرباء، فلقد رأيت عمتي زينب عبد الحميد وهي تذاكر على إضاءة مصباح الكيوسين.

أما التلفاز فقد ظهر أولاً في بيت عمتي زينب الكبيرة، وكان أبي يذهب مع عمي فتحي وعمي حافظ لمشاهدة مباريات كرة القدم في بيت عمتي زينب الكبيرة، كنت أسمعهم نهارًا يتحدثون عن المباريات ويتشاجرون في كثير من الأحيان حول الأهلي والزمالك وهو ما كنت أرى صورة مصغرة منه في شجار علاء وحسن لنفس الأسباب، وأثناء كأس العالم كنت منبهراً بما يحكون عنه وكنت أتمنى أن أحضر معهم المباريات ولكنها كانت تذاع في وقت متأخر جداً من الليل، فكنت أكتفي بسماع حكاياتهم بشغف حتى سمعتهم يتكلمون عن فريق فرنسا الذي هزم البرازيل، فأخذت اضحك معتقداً أنها مزحة ولكن أحداً غيري لم يضحك وسألني أبي عن سبب ضحكي فقلت:

" إنه يقول فريق فرنسا، ليس معقولاً أبداً أن
تشارك فرنسا في كأس العالم"

هنا انتبهوا لما أتحدث عنه انفجروا ضاحكين
بينما أنظر إليهم فاغراً فمي في دهشة حتى قال لي
عمي حافظ" يا عبده هذه فرنسا أخرى، هذه دولة
كبيرة وشهيرة وفريقها هو بطل أوروبا" فقلت في
حنق" وكيف لي أن أعرف، وطالما هي دولة كبيرة
وفريق كبير ألم يجدوا إلا اسم هذه العزبة الصغيرة
ليتسموا به"كأس العالم التالي شاهدت مباريات مصر
معه في بيت عمتي زينب الكبيرة.

البطولة التالية والأخيرة بالنسبة لي شاهدت
مبارياتها مع علاء-رحمه الله- في بيته حيث كان علاء
يضع التلفاز الصغير في شرفة بيتهم لنشاهد المباراة
سويًا، وكان علاء يشرح ويحلل لنا المباريات وطريقة
لعب المباريات وكيف سجل "باجيو" ذاك الهدف وكيف
راوغ "روماريو" اللاعبين.

توفي علاء بعد البطولة بعدة أيام وانتهت كرة
القدم بالنسبة إليّ.

ظلام دامس بالكاد أرى ظلال أشجار الجنية.
يقول أبي أنني منذ كنت طفلاً صغيراً لم أخف من الظلام
قط. لم أفهم أبداً لماذا يخاف الناس من الظلام. ربما
يفتقدون الإحساس بالأمان الذي يوفره لهم النور. ربما
يصور لهم خيالهم أن هناك وحوشاً أو عفاريت تحيط
بهم في الظلام، حسناً ألا تستطيع تلك الأشياء المخيفة
أن تحيط بنا في وضوح النهار، وليس من الأفضل أن
أحاطت بنا ألا نراها طالما لا توجد فرصة للفكك منها.

لم أشعر بالخوف في الظلام إلا ذلك اليوم في
غرفة المخزن ولم يكن ذلك بسبب الظلام.

كنت أمشي بثقة داخل الجنية بين الأشجار
وفجأة لمحت شيئاً يبرق في الظلام، عيان صفراوان،
إنهما ذات العينين. التفت للجانب الآخر وأخذت أجري
نحو السور، أحقاً هذا هو الاتجاه الصحيح؟ لست
متأكداً.

هنا تظهر أهمية النور، أخذت أبحث في السماء
المظلمة عن قمم أشجار الجازورين. هاهي، إذن أنا
كنت أجري في الاتجاه الخطأ، التفت ورائي فوجدت
العيان تقتربان، اتجهت نحو السور وأخذت أجري بكل
قواي، هاهو السور، ولكن أين هي الفتحة، أخذت أبحث

في سرعة، كل الأشجار متشابهة، هنا سمعت صوتاً
فالتفت لأرى العينين والأنياب ثم...

استيقظت

التابعي

"حسنًا طالما جنّتم إلى عمكم التابعي فأنا أعرف
ماذا تريدون أن تعرفوا؟

الجميع يسألون التابعي عندما يتعلق الأمر
بالجنينة، أليس كذلك؟ أليس هذا ماجئتم من أجله؟

تسألون عن الحكايات التي يتناقلها أهل العزبة
وتريدون أن تعرفوا إن كنت أنا قد رأيتهَا فعلاً، حسنًا
أؤكد لكم أنني رأيتهَا، رأيت الذئب السوداء التي تجوب
الجنينة ليلاً، ورأيت العفاريت بل ورأيت حسن أبو زينة
نفسه يسير وحول رقبتة حبل من الليف، الجميع لا
يصدقون كلامي ولكن هذا شأنهم.

سيقول أحدهم أنه رأى الذئب في التلفزيون
وأنها ليست سوداء، حسنًا ربما ما رأيتهَا أنا ليست
ذئبًا أو ربما الأناس الذين رأيتموهم في التلفزيون لم
يروا ذئب الجنينة ولا يعرفون عنها، أيًا كانت فهي

تشبه الذئاب ولونها أسود وحجمها بين الكلب
والحمار. دعوني أحكي لكم من البداية.

حكى لي جدي أنه عندما جاء إلى هذه الأرض
مع على الشرقاوي كانت أرضاً بوراً رغم أن الأراضي
المحيطة كانت مزروعة، وكانت مليئة بالصبار
والحشائش والشعابين والعقارب وتعيش فيها الثعالب
والذئاب والتفاوي.

وهذا ما يعايرنا به أبناء عزبة فرنسا، أن عزبتنا
حديثه جداً وليس لها أصل بينما يدعون هم أن عزبتهم
قديمة جداً، وأنها سميت عزبة فرنسا لأن أجدادهم كان
لهم دور في الهجوم على الجنود الفرنسيين وهم في
طريقهم للهروب من المنصورة نحو بحيرة المنزلة،
وأنهم هزموهم وحرقوا سفنهم في البحر القديم. هل
تعلمون لماذا سميت عزبتنا بعزبة الجنانية؟ لا ليس
نسبة إلى جنينة الزواينة، حكى لي جدي أن هذه
الأرض عندما جاءوها وقبل مجيء الزواينة وبالتالي
قبل وجود جنينتهم- كان الناس يطلقون عليها أرض
الجنانية، لأنهم كانوا يعتقدون أنها مليئة بالجن وأن
هذا المكان كان مدينة فرعونية قديمة وكان أهلها

يستعينون بالجن، وبعد فناء المدينة بقي الجن في المكان.

المهم أن على الشرقاوي ورجاله أخذوا ينظفون الأرض قطعة قطعة ويمهدونها ويحراثونها، وصنع جدي ساقية خشبية- كانت هذه مهنته- فبدأوا بري الأرض وزراعتها وأقاموا بيوتًا وحظائر للماشية، حتى جاء الزواينة وأقاموا سرايتهم وماكنة المياة وجنينتهم وضموا إليها نصف أراضي العزبة.

حينها كان محمد الرفاعي خفيّرًا قد عينته الحكومة حرسًا على التل باعتباره من الآثار، وكان أهل العزبة يستعينون به لإخراج الثعابين من بيوتهم وحظائرهم لأنه كان رفاعيًا أبًا عن جد. وعندما بدأت العصابات التي تسكن في بحيرة المنزلة الهجوم على جنينة وحظائر الزواينة استعان به حسن أبو زينة لحراستها.

ويقال أنه كان يستطيع التحكم في الذئاب والثعابين والثعالب، فحين جاء اللصوص ليسرقوا من جنينة الزواينة استيقظ الجميع على صوت ضرب النار ليجدوا ثلاثة من اللصوص قتلى وجوارهم بنادقهم وقد نُهشت أجسادهم بينما يقف "محمد الرفاعي" ملوحًا ببندقيته الميري التي لا تعمل.

من يومها صار "محمد الرفاعي" هو حارس
الجنينة ولم يكن أحد يجرو على سرقة ليمونة من
الجنينة أثناء وجوده. تزوج وبنى بيتاً وعاش وسطناً.

حتى قرر فجأة أن يرحل، باع منزله لصديقه
سالم أبو على وأخذ زوجته وأبنائه ورحل إلى عزبة
المئة وثمانين رغم محاولات الزواينة إقناعه بالبقاء،
ولازال أبنائه يعيشون هناك وأنا أزورهم بين الحين
والآخر، وابنه حسن الرفاعي-يسمونه هنا حسن
الساكت- لازال يزور أقاربه هنا في العزبة في
المناسبات.

بعد رحيله أقام الزواينة سور الجنينة وزرعوا
أشجار الجازورين حولها واستأجروا بعض الخفر
لحراسة الجنينة ولكنهم كانوا يتركون العمل بعد بضعة
أيام.

الجنينة في النهار آمنة تماماً ويعمل فيها الكثير
من العمال بشكل طبيعي في رعاية الأشجار والتسميد
والري والحصاد وصيانة السور، أما في الليل فلا أحد
يجرو على دخولها خاصة بعد أن مات حسن أبو زينة
بطريقة بشعة وأخذ شبحه يتجول في الجنينة كل ليلة.

ستسألون طبعًا عن الذئب وأين تذهب في
النهار، سأقول لكم، إنها تخرج عن طريق جحور تحت
ال سور وتعبّر البحر الجديد سباحةً، لقد رأيته بعيني، لم
أر أين تذهب بعد ذلك ولكني أعتقد أنها تختبئ في
الجحور التي في أسفل التل."

عمي التابعي

تفاديًا لما حدث لي في الكابوس الذي رأيته
قررت أن أجد علامة لمكان الفتحة التي في السور حتى
أستطيع العودة إليها.

الأشجار كلها متشابهة.

هناك شجرة كُسرت قمته في موسم الخماسين
الفانت لذلك تبدو أقصر من الأخريات، بعدها بخمس
شجرات توجد الفتحة خلف الشجرة السادسة، هذا يبدو
كافيًا.

تكررت زياراتي للجنيّة، وبدأت أعرف
تفاصيلها، وصلت للجزء الموازي للعربة واختبأت
وراء شجرة أراقب العربة من الجهة المعكوسة، لا

أحد سيخطر بباله أن هناك من يراقبه من داخل
الجنينة.

جاءت في بالي فكرة، وضعت زهرة عباد
الشمس- التي أخذتها من حديقة عمتي زينب الكبيرة-
وسط أغصان شجرة المشمش، ثم ابتعدت في حذر

ودخلت الجنينة ومشيت حتى صرت موازيًا لبית
عبير، وظللت أراقب في صمت، رأيت النافذة تتحرك
قليلاً في ببطء، بعدها فُتح باب الشرفة وخرجت عبير
ووقفت كأنها تنظر من الشرفة على شيء في الأرض
تلفتت يمينًا ويسارًا ثم مدت يدها وأخذت الوردة
وأخفتها في ملابسها ودخلت بسرعة.

كدت أطيّر فرحًا في ذلك اليوم وعدت أدراجي
جريًا ولم أنم يومها.

فوجئت بعبير تخرج من بيتنا، قابلتها أمام الباب
فوقفت غير مصدق، كانت تحمل بعض الكتب، سألتها
عن حالها فقالت أنها بخير وشكرتني على السؤال
وانصرفت في خجل.

دخلت مسرعاً فوجدت عمتي زينب عبد الحميد

تنظر إلى ضاحكة وقالت: مفاجأة.

فقلت لها: لماذا كانت هنا؟

فقالت: طلبت مني أمها أمس أن أساعدها في شرح بعض الدروس، أنت تعرف أنه لا يوجد مدرسون في العزبة وهي تخاف عليها من الذهاب للقرية مساءً.

فقلت: ولماذا لم تخبريني أنها قادمة؟

فقالت ضاحكة: وما شأنك أنت؟

فقلت: أرجوكِ عمتي أخبريني متى ستأتي مرة أخرى؟

فقالت: عندما أعود من المنصورة يوم الخميس القادم ولكن لا أريد أية أفعال صبيانية البنت مؤدبة ومتفوقة، وضع في حسابك أن مستواها أفضل منك كثيراً فإن كنت تحبها فعلاً لابد أن تذاكر بجدية أكثر.

في إحدى جولاتي داخل الجنية مشيت كثيراً في عمق الحينة حتى لاحظت أن المنظر المكرر للأشجار

بدأ يتغير، حتى وصلت لسور من النباتات ذات الأزهار
البديعة، لاح لي مبنى السراية من بعيد وحوله حديقة
كبيرة، خليط من روائح الورود الجميلة طغت على
رائحة أشجار البرتقال المزهرة، سور من الشجيرات
المنسقة ذات الأزهار المركبة، يبدو أن ماخلف السور
هو الجنة ذاتها.

اقتربت من السور في حذر، وردة حمراء رائعة
الجمال رأيته في متناول يدي، تأكدت أن أحدًا لا يراني
ثم قطفتها وعدت مسرعًا.

العودة لم تكن سهلة فعلاً، الجنينة تشبه متاهة
كبيرة، أخيرًا لاحت لي قمم أشجار الجازورين، الشجرة
المكسورة، ثم الفتحة.

تسللت في حذر ووضعت الوردة وسط أغصان
شجرة المشمش وانصرفت.

في اليوم التالي كانت الوردة مكانها.

كانت عمتي زينب تراجع معي الدروس نظرًا
لاقتراب الاختبارات-لا أفهم حقًا يا حميد، أنا أعرف أنك
ذكي، لماذا إذن لا تستطيع الإجابة عن هذه الأسئلة.

-الحقيقة يا عمتي أنا لا أعرف ما الفائدة من كل
هذا، ماذا ساستفيد من معرفة كيفية حل معادلة الدرجة
الثانية في مجهولين، لماذا يجب أن أعرف تاريخ وفاة
على بك الكبير، لماذا يجب أن أرسم البراميسيوم
وأحفظ بنود معاهدة ١٩٣٦ وأسباب عدم سقوط
الأمطار على ساحل الصومال؟ هل استفدت أنت من هذه
المعلومات في دراستك الجامعية، وهل يستفيد منها
الناس في حياتهم بعد التخرج؟

كفاك جدالاً يا حميد، قلت لك مائة مرة فائدة
التعليم الأساسي أن يوسع مداركك ويجعلك تعرف شيئاً
عن كل شيء، إن لم تكن مقتنعاً بذلك لازلت مضطراً
لمذاكرة هذه الأشياء لتنجح وتنتقل للمرحلة الثانوية
حتى تستطيع أن تجد لك في المستقبل وظيفة، هل هذا
كاف؟

صراحةً، لا.

حسناً عليك أن تذاكر حتى تنجح وتحصل على
شهادة فتستطيع أن تتقدم لطلب يد عبير، أم أنك تعتقد

أنها ستوافق عليك وهي طيبة مثلاً بينما أنت نجار
مسلح أو مبيض محارة؟ هل اقتنعت؟
-أجل.

"لماذا لم تأخذي الوردة؟"

سألت عبير وهي خارجة من عند عماتي زينب
عبد الحميد، توقعت أن تقول أنها لا تعرف عما أتحدث،
أو تنكر أنها أخذت وروداً من قبل، لكنها صمتت قليلاً
ثم فاجأنتني: حميد، أنا أعرف أنك تدخل الجنيينة، ولكن
لم أتوقع أن تسرق شيئاً من هناك.

ولكنها مجرد وردة.

ولكنها ليست ملكك، عدني ألا تدخل الجنيينة مرة
أخرى.

فتحت فمي لكي أرد ولكني لم أستطع أن أعدها
بذلك فقالت: على الأقل عدني ألا تأخذ منها شيئاً لا
يخصك.

-أعدك.

حسنًا هذا يكفي.

واتجهت نحو الباب الخارجي ثم التفتت إلى
وقالت: لكن عليك أن تستعيد وردتك.

ثم أشرق وجهها بابتسامة لم أرها من قبل ثم
انصرفت.

انتظرت حتى خلا الطريق ثم تسللت إلى شجرة
المشمس فكانت المفاجأة فجوار وردتي الذابلة وجدت
وردة قرمزية جميلة.

الظلام الدامس.

العينان الصفراوان مرة أخرى.

انطلقت أجري في رعب، الأشجار تتدافع

بجواني كأنها تجري في الاتجاه المعاكس،

تتشابك أغصانها بثيابي كأنها تحاول منعي من

الهرب.

أشعر بأشواكها تدمي ذراعيّ.

أبحث بعينيّ عن قمم أشجار الجازورين، ظلمات بعضها فوق بعض، لا أرى شيئاً، التفت في دعر فأجد العينين الصفراوين تقتربان، يزيدني الذعر سرعة، تتعثر خطواتي فأسقط وأقوم مسرعاً لأواصل الجري، أخيراً لاح لي الظل الأسود لأشجار الجازورين، تكاد أنفاسي تتقطع، هاهي الشجرة القصيرة، خمس شجرات، الفتحة خلف الشجرة السادسة، وصلت لسور الغاب وأخذت أتحسس في لهفة مكان الفتحة، لا شيء، هل أخطأت العد، العينان تقتربان، سمعت صوتاً فنظرت من خلال فتحات السور فرأيت أناساً في الجهة الأخرى، فصرخت طالباً الغوث.

فاقتربت ظلالهم من السور: فقلت ساعدوني لأخرج من هنا.

"لا تخف يا عبد الحميد، هو لن يستطيع أن يؤذيك"

إنها جدتي نعمت!

"لا تستمع إليه، سيحاول أن يصور لك الدنيا أنها شر خالص وسيجعلك ترى من الناس أسوأ ما فيهم، سيقودك لترى أسوأ الأسوأ حتى تعتقد أنه لآخر في هذه الدنيا فتسير معه في طريق الشر".

أتى صوت آخر من خلفها "ما شاء الله لقد كبرت يا بني وصرت رجلاً، هل تعرفني يا حميد؟ أنا أمك".

أخذت أدقق النظر في الظلام في دهشة من خلف سور الغاب دون أن أرد، أمي! جدتي! كيف عادوا؟ أم هل ذهبنا أنا إليهم؟

أكملت أمي: "سيحاول إغراءك بأنه يستطيع أن يحقق لك ما تشاء، وما أن تستمع إليه وتطيعه لن تستطيع وقتها الفكك منه، مهما قال لك لا تصدقه، هناك الكثير من الخير في الدنيا ابحث حولك وستجده، لا تدعه يعمي عينيك عنه".

فجأة شبت النار في سور الغاب مع صوت غاضب ينادي باسمي من الخلف، ابتعدت عنه بسرعة والتفت في ذعر فرأيت العينين الصفراوين يحيط بهما الظلام رغم أن السور المشتعل قد أضاء المكان، ورأيت حيواناً ضخماً أسود اللون-كما وصفه عمي التابعي- يكشف عن أنيابه.

أتاني صوت صارخ من خلف السور " لا تستمع
إليه يا شكيحة، أنا علاء، سيهددك بأنه سيؤذي أحبائك
إن لم تطعه، لا تصدقه، لقد صدقه أبي وأطاعه لكنه لم
يوف بوعده، وها أنت ترى ما فعله بي".

اختفى صوت علاء مع صوت النيران وهي تلتهم
السور وصوت زئير الذئب الأسود الذي أخذ يقترب
مني في ببطء، ثم تكرر النداء مرة أخرى من جهة
العينين الصفراوين " عبد الحميييييد، لن تستطيع
الهرب مني، أنت لي".

ثم استيقظت.

مسجد شهيد الفجر

"لا تستمع إليه، يا عبد الحميد، سيحاول أن يصور لك الدنيا أنها شر خالص وسيجعلك ترى من الناس أسوأ مافيههم، سيقودك لترى أسوأ الأسوأ حتى تعتقد أنه لاخير في هذه الدنيا فتسير معه في طريق الشر، سيدفع بك دائمًا لتشهد خطايا من هم حولك، ستجد نفسك دائمًا في مكان وزمان غير مناسبين لتشهد وقائع لم تكن لتحدث إلا لأنه دفع أطرافها إليها دفعًا ثم دفعك دفعًا لتكون شاهدًا عليها حتى يغير مافطرك الله عليه، ليطمس كل ما في قلبك من خير، حتى تختار طريقه وتمشي في ركابه فيقودك إلى التهلكة كما قاد من سبقوك"-ولماذا أنا يا جدتي؟

-هذا قدرك يا بني، لقد وقع اختياره عليك.

من هو؟

-لا يهم يا بني، لا يهم، فقط لا تستسلم له."جدتي

نعمت

يتكرر الكابوس كل ليلة.

معظم التفاصيل ثابتة، الجنيّة الظلام، العينان
الصفروان، الذئب الأسود، المطاردة، الأصوات من
خلف السور، النار، قد يختلف الحوار مع جدتي وأمي
وعلاء ولكن المعنى واحد، بعض الأحيان يظهر أناس
لا أعرفهم داخل الجنيّة ولكنهم لا يردون عليّ.

صرت أخاف من النوم ليلاً، أحاول البقاء
مستيقظاً قدر المستطاع، أصد لسطح الغرفة أراقب
بيوت العزبة النائمة في الظلام، أراقب القمر والنجوم،
أحياناً يهيا إلى أنني أرى عيين صفراوين تحدقان فيّ
من داخل الجنيّة الغارقة في الظلام.

لكن لامفر، يغلبني النوم في النهاية فاستيقظ
لاهتاً يغمرنني العرق، أشعر بقلبي يتقافز داخل صدري
بسرعة رهيبة، في هذه الليلة رأيت عمي التابعي من
خلف السور ولما ناديت عليه قال "هل صدقت ما قلته
لك، هل رأيت الذئب السوداء، لا أحد يصدق التابعي،
ولكني أنصحك ألا تخبر أحداً بما رأيت هو لا يحب أن

يتكلم أحد عنه أو عن ذنابه، التابعي تكلم كثيرًا، لذلك كان عقابي".

أجلس على فراشي محدقًا في ظلام الغرفة.

لازال قلبي يتقافز في جنون.

أسمع أذان الفجر من مسجد عزبة فرنسا، نزلت من غرفتي، أسير في الظلام، وسط صمت تام إلا من صوت وقع قدمي على الأرض وأصوات حشرات الليل ونقيق الضفادع. رغم الظلام الشديد أشعر بالراحة ربما لأنني أبتعد عن الجنيّة.

تلوح بيوت عزبة فرنسا، المسجد الصغير في مدخل العزبة، توضأت ودخلت المسجد، الجو داخل المسجد يفيض بالراحة والسكينة، بضعة رجال من عزبة فرنسا، لا أحد من عزبتنا إلا أبي. يجلس مريحًا ظهره على العمود الوحيد بمنتصف المسجد. دائمًا حاضر في صلاة الفجر، في الفروض الأخرى أحيانًا أرى جدي أو عمي عبد الله أو بعض من رجال عزبتنا، لكن في الغالب هم يصلون في المصلى المجاور لبيت الحاج علي في عزبتنا، صلينا الفجر وخرجنا، بدا أبي سعيدًا وأثنى على لحضوري للصلاة، مشينا سويًا باتجاه عزبتنا، قال لي أنه سيذهب لدوار المواشي

ليحلب اللبن كعادته فعرضت عليه أن أذهب معه
لأساعده فابتسم وقال لي أن الامتحانات قد اقتربت ومن
الأفضل أن أعود للبيت لأذاكر لأن المذاكرة في هذه
الفترة فيها بركة.

افترقنا وعدت نحو دار الرفاعي، صعدت إلى
السطح ووقفت لأراقب الشروق، لمحت شيئاً غريباً.

الشجرة القصيرة، بعدها بعدة أشجار هناك شيء
ما على الطريق.

نزلت بسرعة وذهبت لأرى ما هناك وعندما
وصلت وقفت مذهولاً. إنه عمي التابعي. يبدو أنه قد
مات.

"ولكني أنصحك ألا تخبر أحداً بما رأيت هو لا
يحب أن يتكلم أحد عنه أو عن ذنابه، التابعي تكلم
كثيراً، لذلك كان عقابي"

أثارت وفاة التابعي ضجة في العزبة، لأنه كان
سليماً معافى، ولأنه كان رجلاً طيباً محبوباً من الجميع،
وأيضاً لأن زوجته "هدى" أقامت عرضاً تأبينياً
أسطورياً، هي دائماً ماكانت تأخذ دور البطولة في
المآتم والأفراح كذلك- فمابالك إذا كان المتوفي زوجها
شخصياً.

لكن أحداً لم يُعرَ بالاً لمكان وفاته، لم يلحظ أحدهم
أنه مات بقرب الفتحة في سور الجنية خلف الشجرة.

تري ماذا كان يفعل التابعي هناك؟، هل كان يعلم
بأمر الفتحة من قبل؟، هل كان يدخل الجنية؟ ربما هو
من صنع الفتحة، وكيف مات؟ ولماذا ظهر لي في
الكابوس هذه الليلة بالذات؟ هل مات لأنه حكى لنا عما
راه؟ ستظل وفاته لغزاً محيراً لي وحدي، أما في العزبة
فانتهى الأمر بنهاية أيام العزاء.

إنه اختبار الدراسات الاجتماعية.

أشعر أن داخل رأسي مستعمرة من النحل.

أسماء جزر اليابان، ميناء برنديزي في إيطاليا،
موقعة نوارين البحرية، وزارة نوبار باشا، مضيق

البسفور والدردنيل، البوشمن والهوتنتوت، مرتفعات
زاجروس وكردستان.

هل من المفترض أن أحشو كل هذا الهراء داخل
رأسي؟!

أوقفتني عمتي زينب عبد الحميد وأنا خارج مع
عمر. "حميد، لا تنسى اتفاقية السودان والتحفظات
الأربعة على تصريح ٢٨ فبراير، هل تذكرها؟"

-هه، طبعًا طبعًا.

فابتسمت وأعطتني ورقة وقالت: حسنًا اقرأ هذه
في الطريق مع عمر لقد لخصت فيها بعض الأشياء
المهمة.

شكرتها وانصرفت مع عمر وأنا أفكر، التحفظات
الأربعة؟! ما هي؟

-عمر، هل تستطيع أن تذكرني بالتحفظات
الأربعة لمعاهدة ١٩٣٦؟

*يا عبده أرجوك لا تبعثر المعلومات في مخي،
هذه التحفظات كانت على تصريح ٢٨ فبراير هل تعرفه؟

-هه.

عندما ظهرت النتيجة كانت مفاجأة كبيرة لي، لقد نجحت في الدراسات الاجتماعية، لا أدري كيف ولكن ذلك حدث، كدت أطيّر من الفرحة لأنني كنت متأكدًا أنني سأرُسب في هذه المادة جزاء ما اقترفت يدي من إرهابات وإبداعات في كراسة الإجابة لا تمت للتاريخ ولا للجغرافيا بأية صلة، ومع ذلك نجحت، صحيح أنني أحرزت الحد الأدنى للنجاح بالضبط ولكنه نجاح على أي حال. لم تدم فرحتي كثيرًا إذ انتبهت إلى أن مجموع درجاتي لن يؤهلني لدخول المدرسة الثانوية. اختفت فرحتي تمامًا وتذكرت كلمات عمتي زينب عبد الحميد، عبير متفوقة وغالبًا ستدخل المدرسة الثانوية. هي تصغرنى بعام. بينما على أن أختار بين الثانوية الزراعية والتجارية والصناعية، هل تقبل بي عبير إذا صارت مهندسة. أخبرتني عمتي زينب أن هذه أمنيته. بينما أنا أحمل شهادة متوسطة؟ لم يخرجني من أحزاني إلا عمتي زينب عبد الحميد، قالت لي إن إحدى صديقاتها حصل أخوها على دبلوم الصنائع ثم التحق بالمعهد الفني الصناعي ونجح فيه بتفوق مما أهله لدخول كلية الهندسة.

إذن لازال هناك أمل.

قدمت أوراقي إلى المدرسة الثانوية الصناعية بالمركز، اتفقت مع عمتي زينب عبد الحميد أن تخبر عبير عن خط السير الذي رسمناه حتى أستطيع الالتحاق بكلية الهندسة.

كان عمر الأول على المدرسة كالعادة فالتحق بالمدرسة الثانوية وافترقنا للمرة الأولى.

اتفقت مع أحمد أبي حامد الذي صار زميلي في نفس المدرسة أن يجعل أباه يصطحبنا في رحلة داخل الجنية حيث كان يعمل في جنية الزواينة.

وعندما وافق عمي حامد ذهبنا معه، دخلنا من الباب الكبير للجنية القريب من السراية، الكثير من العمال يقومون بوزن أقفاص الفاكهة وتحميل سيارات نقل كبيرة تقف في ساحة واسعة، خرجنا من الساحة ودخلنا من باب صغير نحو الحديقة المحيطة بالسراية.

وقفت أهدق في دھول، أهذه هي الجنة؟

حديقة رائعة الجمال، منسقة بدقة شديدة، مليئة
بزهور متنوعة وشجيرات منمقة، أغصانها مقصوصة
ببراعة، يختلط فيها عبق مجموعة شديدة التنوع من
الزهور، ما أن تستنشقه حتى تشعر كأنك انتقلت إلى
الجنة، عدة موائد تحيط بها مقاعد مريحة، أرجوحة
مثل التي رأيته في التلفزيون، يحيط بكل ذلك
السور المتشابك من الشجيرات ذات الورود المركبة
الصغيرة بحيث يحجب الرؤية عن باقي الجنة، ذلك
السور الذي وصلت يومًا إلى الجهة الخارجية منه يوم
تسللت للجنة.

سألت عمي حامد أبا العوضي:

-عمي حامد، هل يعيش أحد في هذه الجنة؟

حاليًا لا أحد في السراية، ولكن بعد يومين
سيأتي بعض أفراد العائلة لقضاء إجازة في السراية لذا
لابد أن نجهز السراية والحديقة.

ولماذا لا يعيشون في السراية؟

من بعد وفاة حسن أبي زينة وابنه سعيد تفرقت
العائلة، بعضهم يعيش في مصر وبعضهم في

الإسكندرية وبعضهم في بلاد أوروبا، لكنهم يأتون إلى
السراية في إجازات قصيرة.

-وكيف مات حسن أبو زينة؟

-لا أعرف بالضبط كيف مات، فلم أكن وقتها
أعمل معهم، ولكن يقال أنهم وجدوه ميتاً في الجنية.

-وهل فعلاً يظهر شبحة في الجنية ومعه حبل
من الليف ليخنق من يقابله.

-هذه كلها إشاعات، أنا أعمل هنا منذ سنوات ولم
أر أي شيء من هذا، ولكني سمعت أن سعيداً أبا زينة
رحمه الله هو من نشر الإشاعات عن شبح أبيه والذئاب
السوداء وما إلى ذلك حتى يخيف الناس فلا يدخل أحد
للجنية ويسرق منها، واستعان بالتابعي رحمه الله
لينقل هذه الإشاعات. المشكلة أن الإشاعات انتشرت
بشكل كبير حتى أن العمال يرفضون تماماً العمل في
الجنية بعد المغرب خاصة بعد وفاة سعيد أبي زينة.

-وهل مات في الجنية كأبيه؟

-لا لقد وجدناه ميتاً في شرفة السراية، رغم أنه
كان في اليوم السابق يتجول في الجنية معنا على

حصانه المفضل، بعدها تفرقت العائلة ولم يعد أحد يقيم في السراية باستمرار.

أستاذت عمي حامد أن آخذ وردة فأعطاني ثلاث وردات. عندما عدت إلى دار الرفاعي لم أرد أن أضع الوردات الثلاث في شجرة المشمش حتى لا تعتقد عبير أنني سرقتها، انتظرت حتى جاءت لزيارة عمتي زينب ثم أعطيتهم لها عند خروجها وأقسمت لها أن عمي حامد أعطاني إياهم وأنا لم أسرقهم.

فابتسمت وقالت: قالت لي الدكتورة زينب أنك تنوي استكمال دراستك بعد الدبلوم في المعهد الفني ومنه إلى كلية الهندسة.

فهزرت رأسي وقلت لها: إن شاء الله.

فابتسمت وقالت: أعانك الله، أتمنى لك التوفيق، ربما استطعت أن ألتحق أنا أيضاً بكلية الهندسة فنكون زميلين.

تقدم عريس لخطبة عمتي زينب عبد الحميد.

العريس كان زميلاً لها في المدرسة الثانوية
وبينما هي في آخر سنة في كلية الصيدلة كان هو
حصل بالفعل على بكالوريوس تجارة.

اسمه عصام وهو وحيد أبويه ويعيش في المركز.

في البداية كان الأمر عاديًا فكما علمت من جدي
أنيسة أنه سبقه آخرون تقدموا لخطبة ابنتها من
ضمنهم ابن عمدة القرية ولكن جدي رفض بحجة
استكمال دراستها، ولكنها أخبرتني أن جدي عبد الحميد
كان يقول أن ابنته تستحق أن تتزوج أستاذًا جامعيًا أو
طبيبًا من عائلة كبيرة. بالتالي كان الرفض متوقعًا
لطلب عصام حيث أنه لا ينتمي لعائلة كبيرة وأن أباه
رجل بسيط.

الجديد هو موافقة عمتي زينب عبد الحميد
وتدخلها لإقناع جدي، ولكن جدي أصر أن ابنته الأثيرة
تستحق بالتأكيد من هو أفضل منه، وأنه رفض من قبل
بالفعل من هم أفضل منه.

لكن عمتي زينب لم تيأس وظلت تجادلته، تبدأ
بأن "الرأي رأي في النهاية ولكن." "ثم تبدأ تحاوره أنه
من حقها اختيار شريك حياتها وتعدد له في مزايا

عصام وحسن أخلاقه ثم تؤكد له أنه ولا بد يثق في رجاحة عقل ابنته وحسن اختيارها. استمرت المناورات كثيراً واستعان جدي بأبي وعمي عبد الله دون جدوى، وعندما جاء عمي المهندس إبراهيم رفضت عمتي زينب أن يتكلم معها في هذا الأمر وتركتها جالساً ودخلت غرفتها مما أغضب جدي عبد الحميد كثيراً، تدخلت عمتي زينب الكبيرة وجلست مع عمتي زينب عبد الحميد وحدهما في غرفتها لمدة ساعتين ثم خرجت لتخبر جدي أن ابنته لن تعترض على أي قرار له ولكنها لن توافق على أي عريس آخر.

ثم مالت على أذن جدي وقالت: أنصحك يا أخي أن توافق عليه فابنتك مصممة وأنت تعرف البنات في عائلتنا رؤوسهم مثل حجر الصوان-وأشارت إلى رأسها هي- ثم إن الفتى لا بأس به، ويملك منزلاً في المركز وهما يخططان لفتح صيدلية فيه. ابنتك تعرف جيداً ما تفعله، ثق بها ودعها تختار مستقبلها.

أخيراً وافق جدي عبد الحميد على مضض.

وتمت الخطبة.

لم أستطع قط ابتلاع فكرة أن عمتي زينب عبد الحميد ستترك البيت وتعيش في بيت آخر، فعلاوة على أنها كانت محط أسراري فلقد كانت هي الوحيدة التي تثق في قدراتي وتشجعني.

كان عصام فتى طيباً وبشوشاً واستطاع أن يكتسب محبة الجميع في العائلة لكنني لم أنس له أنه سيأخذ مني عمتي.

كان قد بدأ حياته العملية أثناء دراسته، فأقنع أبيه أن يبيع قطعة الأرض التي كان يملكها حيث صار أبوه مريضاً ولم يعد يقوى على العمل، وفتح مكتبة لبيع الأدوات المدرسية والكتب والمذكرات في بيتهم في المركز وأحضر آلة لتصوير الأوراق واستطاع في خلال سنوات الكلية أن يجعلها أكبر مكتبة في المركز.

كانت عمتي زينب عبد الحميد تودع عصام بعد زيارته الأسبوعية عند الباب الخارجي لدار الرفاعي بينما كنت أقف فوق السطح لأتابع الغروب واستعد لليلة ليلاء جديدة.

كنت لازلت أعاني في محاولات الهروب من كوابيس الجينة اللعينة، وكانت عبير في زيارة طويلة مع أمها لجدها في القاهرة مما يزيد من أرقى. كانت طبعاً قد نجحت بتفوق والتحقت بالمدرسة الثانوية، صارت زياراتها لجدها أكثر وأطول حتى أثناء الدراسة ولقد اعتدت على رؤيتها يومياً حيث استيقظ مبكراً وأقف فوق السطح منتظراً رؤيتها وهي ذاهبة للمدرسة.

ثم أنزل لأذهب مع عمر في طريقنا حتى نصل للطريق الزراعي فننتظر سيارة-لا أدري لماذا يسمونها السيارات الرومانية- تنقلنا للمركز حيث تقع المدرسة الثانوية والصناعية كذلك. أحياناً يشاء الحظ أن نركب مع عبير في سيارة واحدة حينها أبادر بدفع الأجرة لي ولعمر ولها وهو أمر مقبول لأننا من عزبة واحدة، فتبتسم وتهز رأسها شاكرة ثم تشيح بوجهها في خجل. بينما يكتم عمر ضحكاته هامساً أنه المستفيد لأنني لم أكن لأدفع له الأجرة لولا وجود عبير، وقد تأتيني الفرصة لأبادل معها الأماكن إن كان مكانها ضيقاً أو جلست خلف السائق في ذلك المكان اللعين الذي يعلو محرك السيارة ويكون دائماً ساخناً جداً، فأتبادل معها الأماكن وأجلس سعيداً على المقعد الملتهب.

وبعد المدرسة أنطلق بسرعة نحو المدرسة
الثانوية بحجة انتظار عمر لنعود سويًا حتى أراها وهي
خارجة من المدرسة.

هي حاليًا في القاهرة منذ أسبوعين حتى كاد
يجن جنوني، جلست فوق سطح غرفتي محاولاً تذكر
ابتسامتها، صوتها، مشيتها.

هنا سمعت صوتًا خافتًا.

كان القمر بدرًا.

نظرت في الاتجاه الذي توقعته، كان هناك رجلًا
يمشي ببطء متلفتًا حوله، يرتدي جلبابًا ويتلثم بتلفيعة
يغطي بها وجهه ورأسه، كنت قد حكيت لأحمد أبي
حامد أنني رأيت رجلًا ملثمًا يخرج من بيت سلامة أبي
جاد قبل الفجر، لدهشتي اهتم أحمد بالأمر جدًّا وأخذ
يسأل عن التفاصيل وعن هوية الرجل فقلت له أنني لم
أر وجهه قط، رأيته فقط يخرج متسللاً ثم اختفى
بسرعة، بعد كلامي مع أحمد انتبهت لصلة قرابة أحمد
بسلامة أبي جاد الذي سافر إلى العراق وانقطعت
أخباره منذ عامين وتعيش زوجته وهي ابنة عمه
أيضًا- وحدها بالبيت مع أبنائها الصغار.

اقترب الرجل من بيت سلامة وطرق الباب بخفة
حينها انقض عليه رجلان من خلفه ورغم الظلام عرفت
منهما عوضين بشاربه الضخم المميز، ضرب عوضين
الملثم على رأسه بشومة وحمله ورأيت باب بيت
سلامة يفتح فتحة صغيرة ورأيت وجه زوجة سلامة
المصدوم وهي تكتم صراخها بيدها ثم أغلقت الباب.

لم أدر ماذا أفعل.

نزلت من على سطح الغرفة مسرعاً حينها لمحت
العنين الصفراويين تحديقاً في من داخل الجنية.

سمعت صوت ارتطام شيئاً بالماء فاقتربت من
سور السطح فرأيت جسداً ملقى في التربة، فنزلت
السلم مسرعاً وعندما فتحت الباب الخارجي لدار
الرفاعي لأخرج وجدت أمامي ذنباً أسود يكشر عن
أنياه فأغلقت الباب بسرعة وعدت إلى غرفتي مسرعاً
وأغلقت بابها وجلست أرتجف حتى الصباح.

في الصباح وجدوا حسنين أبا عبد المقصود ميتاً
في التربة، هو شاب في العشرين من عمره وكان
مصاباً بالصرع، الرواية التي رواها أبناء عمه أنه كان

يدوم على صلاة الفجر وأنه لا بد قد أصيب بنوبة صرع
أثناء قيامه بالوضوء من الترفة فسقط في الماء
واختنق.

القتيل كان ابن عم سلامة أبي جاد الذي رأيته
يدخل منزله وأيضاً ابن عم حامد أبي العوضي والد
أحمد.

بعد انتهاء العزاء اجتمع إخوته وأبناء أعمامه -
يقودهم عوضين- وقرروا إنشاء مسجد باسمه على
قطعة أرض كانت متنازع عليها بينهم وأسموه مسجد
شهيد الفجر حسنين عبد المقصود.

بعد حادثة حسنين أبي عبد المقصود لم أحك
لأحمد أبي حامد أو لأي أحد آخر عن أي شيء أراه.

ولقد كان ما أراه كثيرًا بالفعل.

فمن موقعي في برج المراقبة الخاص بي، أو من
جولاتي داخل الجنيّة ومراقبة العزبة من الجانب
المقابل رأيت الكثير.

لا أدري هل هي مصادفة أم سوء حظ أم أن
العالم مليء بالشر إلى هذه الدرجة.

لقد رأيت من حرق دوار المواشي الخاص بعلي
أبي الحاج علي، عرفت من سرق محصول الأرز من
بيت سالم أبي عطا.

من الذي كان يعتدي على الأطفال في العزبة.

من الذي لم يتعظ بموت حسنين عبد المقصود
وزار امرأة سلامة أبي جاد.

من الذي سمم مواشي خضر أبي العوضي.

لم أتخيل قط أننا نعيش في هذه العزبة الصغيرة
وسط هذا القدر من الموبقات والرذائل.

ولماذا يصدف دائماً أن تحدث كل هذه الأشياء
أمامي.

ولكنني تعلمت شيئاً واحداً. ألا أتكلم.

"ولكني أنصحك ألا تخبر أحداً بما رأيت هو لا
يحب أن يتكلم أحد عنه أو عن ذنابه، التابعي تكلم
كثيراً، لذلك كان عقابي"

يتكرر صوت جدتي نعمت في كوابيسي:

"لا تستمع إليه، سيحاول أن يصور لك الدنيا
أنها شر خالص وسيجعلك ترى من الناس أسوأ
مافيهم، سيقودك لترى أسوأ الأسوأ حتى تعتقد أنه
لاخير في هذه الدنيا فتسير معه في طريق الشر"

يتكرر صوت أمي:

"مهما قال لك لا تصدقه، هناك الكثير من الخير
في الدنيا ابحث حولك وستجده، لا تدعه يعمي عينيك
عنه"

-أين هو يا أمي، أنا لا أرى حولي إلا كل ما هو
شرير وأثم.

"الخير قريب منك يا بني، قريب جداً، أقرب ما
يمكن".

عبير

قال لي جدي عبد الحميد: يا عبده، لماذا لاتصلي
معنا في المسجد الجديد؟، منذ سنوات وأنت تتمنى أن
يكون في عزبتنا مسجد، ومنذ إنشائه لم أرك تصلي فيه
قط.

-أنا أحب أن أصلي في مسجد عزبة فرنسا يا
جدي حتى أنال حسنات أكثر ألم يقل لنا الإمام في خطبة
الجمعة أن المصلي يأخذ حسنات بعدد خطواته حتى
يصل إلى المسجد.

تم زفاف عمتي زينب عبد الحميد مباشرة بعد
تخرجها وانتقلت للعيش في المركز مع زوجها.

تم تعيينها في صيدلية مستشفى المركز لكنها لم تكن سعيدة بذلك وقررت أخذ إجازة بدون مرتب بعد عدة أشهر فقط من تسلمها العمل رغم اعتراض عصام وجدي عبد الحميد وعندما سألتها عن السبب قالت أن المستشفى يسودها الفوضى والإهمال، نقص شديد في الأدوية، عدد المرضى يفوق تحمل المستشفى، الوصفة التي يكتبها الطبيب لا يوجد منها إلا صنف أو اثنين وعلى المريض شراء الباقي من صيدلية خارجية، العاملين بالمستشفى لا يقومون بعملهم بحجة ضعف الرواتب، الرواتب بالفعل مخزية، حين نطلب من العمال أن ينظفوا الصيدلية ويساعدونا في حمل صناديق الأدوية يرفضون بحزم وينظرون لنا بسخرية كأننا نطلب منهم شيئاً ليس من صميم عملهم، تخيل لا يوجد حتى مقعد لنجلس عليه في الصيدلية عليك أن تدبر لك صندوقاً جيداً لتجلس عليه، الزملاء القدامى يديرون العمل بطريقتهم ويرفضون أي اقتراحات لتسهيل الأمور.

والطامة الكبرى الأسبوع الماضي حين كنا في الصيدلية وكالعادة رفض الزملاء القدامى فتح الشباك لصرف الأدوية للمرضى المتراحمين بالخارج لحين انتهائهم من الإفطار وسط خلفية من أصوات شجار

المرضى واحتجاجهم بالخارج، حتى صرخ أحد المرضى المتحمسين (نحن نعلم أنكم بالداخل، افتحوا الشباك يا أولاد الكلب)، فردت عليه إحدى الزملاء بهدوء وهي تلوك قضة من شطيرة الفول (أهو أنت اللي ابن ستين كلب ياللي بتقول علينا ولاد كلب)، أنا لن أستطيع العمل في هذا الوسط، دفتر الحضور والإنصراف، الحوافز، التأمين الصحي ونفقة الدولة". ليست هذه فكرتي عن العمل.

بالفعل أخذت عمتي زينب إجازة من عملها وقامت هي وزوجها بافتتاح صيدلية في بيت زوجها، وفي سبيل ذلك باعت الذهب الذي اشتراه لها بالإضافة إلى الذهب الذي كان جدي اشتراه لها واقتضت مبلغاً من المال من جدي.

وفي خلال مدة بسيطة استطاعت أن تعيد المال لجدي رغم رفضه ذلك، كانت تعمل هي وزوجها في الصيدلية سوياً، وبالتدريج استطاع عصام أن يتعلم صرف الأدوية والتعامل مع شركات الأدوية والمخازن وترك إدارة المكتبة لأحد أقاربه.

كلما زرت عمتي زينب في بيتها شعرت بسعادة، زوجان مجتهدان يغمر بيتهما السعادة والتفاهم، وصار عصام صديقاً لي وصرت أناديته باسمه مجرداً.

كنت قد أنهيت دراستي في المدرسة والتحقت بالمعهد الفني الصناعي ببورسعيد، ونجحت في السنة الأولى بتفوق، الدراسة في المعهد سنتان، إذا نجحت في الثانية بتفوق أستطيع التقدم للالتحاق بكلية الهندسة.

هنا قررت أن أبدأ المعركة.

استعنت بعمتي زينب وفاتحت أبي في الأمر، أريد أن أتقدم لخطبة عبير.

كان رد فعل أبي أنني لم أنهِ دراستي بعد، ومازال الطريق أمامي طويلاً.

أنا أعرف أن أبي كان دائماً يقول أنه يتمنى أن أتزوج من خارج العزبة وأن أسافر للعمل في مكان آخر.

ثم أنه كان مشغولاً تلك الفترة مع أختي أمل حيث كانت تعاني من مشكلة في النظر وكان أبي يذهب معها للمنصورة لعرضها على الأطباء الذين نصح بعضهم بنظارة طبية بينما قرر بعضهم أنها تحتاج لعملية جراحية.

بعد إلحاحي وافق أبي على عرض الأمر على
جدي عبد الحميد، هنا يأتي دور عمتي زينب عبد
الحميد.

اندهش جدي من الطلب فهو يرى أنني لازلت
صغيراً خاصة وأن عمي طه لم يتزوج بعد.

ولكن عمتي زينب عبد الحميد هي الوحيدة التي
تملك مفاتيح جدي، لا أدري كيف أقنعتة أن يوافق على
أن تكون خطبة فقط وأن يكون الزواج بعد انتهاء
الدراسة.

كانت عبير قد أنهت اختبارات الثانوية العامة
وذهبت مع أمها لزيارة جدّها في القاهرة.

وكان جدي عبد الحميد في تلك الفترة مشغولاً
جداً حيث كانت هناك خلافات مع إخوته حول تقسيم
إرث أبيهم الذي توفي منذ سنوات طويلة ورغم ذلك
لازال أبنائهم كل عام أو اثنين يدخلون في دورة جديدة
من الخلافات حول الإرث تستمر لعدة أسابيع ثم تهدأ
حتى يقوم أحدهم بإثارة الموضوع مرة أخرى.

انتظرت حتى هدأت الأمور وسافر عمي فتحي
وعمي حافظ إلى السعودية وعاد عمي المهندس
إبراهيم إلى القاهرة ثم طلبت من جدي عبد الحميد أن
يكلم والد عبير.

وافق جدي على مضض.

وجلس على أحر من الجمر متخيلاً كيف سيكون
الأمر لو تمت خطوبتنا.

ساستطيع أن أنظر في عينيها دون خوف.

أتكلم معها.

ابتسامتها.

شجرة المشمش.

لن أضع المزيد من الورود بين أغصانها.

سأعطيها لأميرتي مباشرة.

نذهب سوياً إلى الكلية.

أفقت من أحلامي على عودة جدي عبد الحميد
متجهماً.

فسألته إن كان كلم عمي الحسيني.

لأول مرة أرى جدي غاضباً مني بهذا الشكل.

" كلمته وياليتني ما كلمته، هذا جزاء من يسمع
كلام الصغار، لم أتوقع أن تفعل أنت بي ذلك يا عبده،
أنا؟ يقول لي الحسيني أبو عطا-الذي لم أتخيل أبداً أن
أقبل بمصاهرتة- أنه لا يقبل بمصاهرتي لأن ابنته تريد
إكمال دراستها؟ هل سيصدق نفسه ابن عطا أبي سلامة
أنه صار رجلاً مهماً بالقيراطين اللذين اشتراهما بعد
خروجه من الجيش، هل نسي أن أباه كان يعمل عندنا
في دوار المواشي؟" انتظرت حتى هدا جدي وقلت له "
ولماذا لم تفهمه يا جدي أنني أيضاً أريد أن أكمل
دراستي وأنها ستكون خطبة فقط حتى..."

فقاطعني جدي صارخاً " تكون ماذا؟ لا شيء
سيكون؟ لقد قلت له كل ذلك ولكنه لم يوافق وكأننا
ذهبنا للناسب حسن أبا زينة، الموضوع هذا انتهى
تماماً، ولا أريد أن أسمع كلمة واحدة فيه مرة أخرى "

ظهرت نتيجة الثانوية العامة ونجحت عبير
بمجموع كبير يؤهلها لدخول كلية الهندسة كما كانت
تتمنى، لكنها لم تعد من القاهرة إلا عند بدء التنسيق.

كنت أنتظرها على أحر من الجمر، لم أستطع
رؤيتها ولكني عرفت أنها عادت.

بعد إلحاح طويل وافقت جدتي أنيسه أن تسأل أم
عبير عن سبب رفض أبيها طبعاً على أن يتم ذلك في
سرية تامة حتى لا يعلم جدي عبد الحميد.

عادت جدتي أنيسه بنفس الرد " أمها ترفض
تماماً أي ارتباط لأن ابنتها ستكمل دراستها وعندما
سألتها عن رأي ابنتها أكدت أن ابنتها ترفض تماماً أي
ارتباط أثناء الدراسة "

لم أياس.

انتظرت حتى زيارة عمتي زينب عبد الحميد
التالية لبيت جدي واتفقت معها أن تزور عبير وتعرف
حقيقة الأمر.

وعادت عمتي زينب وقد اصفرّ وجهها وقالت
دون أن تنظر في عينيّ " الأمر واضح يا حميد، أهلها
يرفضون تمامًا الارتباط "

-أنا أعرف هذا ولكن هل هو رفض لي أنا أم فقط
تأجيل لحين انتهاء دراستها؟

"سيان يا حميد عليك الآن التفكير في مستقبلك،
وأتركها لتركز في مستقبلها"

ما كنت أريده منك هو رأي عبير، ما هو رأيها
هي؟

"هي أيضًا ترفض الارتباط تمامًا"

ماذا تقصدين؟ هل قالت لك أنها ترفضني؟

"حميد، لاتصعب الأمر عليّ وعلى نفسك، فقط
عليك أن تنساها وتركز في مستقبلك"

-أنسى من؟ وأي مستقبل؟ لماذا لا تقولين لي ما
حدث بصراحة؟

"ما أستطيع قوله يا حميد هو أنها ليست
لك" قالتها وانصرفت.

قبل بداية الدراسة سافرت عبير إلى القاهرة مرة أخرى مع أمها، لم أرها قط طوال الإجازة حتى كدت أفقد عقلي.

مع بداية الدراسة سافرت إلى بورسعيد، في العام السابق كنت أعود إلى العزبة مع نهاية كل أسبوع، هذا العام لا أدري ماذا سأفعل.

جاءني خبر عجيب لم أصدقه في البداية، عبير التحقت بكلية الآداب.

كانت تحلم بدخول كلية الهندسة ومجموعها يسمح بذلك، فماذا حدث؟ هل رفض أبوها؟

في العزبة يقولون أن أبها رفض لأن دراسة الهندسة طويلة ومكلفة، لم أقنع بهذا.

في نهاية الأسبوع عدت إلى العزبة ولكن بعد أن قمت بجولتي الاستخبارية عرفت أن عبير لم تعد للعزبة.

بدأت رحلاتي من بورسعيد إلى المنصورة محاولاً رؤيتها. ياسر ابن عمتي سعاد-أخت جدي عبد الحميد-في السنة الأخيرة من كلية الآداب بالإضافة إلى أنه من سكان المنصورة ويعرفها شبراً شبراً.

استعنت به فأدخلني كلية الآداب وبحثنا عنها دون فائدة إلى أن جاءني ياسر بالخبر اليقين، هي في قسم الانتساب ولا تحضر إلى الكلية ولا يعرف عنها زملاؤها أي شيء.

هذا غريب، رغم ذلك ظللت أقطع الطريق من بورسعيد إلى المنصورة أسبوعياً عساني أراها ولكن دون فائدة.

حتى كانت اختبارات نصف العام، حصلت عن طريق ياسر على جدول اختباراتنا. ورغم أنني كان لدي اختبارات في المعهد في نفس الفترة إلا أنني لم أهتم، على أية حال أنا لم أكن أحضر في المعهد ولم أذكر شيئاً، في أول يومٍ من اختبارات عبير اخترت مكاني جيداً مقابل بوابة كلية الآداب حتى أراها وهي خارجة دون أن تضيع مني في الزحام، بدأ الطلبة في الخروج، ازدحم المكان لكن عيني لم تبرح بوابة الكلية.

حتى رأيتها.

كاد قلبي يتوقف.

تغيرت كثيرًا ولكنها هي.

عبرت الطريق لأقترب أكثر هنا التقت عيوننا.

رفعت كفها مفرودة أمامها كأنها تطلب مني أن
أتوقف.

تجمدت في مكاني.

لم أر هذه النظرة الحزينة في عينيها من قبل.

خيل إلى أنها تمسح عينيها بأصابعها ثم انصرفت
مسرعة، تابعتها من بعيد حتى رأيت أباهما يجلس في
كافتيريا قريبة، لما رآها ذهب إليها وأشار لتاكسي
وركبا فيه وقبل أن يتحرك بهما التفتت عبير فالتقت
عيوننا للحظة ثم أشاحت بوجهها.

عدت إلى بورسعيد وقد انقلب حالي.

أخذت الأفكار تتصارع في رأسي، هل أشارت لي
أن أتوقف حتى لا يراني أبوها؟ ولكنه كان يجلس

بعيداً؟ لماذا إذن كانت حزينة بهذا الشكل؟ ربما بسبب الاختبار؟

ظللت طوال الليل أمشي على شاطئ البحر حتى وصلت لكورنيش القناة وظللت أقطعه جيئةً وذهاباً حتى الصباح.

لازلت احتفظ بذات الدرجة من النحس.

أو ربما هو شيء آخر.

كلما ذهبت في مكان تعثرت في كل ما هو مخالف أو خاطيء.

زملاني في المعهد يدخنون البانجو في دورات المياة.

صاحب البيت الذي استأجرت فيه غرفتي يتاجر في العملة.

لا أذكر كم عملية تهريب رأيتهأ أثناء الخروج من بورسعيد عند بوابة الجمرك.

كم جريمة نشل رأيتهأ في الطريق؟ كم حالة

تحرش؟ لا أدري هل بورسعيد مليئة بكل ما هو
خاطيء أم أن المشكلة في أنا.

المؤكد أن المشكلة في أنا فبعد كل الذي رأيته في
عزبتنا الصغيرة التي تبدو بريئة ومسالمة فلك أن
تتوقع ما هو أكثر في أي مكان آخر.

دائماً ما يرن في أذني صوت جدتي نعمت"
سيدفع بك دائماً لتشهد خطايا من هم حولك، ستجد
نفسك دائماً في مكان وزمان غير مناسبين لتشهد
وقائع لم تكن لتحدث إلا لأنه دفع أطرافها إليها دفعا ثم
دفعك دفعا لتكون شاهداً عليها حتى يغير ما فطرك الله
عليه، ليطمس كل ما في قلبك من خير"

كان الاختبار التالي لعبير بعد عدة أيام.

ذهبت هذه المرة مبكراً حتى أراها وهي تدخل
الكلية.

مع بزوغ الشمس كنت واقفاً أمام الكلية.

بدأ الطلبة يتوافدون.

رأيتها قادمة من أول الشارع، لم يكن معها أحد.

لست أدري لماذا اختبأت!

ربما لم أرد أن أشغلها عن اختبارها.

تابعته حتى دخلت ثم جلست على الرصيف أفكر
فيما على أن أفعل حين تخرج.

هل أحاول أن أتكلم معها؟ ترى هل يأتي أبوها
لاصطحابها؟

"كيف حالك يا عبد الحميد؟ ماذا تفعل هنا؟"

انتفضت من المفاجأة ورفعت وجهي فوجدت
والدة عبير أمامي.

تضاربت الردود في عقلي، هل أقول أنني جئت
لزيارة عمتي سعاد أم أنني أنتظر ياسر ابن عمتي أم
جئت مع أختي لطبيب العيون.

لم أفق إلا على لساني يقول: "جئت لأرى
عبير".

تنهدت والدة عبير ثم جلست بجانبني على
الرصيف وقالت: أليس لديك اختبارات؟

فقلت: أجل لدي اختبار في بورسعيد اليوم،
ولكنني تركته من أجلها.

فقلت: ولكن هذا مستقبلك يا ولدي.

*لقد دخلت هذا المعهد فقط من أجلها، كي أدخل
كلية الهندسة مثلما كانت تتمنى، والآن لم أعد أهتم
بالمعهد ولا بالكلية.

صمتت قليلاً ثم ربت على كتفي وقالت: تعرف يا
عبد الحميد، أمك رحمها الله كانت صديقتي الوحيدة في
العزبة، عندما تزوجتُ وجئتُ إلى العزبة كان كل شيء
غريب عليّ، فأنا لم أخرج قبلها من القاهرة، كل شيء
كان مختلفاً وصعباً بالنسبة إليّ، وكانت النساء في
العزبة يسخرن مني ويعاملنني معاملة سيئة، وحدها
أمك ساعدتني وعلمتني كيف أعيش في العزبة، كيف
أملأ المياه، كيف أغسل الملابس، كيف أشعل الفرن.

كان المعتاد أن يتزوج الرجل من إحدى قريباته
وكنا وقتذاك أنا وأمك فقط الوحيدتين الغريبتين عن
العزبة.

وتزوجت أمك قبلي بعام فكانت أدرى بظروف
العزبة وطبيعة الحياة فيها وطبيعة نساها، لا أنسى أبداً
كيف ساعدتني وكم وقفت بجانبني حتى تعودت على هذه
الحياة الصعبة والغريبة عليّ.

لا زلت أذكر يوم سقوطها حين أوصتني عليك
قبل أن ينقلوها إلى المنصورة. ويعلم الله يا عبد الحميد
أن معزتك في قلبي من معزة أبنائي.

فقلت لها: لم رفضت ارتباطي بعبير إذن؟

فقالت: أنا لم أرفض يا بني ولكن.

صمتت ونظرت إلى الأرض ولم تكمل.

فقلت: هل رفضت عبير؟

ترددت قليلاً ثم قالت: ليس بالضبط يا بني،

لا أدري كيف أبدأ الأمر، حسناً أولاً عدني أنا ما
سأقوله لك لن تخبر به أحداً قط.

-دعيني أفهم فقط ما الأمر؟

-لا تسأل كثيراً، إن كنت تريد أن تفهم فقط عدني.

حسناً أعدك.

تنهدت وصمتت قليلاً ثم بدأت تحكي: يعلم الله أنني لم أكن أريد أن أخبرك بهذا كما لم أخبر به أحداً قط من أهل العزبة ولكن بعدما رأتك عبير يوم الاختبار الماضي عادت إلى البيت منهاراً وظلت تبكي ليومين ثم طلبت مني أن أصطحبها في الاختبار التالي وأتكلم معك. عبير مريضة يا عبد الحميد، عندها مشكلة بالقلب وقد أكد جميع الأطباء أنها يجب ألا تتزوج.

خيم الصمت فترة حتى خيل إلى أن المارة في الشارع والسيارات والموجودات كلها توقفت عن الحركة.

قلت لها بصوت متحشرج: منذ متى وهي مريضة؟

-هي مريضة من صغرها، دائماً كانت لا تتحمل أي مجهود، لذلك كنت أمنعها دائماً من اللعب مع الأطفال أو الجري، وقتها لم يستطع أحد تشخيص مرضها، بعدها قال الأطباء أنها مشكلة بالقلب ربما تتحسن مع الوقت والعلاج، ولكن ساءت حالتها في الفترة الأخيرة وقال الأطباء أن حالتها ليس لها عملية

أو علاج شافٍ حاليًا، فقط يعطونها أدوية كي تستطيع الحركة ولكنها تحتاج إلى الإقامة في المستشفى بين الحين والآخر.

ولماذا لا يجرون لها عملية، عمتي زينب أم جمعة كان عندها مشكلة في القلب وأجرت عملية وهي الآن بخير، كذلك زوجة عمي حامد أبي العوضي أجرت العملية وبعدها تزوجت وأنجبت ولا زالت بخير.

بدأت الدموع تظهر في عينيها وقالت: لقد قالوا أنه مرض مختلف، لقد شرح لي الأطباء الأمر ولكني لم أفهم بالضبط كل ما عرفته أن عندها مشكلة في الشريان الرئوي وأنه حتى الآن لا توجد عملية له، أعرف أن هناك الكثيرين أصيبوا بأمراض بالقلب في العزبة ولقد شفي منه العديد منهم ولكن هذا نصيبها، هذا أمر الله وقضاؤه وليس أمامنا إلا الرضا به وأن ندعوه أن يخفف عنها.

بدأت دموعها في التساقط.

وماذا بعد هل سنتركها هكذا؟ لما لا نعرضها على طبيب آخر؟ ربما هناك حل لمشكلتها؟

لقد عرضتها على الكثير من الأطباء وقد قالوا
أن هناك طبيب سيأتي من ألمانيا بعد شهرين
وسيعرضونها عليه ربما يكون عنده حل لها.

فقلت وقد فلتت مني دموع ظللت أقاومها: ربما
يستطيع الأطباء أن يمنعوها من الزواج ولكن ليس من
حقهم أن يمنعوني أن أكون بجوارها، أليس من
المفروض أن أكون الآن بجوارها يا خالتي؟ أليست هي
في حاجة إلى الآن أكثر من ذي قبل؟ ما فائدة حبي لها
إن كنت أتركها وحيدة لأنها مريضة؟ ما فائدة الحياة
ذاتها إن كنت بعيداً عنها وأنا أعرف أنها تعاني وأنها
تحتاج إليّ؟

ربت على ظهري وقالت: اهدأ يا بني، هل ترى
أن وجودك بجوارها سيفيدها؟ بالعكس هو سيعذبها
أكثر، سيذكرها دائماً بأنها لا تستطيع أن تعيش كباقي
الفتيات، عندما رأتك المرة السابقة لا تتخيل كيف كانت
حالتها، أرجوك يا عبد الحميد إن كنت تحبها فعلاً ابتعد
عنها ولا تكن سبباً في زيادة عذابها.

-أنا آسف يا خالتي، لا أستطيع، أنا سأنتظر عبير
هنا وسأخبرها إنني لن أتخلي عنها أبداً، وأنه لا يعينني
ما يقوله الأطباء وأنني سأظل بجوارها طوال العمر.

-أرجوك يا بني، لقد وعدتها أن أقنعك ألا تحاول رؤيتها مرة أخرى، لقد كانت ترفض تناول أدويتها وظلت تصرخ وتقول أنها تريد أن تموت الآن، إن كنت تريد أن تساعدنا لا تحاول أن تراها، فقط ادعُ الله أن يشفيها، ربما يستطيع الطبيب الألماني أن يجد حلاً لها، ويمكنك الاطمئنان عليها عن طريق عمك زينب عبد الحميد فهي تعرف بأمر مرض عبيد وأنا سأحاول أن أطمئنك بنفسك كل فترة، ولكن الآن أرجوك أن تتصرف من هنا لأن الوقت اقترب ولا أريدها أن تراك.

ظلت دموعي تنزل في صمت بينما لم أستطع أنا الرد عليها، أمسكت ببدي وأوقفتني وجذبتني من يدي وهي تربت على كتفي وتقول كلاماً لم أسمع منه شيئاً، حتى وصلنا لآخر الشارع وقفت في مواجهتي وقالت: أرجوك يا عبد الحميد، لا تحاول أن تكلمها أو تراها هي لن تتحمل ذلك، إن حالتها النفسية الآن سيئة جداً، وأسمعها طوال الليل تبكي وتدعو الله أن تموت حتى ترتاح، سأعود الآن حتى أنتظرها أمام البوابة وأتمنى أن تنفذ ما اتفقنا عليه.

انصرفت مسرعة ووقفت أنا أشاهدها وهي تمسح دموعها وتسرع في خطواتها نحو كلية الآداب.

الشريان الرئوي.

لا أدري ماهو، فقط أذكر الاسم بصوت ماجد،
ورسمة أسطوانة لها فرعين رسمتها لي عمتي زينب
في كتاب العلوم لكني لا أذكر ما وظيفته وما فائدته.

فائدته فقط أن يفقدي أعز مخلوقة على وجه
الأرض.

أن يفقدي الأمل والسبب في الوجود والحياة.

اللعة على الشريان الرئوي وعلى كل الشرايين
وعلى كتاب العلوم.

اللعة على كل شيء.

لا أدري ما حدث بعدها، ولا إلى أين ساقطني
قدماي، ولكني استيقظت في الصباح لأجدني
نائماً تحت شجرة على كورنيش النيل.

المصائب لا تأتي فرادى

عندنا مثل يقول (عندما يسقط العجل تكثر سكاكينه)، وهو يحمل نفس معنى المصائب لا تأتي فرادى، فبينما أنت تقاوم وتجاهد للخروج من مشكلة ما حتى تفاجأ بمصيبة أخرى تأتيك من حيث لا تتوقع، وحين تحاول أن تعود نفسك على وجود المصيبة الثانية فإذا بالثالثة تأتي لتحيل حياتك جحيماً، وهكذا كلما وجدت حلاً لإحداها أو على الأغلب اعتدت وجودها وسلمت بأنها قدر لا مفر منه جاءت واحدة جديدة تقلب حياتك رأساً على عقب، فتظل تأمل أن يأتيك المفتاح الذي يحل المشاكل كلها مرة واحدة ولكنه لا يأتي، بالقطع لن يأتي، فالحياة هي سلسلة من المشاكل التي تتداخل وتتشابك وتزيد وتنقص حتى تفقدك إلى المفتاح الوحيد الذي ينقذك منها وهو الموت، فمن قبله لا فكاك.

أبي، سالم أبو عبد الحميد.

لاحظت أثناء غيابي عن العزبة أن الأحلام إياها تقل، وكذلك تقل درجة وضوحها فلا أتذكر معظمها.

فأثناء إقامتي في بورسعيد كانت الأحلام تزورني مرة أو مرتين أسبوعياً
وفي كثير من الأحيان كنت استيقظ فلا أذكر ما دار في الحلم.
إلا ذلك اليوم.

رأيت نفسي أمشي خارج سور الجنينة ليلاً، الأحلام السابقة كانت كلها
تدور داخل الجنينة.

هذه المرة كنت في الخارج، وسمعت أصواتاً غريبة من داخل الجنينة،
ظلمت أجري بمحاذاة السور، لمحت ظلالاً تجري بمحاذاتي داخل الجنينة.

لمحت ظلاً يجلس على الجسر أمامي فاقتربت منه بحذر. سمعت صوتاً
ليس غريباً عليّ.

" اقترب يا عبد الحميد ولا تخف "

اقتربت أكثر وبدأت في ضوء القمر أتعرف على الوجه الذي توقعته.

سـتـي " كـل "، كيف جئتِ إلى هنا.

قالت وهي جالسة على الأرض دون أن ترفع وجهها إليّ: لا تسأل كثيراً،
فقط اسمع ما أقوله لك وافهمه جيداً، اجتهد لحل مشاكلك، ابذل قصارى جهدك
وحذارٍ من التقصير، قاوم وتحمل لآخر طاقتك، ثم ارض بقضاء الله وقدره،
خيرهِ وشرهِ، وتذكر دائماً (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها)، فكل ما تراه حملاً ثقيلاً

لا قِبَل لك به هو ليس كذلك، فلو لا أنك أهلكَ له ما كَلَّفَكَ الله به، لا تنتظر مساعدة من أحد، لا أحد يعطي شيئاً مجاًناً، وربما يكون ثمن ما تطلبه باهظاً جداً، وبعد أن تدفعه في الغالب لن تحصل على ما تريد، لا تخطُ خطوة دون أن تنتبه لموضع قدمك، استفتِ قلبك، وتعلم من أخطاء الآخرين، ولا تستجب لنداء الشر.

ازدادت الأصوات داخل الجنية فقلت لها: هل تقصدين ذلك الشيء داخل الجنية يا ستي.
-أجل.

حينها ظهر نور أصفر داخل الجنية التفّت إليه في خوف ثم نظرت إليها وقلت: وماذا يكون يا ستي؟ وماذا يريد مني؟

حينها شبت النار في سور الغاب وارتفع صوت عواء الذئاب.

رفعت ستي "كُل" وجهها إلى للمرة الأولى وقالت: كل ما أستطيع قوله يا بني أنه شيء شرير ويريد أن يقتل الخير بداخلك ويجعلك مثله.

-ولماذا أنا؟

ارتفع صوت العواء أكثر ورأيت اثنين من الذئاب السوداء يخرجان من فتحة في السور المشتعل ويجريان نحونا وقد امتدت نيران السور إلى ذيليهما.

*اسأل عمك "زينب"، فهي تعرف الكثير.

فجأة اختفى كل شيء.

استيقظت وسط بحر من العرق في غرفتي في بورسعيد.

لم أكن عدت إلى العزبة منذ قابلت والدتي عبير.

فقط كل أسبوع أو أسبوعين أتصل بعمي "عبد الله" ليطمئن أبي أنني بخير، جاءني "عمر" ليطمئن على وحمل لي نقوداً من أبي، لازال "عمر" هو أخي الذي لم تلده أمي، طبعاً لم أكن أذهب إلى المعهد، كنت أقضي وقتي بين الجلوس أمام البحر والمشي على كورنيش القناة أو ركوب المعديّة ذهاباً وعودة إلى "بور فؤاد".

لم تفارق ذهني صورة "عبير" وهي تشير لي بكفها أن أتوقف ولا أقرب، عيناها الحزینتان، كلمات أمها.

ثم أتذكر كلماتها (أتمنى لك التوفيق، ربما استطعت أن ألتحق أنا أيضاً بكلية الهندسة فنكون زميلين)، طموحها، ابتسامتها، الوردية على شجرة المشمش.

جاء حلم ستي "كل" ليعيدني لحياتي السابقة، ماذا كانت تقصد؟، إن كانت تعرف لماذا لم تخبرني؟ ولماذا لم تحدد أي واحدة من عماتي زينب تقصد؟ فانا للأسف لدي ثلاثة.

أخذت أفكر وأنا أمشي على البحر، لابد أن أعود غداً إلى العزبة. ثم ماذا؟ لست أدري. هل ستكون عبير هناك؟ هل هناك فعلاً سر تعرفه إحدى عماتي زينب؟ وهل ستخبرني به؟

رأيت رجلاً يجلس في الظلام يحرق شاردًا في أمواج البحر وينفث دخان سيجارته في صمت. لا أدري لماذا توجهت على الفور نحو كشك صغير وأشتريت علبة سجائر وعلبة ثقاب.

كلما حاولت أن أشعل السيجارة انطفأ الثقاب مع هبات الرياح، أخذت أداري بجسدي وكفي على النار وأخيرًا نجحت في إشعال السيجارة بعد خمس محاولات بخمسة أعواد ثقاب، ومع سحبي لأول نفس من السيجارة دخلت في نوبة من السعال.

بعد أن توقف السعال قررت أن أجرب مرة ثانية نفس صغير لا تسحب بقوة ولكن لفائدة، رانحتها شنيعة، كأنني استنشقت دخان قمينة طوب، أخذت أسعل حتى دمعت عيني، تذكرت كلمات عمتي "زينب" الكبيرة، فعلاً كان عندها حق فيما قالت، أنني فاشل في كل شيء، حتى التدخين فشلت فيه، ألقيت السيجارة والعلبة بأكملها والثقاب في الرمال ولأول مرة منذ شهرين أخذت اضحك في هيسستيريا، حتى التدخين فشلت فيه يا "حميد".

عدت إلى العزبة.

جلست ربع ساعة مع جدتي "أنيسة" لمعرفة مافاتني من أخبار، لا شيء على مايرام.

أجرت أختي "أمل" عملية بإحدى عينيها ولكن نظرها لم يتحسن.

قال الأطباء أنها فقدت النظر تمامًا بإحدى عينيها بينما الأخرى ستحتاج إلى نظارة طبية بالإضافة إلى العلاج لمدة طويلة.

أبي أخذ "محمد" أخي إلى المنصورة ليعرضه على الأطباء نظرًا لأنه لاحظ ضعف نموه وثقل سمعه وصار في الفترة الأخيرة لا يشتهي الطعام ويتقيأ كثيرًا.

زادت المشاكل مرة أخرى بين جدي عبد الحميد وإخوته بسبب الميراث واتصل عمي المهندس "إبراهيم" بعمي "فتحي" وعمي "حافظ" أن يأخذا إجازة من عملهما ويعودا على الفور لكي ينهوا الأمر ويوقعوا على الأوراق.

المفاجأة كانت وجود عمتي "زينب عبد الحميد" في بيت جدي، وكما حكّت لي جدتي أنيسة أنه بعد إلحاح شديد ذهبت عمتي زينب إلى طبيب النساء لمعرفة سبب تأخر الحمل وللأسف قال الطبيب أنها غالبًا لن تستطيع الإنجاب، وهو الخبر الذي فجر قبلة من الأسى في العائلة كلها وليس في عمتي زينب وحدها، ورغم أن "عصام" قال أنه لا يبالي بهذا الأمر إلا أن عمتي "زينب" أصرت أن تظل في بيت جدي فترة حتى تتركه يفكر ويقرر مستقبله. ماذا حدث لهذه العائلة؟ المصائب فعلاً لا تأتي فرادى.

كانت عمتي "زينب عبد الحميد" لا تخرج من غرفتها إلا للضرورة.

طرقت الباب، لم ترد إلا بعد أن ناديت عليها.

فتحت الباب وقالت: الحمد لله على السلامة.

لم أكن تعودت على ملامح عمتي "زينب" بدون ابتسامتها الدائمة فبدت لي غريبة، اصفرَ وجهها وظهرت هالات سوداء أسفل عينيها.

صمتت قليلاً ثم قالت: حكّت لي والدّة "عبير" عما حدث، أنا آسفة يا حميد أنا أعرف كم كنت متعلّقاً بها.

فقلت: ولازلتُ، كنتِ تعرفين كل شيء ولم تخبريني.

-آسفة يا حميد ولكنها كانت رغبة عبير، لقد أكدت عليّ ألا أخبرك بالأمر.

وكيف حالها الآن؟

-آخر مرة رأيتها كانت بخير، مرت عليها فترة صعبة بعد لقائك ولكنها الآن أفضل حالاً.

حاولت تغيير الموضوع فأشرت إلى كراسة رسم أمامها:

عدت للرسم في كراسات الرسم الصغيرة، أين لوحاتك؟

-للأسف لم أحضر لوحاتي من المنزل فاستعرت هذه من أختك "أمل".

ترددت قليلاً ثم قلت: لقد حكّت لي جدتي "أنيسة" عما حدث.

لم ترد على وأخذت تنظر في الورقة وتعبث بالقلم في شرود.

-عمتي، أعرف أنه صعب عليك تقبل أمر عدم وجود أطفال، ولكن إذا كان "عصام" -كما قالت لي جدي- قد قال أنه لا يبالي بهذا الأمر فلماذا إذا لا تعودين إليه ببساطة وينتهي الأمر.

وقفت وأخذت تسير في الغرفة بخطوات بطيئة دون أن تنظر إلي: أنت لا تفهم الأمر جيداً يا حميد، الأمر معقد جداً، نحن في مجتمع يعتبر الزواج ما هو إلا مشروع لإنتاج الأطفال، وفائدة المرأة الأساسية أن تنجب، ورغم حزني إنني لن يكون لي أطفال إلا أنني أستطيع تقبل الأمر، ولكنني أعرف جيداً تعلّق "عصام" بالأطفال، طوال الوقت كان يحلم بأن يكون عنده ولدان وبنتان، واختار الأسماء، وجهاز لهم مكاناً في البيت.

-ولكن "عصام" يحبك، وأعتقد أنه مستعد للتنازل عن كل ذلك من أجلك، وأعتقد أن هذا ما قاله بالفعل.

-هو فعلاً قال ذلك، ولكنني أعرف أنه حزين ومكسور بداخله، ثم إن أهله لن يتركوه، لن يتقبل أبواه الأمر وسيلحون عليه ليل نهار.

جلستُ مكانها وأخذت أصدق في الخطوط المتداخلة التي رسمتها محاولاً فهم ما كانت ترسمه: ماذا نويتِ إذا؟

حقاً لا أدري يا "حميد"، فقط قررت أن أعطه وقتاً ليفكر جيداً بعيداً عن القرارات المتسارعة المبنية على العواطف والشفقة ويناقش الأمر مع أبيه. بعدها نحدد ماذا سنفعل. لكنني أعرف أن حياتنا لن تعود قط كما كانت.

لم أستطع أن أقول شيئاً وتظاهرت بالتشاغل برسمتها الغير واضحة، ثم قلبت الورقة لأرى الرسمة التي في الصفحة التالية، حينها تجمدت في مكاني، وجدت العينين تحدقان فيّ، الرسمة بالقلم الرصاص ولكنها واضحة جداً، العينان الكبيرتان في الخلفية وأمامها ذئب أسود ضخم يكشر عن أنيابه، سور الغاب المشتعل.

تجمدت مكاني من المفاجأة ولم أتحرك لثوانٍ ثم قلت بصوت متحشرج: ما هذا؟

ردت عمتي بارتباك: ماذا هناك؟ إنها رسمة عادية.

-وما هذا الذي في الرسمة.

-أنت تعرف حواديت العزبة القديمة عن راعي الذئاب السوداء الذي يعيش في الجنيّة، لقد خطرت في بالي هذه الأسطورة فرسمتها.

-وهل رأيته؟

-رأيت ماذا يا "حميد"؟ هل تصدق هذه التخاريف؟

-حسناً لقد كنت أريد أن أتكلم معك في أمر متعلق بهذه الأشياء.

هنا دخلت جدتي "أنيسة" قائلة أن أبي عاد من "المنصورة" مع أخي "محمد".

قلت لعمتي: سنكمل حديثنا فيما بعد. وخرجت لأقابل أبي.

كان أبي في أسوأ حال ممكن، نحف جسده كثيرًا وطالت لحيته، يبدو أن توالي المصائب عليه قد زاد عمره عقدًا من الزمان، أما "محمد" فقد كان حاله أسوأ، تغير لون بشرته بالإضافة إلى نحوله وما لاحظته من ضعف سمعه.

أخذ أبي يحكي عن معاناته مع طبيب الأذن الذي حوله لطبيب الكلى، ومعاناته بين المختبر والعيادات ومقياس السمع، وأن النتيجة أظهرت ارتفاع في وظائف الكلى وأن الأسبوع المقبل موعد عمل أشعة على الكلى.

كمية معاناة رأيتها اليوم في دار "الرفاعي" تكفي عزبة بل مدينة بأكملها، اكتملت بظهور أختي "أمل" بنظارتها السمكة وعودة جدي من الخارج متجهماً ورفضه تناول الطعام ودخل إلى غرفته مباشرة، يبدو أن الأمور وصلت بينه وبين إخوته إلى طريق مسدود.

المصائب لا تأتي فرادى ولكن هذا كثير جدًا بالفعل.

"الأولى"

" أحياناً تضعك الظروف في مفترق طرق، عليك أن تختار بين شخص تحبه جداً وشيءٍ تريده بشدة، بين رفيق دربك وبين طموحك الذي تمشي في هذا الدرب لأجله، بين أفضل انجاز حققته في حياتك وبين أقصى آمالك. الاختيار غاية في الصعوبة، فاختيارك لأحد الخيارين هو خيانة للخيار الآخر، هو استئصال لعضو من جسدك بل هو اقتطاع لجزء من روحك ذاتها.

الأدهى من ذلك حينما تجد أن اختيارك لأحدهما يقودك في النهاية لخسارتهما معاً"

عصام

أول ليلة في العزبة.

عادت الأحلام لوضوحها السابق كما توقعت.

الجنية.

الضوء الأصفر.

الذئاب السوداء.

الصوت القوي.

"استطيع أن أحل لك كل مشاكلك".

تردد الصوت في أذنيّ عاليًا.

ماذا يقصد؟

توقفت عن الجري والتفتُ إليه.

زادت قوة الضوء الأصفر فرفعت يدي أعطي عينيّ.

شعرت باقتراب الذئاب السوداء حتى أنني صرت أسمع صوت أنفاسها.

"أنت تعرف ماذا أقصد".

تدافعت في ذهني الأحداث الأخيرة بداية من عينيّ "عبير" الدامعتين حتى صورة أخي "محمد".

"كل هذا أستطيع أن أصلحه من أجلك".

ولماذا لا يصلحه إذًا.

قالت ستي "كل" أن أحدًا لا يعطي شيئًا بلا مقابل.

ترى ما هو المقابل الذي يريده مني.

"أريدك أنت، أريدك أن تنضم إليّ وسأصلح لك كل ذلك"

هنا تعالت أصوات من وراء السور.

ميزت صوت "علاء" وجدتي "نعمت" ولكن أصواتهم كانت بعيدة وغير واضحة لم أميز فيها غير جملة (لا تصدقه).

هنا ارتفع صوته "فقط أريد منك الطاعة ولن تندم لن تندم قط."

"أبي ما سبب الخلاف بين جدي وإخوته؟"

-الخلاف قديم يا "عبد الحميد" منذ وفاة جدك "سالم" رحمه الله، وهذه عادة سينة في أهل عزبتنا: الخلاف حول تقسيم الميراث، ولأن الأمور كلها تسير حسب الأعراف والتقاليد فلا أحد يرضى بالقسمة وتظهر المشاكل ما بين الحين والآخر.

-ولماذا لا يجلس جدي وإخوته ويقسموا ميراث أبيهم حسب الشرع وينتهي الأمر.

-الأمر معقد بعض الشيء، فبعد كل مرة يقسموا فيها يكون هناك من يشعر أنه قد ظلم ويطلب إعادة القسمة، فلان تعلم وأنا لم أتعلم، فلان تولت العائلة تكاليف زواجه وفلان زوج نفسه، وهكذا. ثم هناك أرض رجع الجنيينة.

حقاً ماحكايته هذه الأرض؟

-عندما جاء الزواينة أخذوا يضمنون إليهم أراضي أهل العزبة، تارةً بالترغيب وتارةً بالترهيب، حتى ضموا الحوض الغربي كله فيما عدا أرض جدك "على" الكبير الذي رفض كل الإغراءات ودافع عن أرضه هذه باستماتة، ويقال أن "حسن أبو زينة" هدهد بالسلاح وأجبره على بيعها له، بعدها لم يتحمل جدي "على" البقاء في العزبة، اختفى ذات ليلة وظل أهل العزبة ينتظرون عودته لسنوات طويلة لكنه لم يعد، وبينما كان جدي "سالم" يعمل مع الزواينة ويدير لهم تجارتهم استطاع أن يقتنع "سعيد أبا زينة" أن يعيد له أرض جده "على"، وبالفعل اشتراها منه وخرجت من زمام الجنيينة ولذلك سميت "رجع الجنيينة".

-ولكني سمعت أنه كان هناك خلاف عليها أيضاً بين جدي "سالم" وأخيه "الحاجعلي"، فكيف ذلك إن كان جدي "سالم" هو من اشتراها؟

-هذا حدث فعلاً، بعد أن اشترى جدي "سالم" الأرض، جاءه إخوته وقالوا له أن هذه أرض أبيهم ولهم فيها مثله، ولكن جدي "سالم" أرهم العقد الذي اشترى به الأرض من الزواينة، ذلك لم يمنع تطور الأمر حيث شارك أبناء عمومته في الطلب على أساس أنها أرض جدهم، تمسك جدي "سالم" بموقفه

وقال أنها أرضه التي اشتراها بماله وعلى من يريد استرجاع أرضه فليذهب للزواينة ويشتري منهم، وبالفعل حاول بعضهم ولكن الزواينة رفضوا رفضاً تاماً، هداً الجميع بعدها فيما عدا "الحاجلي" الذي كان يقول أن أباه أوصاه قبل وفاته أن يعيد هذه الأرض ويزرعها بنفسه وعرض على جدي "سالم" أن يشتريها منه ولكنه رفض، فبدأت سلسلة من المضايقات والاعتداءات، من سرقة محصول إلى حرق حظيرة المواشي حتى وصلت إلى الاعتداء المباشر، "الحاجلي" كان ضخم الجثة قوي البنيان، وفي أحد الأيام أمسك بجدي "سالم" وانهال عليه ضرباً حتى سال الدم من رأسه، وقف أهل العزبة يشاهدون ولم يجروا أحد منهم على التدخل، وحينما حاول أبي وإخوته التدخل صرخ فيهم جدي "سالم" ألا يمدن أحدهم يده على عمه "الحاجلي" وأمرهم ألا يتحركوا، ورغم ذلك لم يتوان "الحاجلي" عن إحضار عقد بيع وأمره أن يبصم عليه ولما رفض جدي "سالم" طرحه "الحاجلي" أرضاً وانهال عليه ضرباً.

هنا ظهرت عمّتك "زينب" الكبيرة وكانت لم تتزوج وقتها ودفعت "الحاجلي" عن أبيها ثم نزعت عمّته من فوق رأسه وألقتها أرضاً وداستها بقدمها ووقفت تنظر إليه بتحدٍ، ألجمت المفاجأة "الحاجلي" وهزته الضربة المعنوية من ابنة أخيه ونظر إلى عمّته التي داستها ولم يتحرك، مسحت عمّتك الدم عن رأس جدي "سالم" وساعدته ليقف وعادت به إلى المنزل، ولم يتعرض له "الحاجلي" بعدها، وظل في بيته حتى مات بعدها بشهر.

لماذا إذن الخلاف بين جدي عبد الحميد وإخوته ألم يتعلموا من الماضي؟

للأسف في عزبتنا نتعلم من الماضي الأخطاء ثم نكررها بحذافيرها،
جدي "سالم" قبل وفاته أوصى أبي أن يرعى هذه الأرض بنفسه، الآن يرى
المهندس "إبراهيم" أن يتم تقسيمها بينهم، بينما يرى "حافظ" أن نبيعها
ونتخلص منها ونقسم ثمنها على الورثة. بينما عرض جدك عليهم أن يأخذها
في مقابل أن يعطوه نصيبًا أقل منهم من ميراث أبيه، أو أن يشتري نصيبهم
منها ولكنهم رفضوا.

ولماذا لا يتركها جدي لهم وينتهي الأمر؟

-أولاً هو لا يريد مخالفة وصية أبيه، ثانيًا أنت لم تعمل في الأرض بما فيه
الكفاية يا "عبد الحميد" لتعرف العلاقة بين الفلاح وأرضه، الأمر ليس أرضًا
يزرعها ويأكل منها ويستطيع أن يستبدلها بأرض أخرى، هذه الأرض رواها
جدك بعرقه، كل ذرة تراب فيها مرت عليها يده، أكل منها وأكلت منه حتى
اختلفت بجسده واختلطت روحه بتربتها لو فصلته عنها لكأنك بترت ذراعه أو
ساقه.

حكيت لعمتي "زينب" ما حدث في الحلم الذي رأيت فيه ستي "كل"،
ولاحظت توترها واصفرار وجهها أكثر عندما نظرت لها متسائلًا وقلت لها: ما
رأيك؟

ولماذا توقعت أنها أنا لماذا لا تكون عمك "زينب أم جمعة".

في الحقيقة لقد توقعت أن ستي "كل" تتحدث عن عمتي زينب أم جمعة لأنها حفيدتها، ولكن لما رأيت رسمتك تشجعت أن أحكي لك وأسألك.

وما علاقة الرسمة بالأمر؟ هي رسمة عادية مثلما رسمت النداهة والغولة وكل هذه التخاريف.

-لأنني رأيت ما رسمته بكل تفاصيله في منامي مرارًا وأعرف أنكِ بالتأكيد رأيته مثلي وإلا ما كنتِ رسمته بهذه الدقة.

أشاحت بوجهها وقالت: ولماذا لا يكون الأمر محض أضغاث أحلام يا حميد.

-لأنني رأيت ماثبت أنها ليست كذلك، عمومًا ليس هذا موضوعنا هي أحلام أم حقائق، لقد جنتك كي تفيديني إن كنت تعرفين شيئًا عن ذي الذناب السوداء الذي حكى عنه ستي "كل" ورسمته أنت.

حسنًا يا "حميد" أنا ليس لدي الكثير، لأكون صريحة معك أنا أيضًا رأيته في منامي ولكنها أحلام غير واضحة، مجرد صور وأصوات متداخلة، وعلى حد علمي هذه الأحلام ليست مقتصرة علينا فقط، هناك أناس كثيرون من حولنا يرونها ولكن لا أحد يحكي عنها، ما عرفته أن هناك شيء فعله أحد أجدادنا غالبًا جدي "سالم" أو ربما جدي "على" ولا زالت آثاره باقية حتى اليوم، أنا لا أؤمن بالخرافات ولكن السحر والجن حقائق معروفة وإن كنا لا نعرف قواعدها، ربما قام بتحضير روح شريرة، لا أدري، أنت تعرف ما يقال أن مكان عزبتنا كانت مدينة فرعونية وأن التل كان قصرًا أو ربما معبدًا، الفراعنة

اشتهروا بممارسة السحر، وهناك قصص كثيرة عن لعنة الفراعنة التي تصيب من يفتح مقابرهم والتي هي غالباً نوع من السحر، لم أسمع أن هناك مقابر للفراعنة أو آثار مهمة وإلا لانقلبت الدنيا علينا، فهذه أشياء ثمينة ومهما قيل عن سحر ولعنات إلا أنها لو كانت موجودة لوجدنا الحكومة هنا في لحظة بالإضافة إلى لصوص الآثار، لذلك أنا أستبعد هذا الاحتمال، هذا كل ما لدي.

فقط، ألم تري أو تسمعي شيئاً آخر؟ أريد شيئاً يدلني على الطريق، لم أعد أعرف ماذا أفعل، أنا صرت أخاف من النوم.

-أنا آسفة يا حميد، كنت أود لو أستطيع مساعدتك في هذا ولكن هذا كل ما لدي.

شكراً لكِ على كل حال، وأرجو أن يكون هذا سرّاً بيننا.

-بالطبع، أنت تعرف هذا الإتفاق الضمني بين أهل العزبة جميعاً، كلهم يشعرون بأن هناك شيئاً ليس على مايرام ولكن أحداً لا يتحدث في هذا الأمر.

هممتُ بالانصراف من غرفتها وقد ازدادت حيرتي فنادت على ثم قالت دون أن تنظر نحوي: "حميد"، أعتقد أنني رأيت في حلمي ما يوحي بأن أبي قد تورط أيضاً في شيء ما.

صمتت قليلاً ثم أكملت: لا أدري كيف أشرح لك ولكن الأحلام تدفعني نحو الشك في غرفة المخزن.

في فصل الصيف تشتد الحرارة بعد العصر وتكاد تملأ العزبة من المارة، فكنت أمشي باتجاه البحر الجديد حتى إذا وصلت لمكان الفتحة في سور الجنيينة، أتأكد أن أحداً لا يراني ثم أتسلل إلى الجنيينة ثم أعود باتجاه العزبة بمحاذاة السور حتى أصير بمحاذاة بيت "عبير"، أختبئ خلف شجرة وأجلس حتى مغيب الشمس، لقد وعدتُ أمها أنني لن أحاول رؤيتها، هي لن تراني من هنا، فرصة أن تخرج "عبير" تقريباً منعومة ولكني على الأقل قريب منها.

في ذلك اليوم نزلت من غرفتي فوجدت مفاتيح جدي فوق التلفاز، ترددت كلمات عمتي "زينب" في أذني، أخذت المفاتيح خلسة وتسلمت إلى غرفة المخزن، فتحت القفل الصدي، دفعت الباب فصدر منه صوت صرير مزعج، قفزت إلى ذهني على الفور ذكري السابقة مع هذه الغرفة فاقشعر جسدي، نظرت إلى الداخل؛ أجولة السماد، الميزان الحديدي، قطع غيار قديمة لماكينة المياه وبعض المفاتيح الخاصة بإصلاحها، جراكن الوقود والزيت، ثم لاشيء. الجدران القديمة المتشققة، أغصان الغاب عند الجدار القريب من التربة والجذور الملتوية على الأرض.

دخلت وأغلقت الباب ووقفت في الظلام بانتظار أن يحدث شيء، كل شيء طبيعي. فتحت الباب وأغلقت القفل وأعدت المفاتيح مكانها.

لا شيء في غرفة المخزن. عليّ غداً الذهاب إلى منزل جدي "حميدة".

''الثانية''

''الرضا، الرضا فقط هو الذي يريح نفس الإنسان أمام نواب الدهر وتقلب الدنيا، من تمكن الرضا من قلبه فلن يضره شيء. سواء رضينا بقضاء الله أم لا فهو واقع، ولن يغير موقفنا شيئاً من الأمر. لقد توفي أبي وأنا صغيرة، وزوجني عمي وأنا في سن الثانية عشرة رغم أنني كنت أريد أن أتعلم، وتوفي أخي وسندي في الدنيا فجأة، وعندما كنت حاملاً في ابني الثاني ''عبد الله'' تعبت جداً وأخبرني الأطباء أن عندي مرض في القلب وأني أحتاج إلى عملية خطيرة، حينها تركني زوجي وطلقني، لكنني وقتها رضيت وقلت ربما كان في ذلك خير لي حيث كان دائم الشجار معي وكثيراً ما كان يعتدي عليّ.

وعندما سافر ''ابني محمد'' إلى العراق وانقطعت أخباره هناك تمسكت بالرضا.

الرضا فقط هو ما يبقيني على قيد الحياة، كان من الممكن أن تكون الأمور أسوأ من ذلك، وحتى لو ساءت أكثر من ذلك لن ينجيني إلا الرضا.

عمتي ''زينب أم جمعة''

عرفت من أبي أن عمتي "زينب أم جمعة" مريضة منذ شهر وأنه ذهب معها إلى طبيب في المركز وأعطائها أدوية كثيرة ولكن حالتها كانت تتحسن قليلاً ثم تعود لسابق عهدها.

طرقت الباب العتيق عن طريق المطرقة المعدنية ففتحت لي جديتي "حميدة" الباب، احتضنتني بقوة وأخذت تعتب على أنني لم أزرها منذ مدة طويلة.

جاءت عمتي "زينب" وسلمت على واحتضنتني فسمعت صوت الساعة المحبب يخرج من صدرها. كانت قد ازدادت نحولاً وشحب وجهها. حكّت لي أنها تعاني من حمى متقطعة منذ مدة طويلة وآلام مستمرة بجسمها.

طالما عجبت من أمر هاتين السيدتين، قد تكاثرت عليهما نوائب الدنيا ومع ذلك تجدهما صابرتين شاكرتين مبتسمتين دائماً، تقيمان وحدهما معظم الوقت، لا يوجد تلفاز، لا تجيدان القراءة، فقط راديو صغير ينبعث منه دائماً وأبداً صوت إذاعة القرآن الكريم، صائمتان معظم أيام السنة، لا ينطق لسانيهما إلا بكل خير ولا ترى من وجهيهما إلا البشاشة والحبور.

كان "عبد الله" ابن عمتي زينب أنهى دراسته وأخذ إعفاءً مؤقتاً من الجيش فسافر إلى "ليبيا".

ذهبت جديتي "حميدة" لتعد الشاي بالقرنفل المشروب الرسمي هنا وبقيت مع عمتي "زينب" وحدنا.

قلت لها : زارتنى ستي "كل" فى المنام.

ثم حكيت لها ما حدث.

لقد سألت عمتى "زينب عبد الحميد" بالفعل فلم أحصل منها على الكثير، فقلت ربما كانت ستي "كل" تقصديك أنتِ.

-لا أعتقد أنها تقصدي أنا يا حميد فأنا بالفعل لا أعرف الكثير عن ذلك الأمر. ولكنى سأخبرك على أى حال بما أعرفه.

نظرت فى تردد نحو باب الغرفة ثم خفضت صوتها كأنها لا تريد أن تسمع جدتي "حميدة" ما تقوله:

كانت ستي "كل" لا تحب جدك "عبد الحميد"-وهو شيء طبيعى بعد انفصاله عن أمي- ولكنها كانت دائماً تقول أنه (مخاوي) وأنه يستعين بالجن، وكانت أمي تصدق ذلك حتى أنها تحمله مسئولية موت أبي وأخي وذلك لأن كلاً منهما توفي فجأة ولم يكن يعاني من أي أمراض، ورغم أن اثنين من أعمامي قد ماتوا بنفس الطريقة أي أنها حالة منتشرة في عائلة أبي إلا أن أمي لازالت تعتقد أن جدك له دخل بالأمر، حتى عندما انقطعت أخبار ابني "محمد" في العراق ألفت باللائمة على جدك.

-وهل هناك أي دليل على ذلك؟ هل ذكرت أنها رآته يفعل شيئاً غريباً مثلاً؟

-لا شيء، أنا شخصياً لا أصدق كلامها، ولكن ستي "كل" كانت دائماً في آخر أيامها تدعو لأبيك بأن يثبتته الله ويقويه، وكانت تقول أنه يتعرض لضغوط قوية ليمشي في سكة أبيه لكنه لازال يقاوم.

هذا كل ما أعرفه.

بدا على الإحباط، فكنت أتوقع أن تعطيني ما هو أكثر لأفهم ما يحدث فقلت: هل أستطيع إذاً أن أسأل جدتي "حميدة"؟، ربما كانت تعرف أكثر.

فخففت عمتي صوتها أكثر وقالت: حذار يا "حميد" أن تكلمها في هذا الأمر، ستغضب بشدة، هي لا تطيق سيرة جدك أبداً، كل ما أستطيع أن أنصحك به أن تبتعد، سافر بعيداً، كانت ستي "كل" كلما رأت أباك نصحته بالسفر، وهي من أوصى "محمد" و"عبدالله" أيضاً بالسفر.

هنا دخلت جدتي "حميدة" ومعها الشاي تفوح منه الرائحة العطرة.

إذاً لم يعد أمامي إلا عمتي زينب الكبيرة، أرجو أن يكون عندها الخبر اليقين الذي يفك حيرتي.

قضيت اليوم في بيت جدتي حميدة وقبل أن أنصرف سمعت جدتي تصرخ، عدت فوجدت عمتي زينب وقد أغرق الدم وجهها، كان الدم يتفجر من أنفها كأنه صنبور ماء، ضغطت جدتي حميدة على أنفها بقوة ورفعت رأسها لأعلى حتى توقف الدم.

قلت لها سأذهب لأحضر سيارة لننقلها إلى المستشفى.

قالت جديتي: لا داعي هذه ليست أول مرة، فهي تأخذ علاجًا يجعل الدم سائلاً من أجل عملية القلب التي أجرتها، وبين الحين والآخر ينزف أنفها ولكن هذه المرة تبدو أكثر.

فجأة تقيأت عمتي وبدأ الدم يخرج من فمها، فجريت إلى الخارج لأحضر سيارة.

في المستشفى أخذ الطبيب يحشو أنفها بالشاش حتى توقف الدم وطلب أن يتم نقل دم لها فتبرعتُ بدمي.

بعدما تحسنت حالتها أخذ الطبيب يسألها عن الدواء الذي تأخذه وسبب أخذها له ولما سمع قصتها وعرف أنها أجرت عملية بالقلب وأنها تأخذ جرعة دواء السيولة بانتظام قال إن السبب هو الأدوية التي أخذتها لعلاج الحمى هي السبب فيما حدث لأنها زودت مفعول دواء السيولة.

لم أفهم ما يقول ولكن المهم أنه قال أنها لابد أن تذهب إلى المستشفى الجامعي بالمنصورة بعد انتهاء نقل الدم.

كان السائق الذي أوصلنا عاد إلى العزبة كما أوصيته وأخبر أبي، الذي جاء إلى المستشفى وذهب معنا إلى المنصورة.

في المنصورة دخل أبي وجدتي حميدة معها ورفض الأمن دخولي فظللت أنتظر أمام البوابة تأكلني الأفكار.

هل ماحداث فعلاً صدفه.

هي مريضه منذ شهر.

جدتي "حميدة" تقول أنها نزفت من قبل أكثر من مرة.

خرج أبي وحده بعد ساعتين وقال أنهم حجزوها لاستكمال الفحوصات
وستظل جدتي حميدة معها.

فقلت له: هل سنتركها؟

فقال: ليس لدينا ما نفعله، غداً نأتيها في موعد الزيارة.

ركبنا سيارة أجرة لتوصلنا إلى المركز ومنه سيارة أخرى حتى القرية.

كان أبي صامتاً طوال الطريق، فقلت له: ماذا قال الأطباء؟ هل ستكون
بخير؟

-هم قالوا أنهم سيقومون بعمل فحوصات وأشعات لها بعدها سيحددون
حالتها، ولكن إن شاء الله ستكون بخير، فقط ادعُ لها.

في اليوم التالي ذهبت في موعد الزيارة. كان أبي في المنصورة مع
"محمد" من الصباح وقال إنه سيقابلني في المستشفى عند عمتي "زينب".

المستشفى الجامعي أكبر من عزبتنا بل أكبر من قريتنا نفسها.

ساعة كاملة وأنا تائه في المستشفى حتى وصلت لمكان عمتي، كان أبي هناك بالفعل، وكان "محمد" يجلس في حجر جدتي "حميدة" وهي تداعبه.

بدت عمتي "زينب" أفضل حالاً.

جاءنا "عمر"، كان يرتدي المعطف الأبيض لم أتمالك نفسي من الضحك عندما رأيته.

كان لازال طالباً في كلية الطب، وقف يتحدث مع الأطباء باللغة الإنجليزية ثم جاء ليخبرنا بالأمر: لقد قامت بتركيب صمام معدني في القلب من قبل، هذا الصمام حدث حوله التهاب هو المسئول عن الحمى التي كانت تصيبها، سيضطر الأطباء لإجراء عملية أخرى لتغيير الصمام ولكنها ستظل فترة قبل العملية في المستشفى حتى يقل الالتهاب.

اصفر وجه جدتي "حميدة".

بينما كل ما قالتة عمتي "زينب": الحمد لله، شكراً لك يا دكتور "عمر".

ركبنا القطار في طريق العودة، كان القطار مزدحماً للغاية، بالكاد وجدنا مكاناً نقف فيه، إحدى السيدات أخذت "محمد" ليجلس بجانب ابنها وبقيت أنا وأبي واقفين نحاول أن نجد ما نتشبث به بينما القطار يخضنا خضاً. خليط من طلبية الجامعة والعمال والمرضى الذين يراجعون المستشفيات في المنصورة

والموظفين والمتسولين بالإضافة إلى الباعة الجائلين الذين يشقون الزحام شقاً حاملين بضاعتهم.

صوت القطار المرتفع ذو الإيقاع الرتيب يختلط مع مزيج من بكاء الأطفال ومزاح الشباب ونداء الباعة الجائلين وثرثرة الفتيات.

القطار يقف كل خمس دقائق، ما أن يتحرك وتبدأ سرعته في الزيادة تدريجياً حتى يبطيء مرة أخرى استعداداً للتوقف في المحطة التالية.

بعد عدة محطات بدأ الزحام يخف قليلاً، نظرت إلى "محمد" فوجدته قد غلبه النعاس على مقعده، كان أبي واقفاً بجواري شاردًا ببصره خارج النافذة المكسورة حيث الأشجار وأعمدة الكهرباء تطارد بعضها في سرعة.

-أبي، ماذا قال الأطباء عن "محمد"؟

-قالوا أنه مصاب بمرض وراثي أدى إلى أصابته بفشل كلوي.

-ماذا؟ وكيف يكون مرضاً وراثياً وأنت وخالتي "سامية" سليمان؟

-لا أدري، الأطباء يقولون أنه ربما ورثه عن جده لأمه حيث أنه توفي في سن صغيرة ولم يعرف أحد وقتها سبب وفاته.

-وهل هذا سبب ضعف سمعه؟

-أجل يقولون أنه نفس المرض يؤثر على الكلى والسمع.

وماذا بعد؟ هل له علاج؟

*للأسف ليس له علاج إلا زراعة الكلى.

زراعة كلى؟! وكيف تكون زراعة الكلى هذه؟

مافهمته من الأطباء أن الأمر يحتاج إلى متبرع، يقومون بأخذ إحدى كليتيه عن طريق عملية جراحية ثم يضعونها في جسد "محمد".

نظرت إلى "محمد" الذي يغط في النوم ويبدو عليه الإعياء والتعب، كان يجلس بجوار ولد في مثل سنه، ودون وعي مني قارنت بينهما، كان "محمد" يبدو أصغر من سنه كثيرًا ببنيته الضعيفة وجسده الهزيل، وكانت بشرته سمراء يشوبها الصفار.

حسنًا، أنا مستعد أن أتبرع له بكليتي.

ابتسم أبي ابتسامة حزينة وقال: ليس الأمر بهذه البساطة يا "عبد الحميد"، ليست أي كلية تصلح للزراعة لأي شخص، لابد من عمل تحاليل معقدة حتى يتأكدوا أنها مناسبة، عمومًا هم قالوا أنهم سيأخذون عينات من دمنا لاحقًا ليعرفوا إن كان هناك من يمكنه التبرع له، لكن هذا يحتاج لوقت طويل وحتى ذلك الوقت سيحتاج إلى عمل غسيل كلى.

وما هو غسيل الكلى؟

-على مافهمت هو جهاز يسحب دم المريض لينقيه ثم يعيده مرة أخرى، ويحتاج المريض تقريباً إلى جلسة مدتها أربعة ساعات ثلاث مرات أسبوعياً.

نظرت إلى الفتى المسكين متصوراً ما يقوله أبي ثم قلت: ومتى سيبدأ هذا الغسيل.

-غداً أبدأ في تقديم أوراقه إلى التأمين الصحي حتى نصدر قرار له لتكون جلسات الغسيل على حساب التأمين الصحي لأنها مكلفة جداً وبعد يومين عندنا موعد عملية جراحية في ذراعه حتى يستطيع الغسيل.

تململ "محمد" في جلسته وتحسس صدره بيده كأنه يتنفس بصعوبة، لم أنظر لوجه أبي ولكني رأيت دموعه تسقط على أرضية القطار المتربة.

ظهرت النتيجة.

وحزن أبي كثيراً عندما علم برسوبي-هو لم يعرف أنني لم أحضر الامتحانات- وحزن أكثر عندما قلت له أنني لا أريد استكمال دراستي في المعهد.

لم أكن أريد أن أزيد أحزانه ولكن ما باليد حيلة.

كنت أعجب كيف يقف أبي على قدميه ويبدو بحالٍ جيدة تحت هذه الظروف.

معظم الأيام هو في المنصورة إما بصحبة "محمد" وإما لزيارة عمتي "زينب أم جمعة" أو مراجعة طبيب العيون مع "أمل" أو لإنهاء أوراق "محمد" في التأمين الصحي.

يعود ليجد أن "عصام" في البيت في جلسة لمحاولة إقناع عمتي "زينب عبد الحميد" بالعودة معه.

أو يجد جدي "عبد الحميد" قد تشاجر مع عمي "عبد الله" أو عمي "عبد القادر" وعاد ليجلس في غرفته صامتًا.

أو يجد عمي "حافظ" وعمي "فتحي" ليدخلا معه في جدال حول الميراث وأرض رجع الجنيّة وخلافه.

ثم يمر أبي على عمي "طه" ليرى أوضاع الأرض والدوار.

ولازال أبي يبدو متماسكًا.

حتى ذهبت مبكرًا لصلاة الفجر في مسجد عزبة "فرنسا".

كنت أهرب من النوم.

دخلت المسجد الفارغ.

فسمعت الصوت أولاً.

ثم رأيت أبي ساجدًا في ركن المسجد.

ويبكي بصوت عالٍ.

ويتضرع إلى الله.

ويطلب منه أن يثبته لأنه لم يعد يتحمل ويخاف أن يضعف وينهار.

تسللت خارجًا في هدوء حتى لا يراني.

"استطيع أن أحل لك كل هذا، فقط اتبعني."

سطع الضوء الأصفر في وجهي مع صوت لهاث الذئب

”الثالثة ”

”عزبة الجناينة لا تقع خارج التاريخ كما يقولون، بل هي أقرب ما يكون لمركز التاريخ ذاته، وبما أن التاريخ يدور في دوائر متحدة المركز، فكلما اقتربنا من المركز صارت دورة التاريخ أصغر، بالتالي فالتاريخ الذي يعيد نفسه في العالم في قرون كما لاحظ المؤرخون، يعيد نفسه هنا في سنوات قليلة لأن العزبة تقع في أقرب ما يكون من مركز التاريخ، هل فهمت؟ لا تنظر لي فاغراً فمك هكذا في غباء، فأنت بالذات يا عبد الحميد أكبر مثال على أن التاريخ يعيد نفسه، فحياتك هي تكرار فقط لحياة أبيك وجدك، حتى اسمك: عبد الحميد سالم عبد الحميد سالم وطبعاً ستتزوج مرتين وستسمي ابنك الأكبر سالمًا”

ماجد ابن عمتي زينب الكبيرة

عاد ”عمر“.

توأم روحي وأخي وعمي.

فكرت كثيرًا أن أحكي لعمر كل شيء ولكنني في النهاية كنت أعدل عن الفكرة.

لست أدري لماذا، ربما لأن "عمر" كان دائمًا عمليًا ولا يؤمن بهذه الأشياء، ربما خفت أن يعتقد أنني جنت، ربما خفت عليه.

عرض على عمر أن نذهب لزيارة "ماجد" ابن عمتي "زينب" الكبيرة فرحبت، حيث كنت أود زيارة أمه على أي حال.

بعد وفاة والده تغير "ماجد" كثيرًا، هو من صغره كان مولعًا بالقراءة وكان دائمًا ما يحكي لنا عما قرأه من روايات خيالية عن الجن والأشباح والكواكب والفضاء. توفي أبوه وهو في المرحلة الثانوية، بعدها تغير "ماجد" كثيرًا، كان يعيش مع أمه وحيدًا حيث أن إخوته الكبار تزوجوا ويعيشون مع عائلاتهم خارج القرية، ورث مكتبة أبيه وكانت مليئة بالكتب القديمة التي اصفر ورقها، زوج عمتي "زينب" كان مهندسًا زراعيًا في وزارة الري، كان كثير القراءة وكان يتبع جماعة صوفية ودائم التنقل لزيارة سيدنا الحسين والسيدة زينب.

انغمس "ماجد" أكثر وأكثر في القراءة بعد وفاة أبيه، دخل كلية الإعلام رغم عدم موافقة أمه وخاله المهندس "إبراهيم".

كنت لا أفهم معظم كلام "ماجد" ولكني لم أكن استفسر منه عن معنى ما يقول حتى لا أتعرض لسخريته اللاذعة، ولكنه كان يعرف أنني لم أفهم ويسخر مني.

ودائمًا ما كانت هناك نقاشات وجدال بينه وبين "عمر".

في ذلك اليوم احتدم النقاش بينهما:

يا "عمر"، لا تحكم على الأمر بقوانينك العلمية، أنت تعرف جيدًا أن العزبة ليست عزبة عادية وأن هناك شيئًا غير طبيعي.

-هذا طلب غريب يا "ماجد"، ماذا تعني ألا أحكم على الأمر بالقوانين العلمية، بم أحكم إذا؟ بكتبك الصفراء وتخاريف العفاريت والجن.

-أنا لا أمزح يا "عمر"، ليس معنى أن هناك شيئًا يخالف قوانيننا الحالية أنه غير حقيقي، هو فقط يخالف القوانين الحالية لأن علمنا لم يصل إليه بالتالي لم توضع له القوانين المناسبة. عندما سمع الناس قديمًا أن الأرض كروية وأنها تدور حول الشمس رفضوا الفكرة لأنها كانت تخالف العلم والقوانين وقتذاك، والآن صارت هذه بديهيات.

-هل تعني أن العلم مستقبلاً سيضع قوانين للسحر والشعوذة ولتفسير كل شيء غريب على أنه شيء خارق للطبيعة بدلاً من محاولة تفسيره تفسيرًا علميًا منطقيًا.

لم أقصد هذا طبعًا، لابد أن نحاول أن نجد تفسيرًا علميًا لكل شيء، مع الوضع في الاعتبار أن هذا لن يكون ممكنًا في بعض الأحيان إما لقصور علمنا أو لأن الأمر لا تنطبق عليه قوانيننا، السحر كان قديمًا علمًا معروفًا، والجن والشياطين مذكورون في القرآن، وتحضير الأرواح والاستعانة بالجن أمرواق رغم أن قواعده وقوانينه ليست واضحة.

-أنا لا أعترض على كل هذا ولكن ما علاقته بعزبتنا التي هي مجرد عربة هادئة، فقط أهلها واسعو الخيال ويؤمنون بحكايات وأساطير لا أساس لها.

-عربة عادية؟! ماذا عن تفشي الأمراض في العربة؟ أنت طبيب، فهل من المنطقي كمية الأمراض في العربة؟ أبناء "عوضين" لا يستطيعون المشي بطريقة عادية، أبناء "سالم أبي العوضي" أذرعهم وأرجلهم قصيرة مقارنة بأجسامهم، بنت "عبد اللاه أبي سعد" عندها تأخر عقلي ولامحها تشبه الصينيين، عيوب خلقية كثيرة في القلب، سرعة النزف المنتشرة في عائلة "عبد المقصود"، أبناء "السيد أبي جاد" يحتاجون لنقل دم كل فترة بينما ابن "سليمان أبي طه" يحتاج للتبرع بالدم كل عدة أشهر.

ما شاء الله، يبدو أنك تملك السجل الطبي الكامل للعربة. أيها الرجل المثقف المتعلم هناك آفة في عزبتنا وهي زواج الأقارب وهي ما يساعد على انتشار الأمراض الوراثية بهذا الشكل، وكل ما حكيت عنه هي أمراض وراثية أثبت العلم طريقة انتقالها من جيل لآخر بالتالي ليس الأمر معضلة علمية ولا تحتاج لتفسير خوارقي لسبب انتشار مجموعة من الأمراض التي ثبت علميًا أنها

وراثية بين مجموعة من الناس يتزوج الرجل منهم من ابنة عمه التي هي أيضاً ابنة خالته وغير مسموح بالزواج من خارج العائلة.

يا "عمر" زواج الأقارب ليس حكرًا على عزبتنا، هي آفة في كل المجتمعات الصغيرة، وهذا يسري على كل العزب المجاورة ولكننا لا نجد فيها هذه النسبة المرتفعة من الأمراض، وماذا عن حوادث الاختفاء، الوفيات الغامضة؟ ماذا عن الأصوات الغريبة التي تصدر من الجنيّة والحكايات التي تدور حولها؟

-هذه أمور أخذت أكبر من حجمها، يتشاجر رجل مع أبيه وإخوته فيهجر العزبة، أو يذهب للعمل في العراق فيموت في الحرب أو لا يستطيع العودة فتطلق الأساطير عن الغائبين وحوادث الاختفاء، هذا بالإضافة لما نشره الزواينة من أساطير بغرض تخويف الناس منهم وحمايةً لأملأهم.

تركتهما يتجادلان كعادتهما وذهبت لأجلس مع عمتي "زينب" الكبيرة.

استقبلتني عمتي بترحاب كبير.

"كل هذه الفترة ولم تفكر أن تزور عمك."

"سمعت أنك رسبت هذا العام، ألن تفلح في شيء أبدًا، العام الماضي عندما قالوا لي عبد الحميد نجح بتفوق لم أصدق، وبدأت أقلق عليك، ولكن الآن اطمأن قلبي أنك بخير."

"إياك أن تغضب أنا أمزح معك."

انتظرت حتى تنتهي من كلامها المعتاد أنها أول من تنبأ بفشلي، ثم قلت لها: عمتي، أريد أن أسألك عن شيء.

حكيت لها ما قالته لي ستي "كل" في المنام، وأني لم أجد ما أريد عند عمتي "زينب أم عبد الحميد" ولا "زينب أم جمعة".

بدت الجدية على وجهها فجأة وصمتت قليلاً ثم قالت: هذا كلام لا يحب أحد أن يتكلم عنه في العزبة.

بدت مترددة بعض الشيء ثم أكملت: لا أدري كيف بدأ الأمر ولكن يبدو أن هذه الأرض بها شيء شرير من زمان بعيد، ويبدو أن جدي "علي" اكتشف في أرضه شيئاً ولذلك كان متمسكاً بها للغاية، ولكن الزواينة صمموا أن يضموها للجنيّة. ما سمعته أن أبي وصديقه محمد الرفاعي وجدا شيئاً في تلك الأرض، لا أدري ماذا وجدا ولا ما فعلوه به بالضبط ولكن يبدو أنه شيءٌ خطيرٌ، لا أعرف كيف أقنع أبي الزواينة أن يعيدوا له الأرض، أعتقد أن أبي و"محمدًا الرفاعي" كانا يعتقدان أن الأمر بسيطاً وتحت سيطرتهم ولكن شيئاً حدث وتغير بعده كل شيء، بدأت سلسلة حوادث واختفاءات في العزبة، فجأة قرر محمد الرفاعي أن يبيع بيته وأخذ زوجته وأبناءه وهجر العزبة تماماً.

أنت تعرف أن زوجي رحمه الله لم يكن من أهل العزبة، فلما تقدم لخطبتي رفضه الجميع، ولكني أقنعت أبي- وكان يحبني جداً ولا يرفض لي طلباً- أن يوافق، ولقد وافق أبي بشرط أن نقيم بالعزبة ولكن زوجي رفض أن نعيش في العزبة وبنى هذا البيت خارج العزبة كحل وسط لكي أكون قريبة من أبي

وإخوتي، كان يقول أن العزبة بها شيء شرير، وأنه يرى في أحلامه الكثير من الأشياء الشريرة التي تحدث في العزبة وكان يؤمن أن ما يراه في أحلامه كانت حقائق. قال لي قبل أن يموت أنه قد قام بتحسيني أنا والأولاد جميعًا وأنه أيًا كان الشر الذي في العزبة فإنه غير قادر على إيذائنا.

كان رحمه الله واسع العلم في هذه الأمور وكان ينصح أباك دائمًا أن يسافر ولكنه كان يرفض، وكان يقول لي كلما رأيته " هذا الفتى لابد أن يغادر العزبة ولا يبقى مثلما فعل أبوه".

لذلك كنت دائمًا أحاول أن أقول لك أنك ستكون فاشلاً مثل أبيك كي أحملك أن تختار طريقًا غير طريقه.

ـ وهل أبي متورط في هذا الأمر أيضًا يا عمتي؟

حقًا لست أدري يا عبد الحميد. ولكن زوجي رحمه الله كان دائمًا يقول أنه مادام هناك من لازال يقاوم الشر فإن السفينة ستسير، فإن توقف الجميع عن المقاومة حينها ستغرق. وكان يقول أن أباك من المقاومين ولكن إلى متى؟

ذهبت مع "محمد" وخالتي "سامية" إلى المنصورة في موعد جلسة الغسيل الكلوي، لم يستطع أبي الذهاب معهما لأن عمتي "زينب أم جمعة" قد أجرت العملية في اليوم السابق وتدهورت حالتها وهي حاليًا في العناية المركزة فكان عليه الذهاب مع جدتي "حميدة" لزيارتها.

دخلت مركز الغسيل، هالني منظر المرضى، مستلقين على الأسرة وتخرج من أذرعهم أنابيب تنقل الدم لجهاز ضخ بجوار كل سرير، أشحت بوجهي عن منظر الدم في الأنابيب بسرعة وساعدت "محمد" أن يستلقي على سريريه وأنا أحاول طرد فكرة أنهم سيسحبون دمه الآن.

"من هذا الفتى الوسيم الذي جاء معك يا "سامية"، هل تخلصت من "سالم" أخيراً؟"

احمرّ وجهي وأنا التفت للمرضة التي وقفت تمزح مع خالتي "سامية".

ردت عليها خالتي سامية: إنه "عبد الحميد" أخو "محمد" الكبير يا "مها".

ما شاء الله، لم أعرف أن لك ابناً وسيماً بالغاً، يبدو أنني سأناديك بعد ذلك حماتي.

لاحظت خالتي "سامية" ارتباكها واحمرار أذني فربتت على كتفي وقالت: لا تشغل بالك بمها يا "عبد الحميد"، هي لا تتوقف عن المزاح والمشاكسة.

ثم التفتت لها وقالت: هو ليس ابني يا طويلة اللسان هو أخو "محمد" غير الشقيق.

حسناً، هكذا اتضحت الأمور، فمن أين ستكون له هذه الوسامة بينما أنت و"سالم" لا تؤاخذيني..

ضربتها خالتي "سامية" على كتفها وقالت: هلا توقفتِ عن المزاح وبدأت الجلسة، لقد قال الطبيب في المرة السابقة أنه سيركب له الإبرة من ذراعه هذه المرة بدل القسطرة التي في ساقه.

نادت "مها" على الطبيب الذي جاء وأخذ يفحص ذراع محمد ثم وضع سماعته على ذراع "محمد".

هل يسخر منا هذا الطبيب الشاب، لم أر طبيباً من قبل يضع السماعة على ذراع المريض.

"للأسف، لن نستطيع تركيب الإبرة في ذراعه هذه الجلسة سنضطر إلى تركيب قسطرة في الفخذ مرة أخرى"

هنا انفجر "محمد" باكياً وحاول أن يقوم من السرير وهو يقول أنه لا يريد القسطرة لأنها مؤلمة جداً، أخذت خالتي سامية تهدنه وأخذ الطبيب يؤكد له أنه سيعطيه مخدراً موضعياً حتى لا يشعر بالألم.

في النهاية هذا "محمد" وطلب مني الطبيب أن أمسك يديه جيداً كي لا يتحرك فيؤذي نفسه وطلب من خالتي سامية أن تخرج خارج الغرفة.

أخذت مها تعقم أعلى فخذ الفتى المسكين حيث لاحظت بقعة زرقاء كبيرة من أثر الجلسة الماضية، أحضر الطبيب إبرة طويلة وغرسها في أعلى فخذ محمد، بدأ يبكي وأنا أمسك بيديه، تدفق الدم من الإبرة، شعرت بغثيان شديد وأدبرت وجهي بعيداً، ناولت مها الطبيب سلماً طويلاً، فنظرت إلى ما يفعله فوجدته يدخله داخل الأبرة ثم...

لم أشعر بشيء بعدها إلا بصوت مها تقول ضاحكة " المرة القادمة يا سامية ذكريني أن أضع مرتبة على الأرض حتى لا يؤدي هذا الفتى الشجاع نفسه."

فتحت عيني فوجدتني مستلقياً على الأرض والطبيب يضغط على حاجبي وجبهتي، جلست وأنا أشعر بالألم في رأسي ودوار وغثيان.

جلست على مقعد حتى بدأت أدرك ما حدث وسط عبارات مها الساخرة، كان "محمد" راقداً على سريره وأمه بجواره تربت على صدره وتمسح دموعه بينما الأنابيب تنقل دمه إلى الجهاز الذي يطن بجواره.

أستطيع

"أستطيع أن أنهى كل ذلك أستطيع أن أحل كل مشاكلك"

يسطع الضوء الأصفر في وجهي.

صوت لهاث الذئب.

تتتابع المشاهد أمامي.

"محمد" يتلو ألمًا ويبيكي.

"عبير" تشير لي أن أتوقف ولا أقرب منها.

الدم يتدفق من أنف عمتي زينب أم جمعة وجدتي حميدة تحاول إيقافه.

"أستطيع أن أعيد كل شيء لسابق عهده"

عمتي "زينب عبد الحميد" تجلس وحيدة في غرفتها ولا ترد.

جسد أبي يهتز من البكاء وهو ساجد يدعو الله أن يثبته.

جدي يجلس وحيداً واجماً بالساعات بعد خلافه مع إخوته.

"محمد" يرجوني باكياً ألا أدع الطبيب يدخل الإبرة الطويلة في جسمه.

"أستطيع"

(عمتك زينب أجرت العملية وتدهورت حالتها).

دموع أبي تتساقط على أرض القطار المتربة.

صوت والدة عبير (عبير مريضة يا عبد الحميد وقد أكد كل الأطباء أنها
يجب ألا تتزوج)

"أستطيع"

صرخت بقوة: أنت لا تستطيع فعل شيء، أنا لا أصدقك.

"أستطيع"

اتركني وشأني

"سأريك أنني أستطيع"

بعد جلسة طويلة مع عصام أخيرًا قررت عمتي زينب عبد الحميد أن تعود إلى بيتها، أكد لها عصام أنه فكر جيدًا وقرر أنه لا يريد أطفالا وأنه تحدث مع أبويه في هذا الشأن. دخلت عليها وهي تجمع أشياءها.

- أخيرًا اقتنعت. قلت لك من البداية أن عصام يحبك ولن يستطيع الاستغناء عنك أبدًا.

- ولكن كان لابد أن أعطيه فرصته ليفكر ويقرر، هذه حياته ومستقبله.

- ولكنه من اليوم الأول قال أنه نسي موضوع الأطفال ولم يعد يفكر فيه.

- هل تعتقد هذا؟

- هو قال ذلك وظل يلح عليك طوال هذه المدة ولم يهدأ حتى وافقت بالعودة.

- ربما، عمومًا سنجرب ونرى ماذا ستحمل لنا الأيام، المهم دعني أخمن لماذا جئت إلي.

- جئت فقط لأبارك لك عودتك إلى بيتك.

- فقط؟

- حسنًا، لازلت كما عهدتك يا عمتي تقرأين أفكاري دون أن أتكلم، كنت فقط أقترح أن تزوري عبير لتسلمي عليها قبل أن تعود ليبيتك.

ضحكت وقالت: لا تقلق لقد نويت ذلك بالفعل.

"أستطيع"

جاء أبي من المنصورة حاملاً أخباراً جيدة.

عمتي زينب أم جمعة تحسنت حالتها وخرجت من العناية المركزة وربما
تخرج من المستشفى بعد يومين.

ليس هذا فقط.

ظهرت نتائج التحاليل التي أجريناها في مركز الكلى وقالوا أن خالتي
سامية تستطيع أن تتبرع بإحدى كليتيها لمحمد حيث أن تحاليلها كانت مطابقة
له.

سيستغرق الأمر بعض الوقت ولكن على الأقل هناك أمل.

"أستطيع"

عادت عمتي زينب عبد الحميد من زيارة عبير بالخبر اليقين.

لقد جاء الخبر الألماني وسيتم عرضها عليه بعد يومين ويقال أنه جاء بعلاج جديد لمرضها.

"أستطيع"

استطاع عمي فتحي الوصول لحل وسط بين جدي عبد الحميد وبقية إخوته.

واتصل بالمهندس إبراهيم الذي أبدى موافقة مبدئية وقال إنه سيحضر إلى العزبة قريباً لتسوية الأمر قبل انتهاء إجازة عمي فتحي وعمي حافظ وسفرهما.

"أستطيع"

ذهبت لزيارة عمتي زينب عبد الحميد في بيتها.

استقبلني عصام بترحاب شديد.

كنت سعيدًا بعودة هذا البيت المثالي لسابق عهده.

ولكنني شعرت بأن هناك شيئًا ليس على مايرام.

كل شيء يبدو طبيعيًا ولكن...

المهم أخذت عمتي زينب تجادلني في موضوع الدراسة.

-أنت تعرفين أنني دخلت المعهد خصيصًا بحثًا عن فرصة لدخول كلية الهندسة وذلك من أجل عبير، والآن عبير دخلت كلية الآداب ومشروع ارتباطنا توقف بسبب ظروفها، ثم إنه مع رسوبي العام الماضي فلا فرصة لي للتقديم لكلية الهندسة.

حتى ولو ضاعت الفرصة، إذا بدأت طريقًا عليك أن تكمله، ثم إنها سنة واحدة فقط.

-وما الفائدة؟ هل هناك فرق بين حاصل على دبلوم الصنائع وحاصل على معهد فني صناعي، في الحالتين لا وظيفة ولا عمل.

-لكن هناك نقطة أخرى- كما فهمت من عصام- فإن الحاصل على مؤهل فوق المتوسط تكون خدمته العسكرية عام ونصف بينما للمؤهل المتوسط تكون عامين.

كالعادة استطاعت عمتي زينب عبد الحميد إقناعي.

"أستطيع"

أخذت أجري بين الأشجار داخل الجنية.

أسمع صوت لهاث الذئب السوداء.

الضوء الأصفر يسطع خلفي فيرسم لي ظلاً طويلاً على الأرض، تبدو ظلال أغصان الأشجار كأنما هي تتحرك محاولة الإمساك بظلي الذي يتقافز مسرعاً بينها.

"هل رأيت؟ أستطيع أن أحل كل شيء."

وصلت للسور فأخذت أجري بمحاذاته.

"كل شيء يمكن أن ينتهي إن أردت أنت ذلك."

صوت جدتي نعمت تصرخ من وراء السور: لا تصدقه يا عبد الحميد، هو يكذب عليك.

صوت علاء: لا تصدقه، لقد صدقه أبي وفعل كل ما طلبه ولكنه كان يخدعه.

شبت النار في السور وغطى صوتها على أصواتهم.

التفت خلفي فوجدت العينين الصفراوين تحدقان فيّ.

توقف الذئبان على بعد خطوات مني وكشرا عن أنيابهما.

صرخت "ماذا تريد مني؟"

-أريد أن أساعدك.

*أنا لا أحتاج مساعدتك.

-لا، أنت في أمس الحاجة إلى مساعدتي، ولقد رأيت بنفسك في الأيام الماضية أنني أستطيع أن أحل كل مشاكلك.

-إن كنت تستطيع حل مشاكلي لماذا لا تحلها، ما هو المقابل الذي تريده؟

-أنا لا أريد منك مقابلاً، وأنت لا تملك مقابلاً، فقط أريدك أن تثبت لي ولاءك وتقديرك لما أقوم به من أجلك.

-وكيف أثبت ذلك؟

حافظ.

-ماذا؟

-عمك حافظ، لابد أن يصمت تمامًا.

حينها سمعت صرخة جدتي نعمت من وراء السور.

واستيقظت.

صرت أهرب من النوم ليلاً.

أنام طوال النهار وأسهر ليلاً فوق سطح غرفتي مولياً ظهري للجنيّة.

إن أيقظني أبي صباحاً لأذهب مع محمد إلى المنصورة، أنام في القطار وسط دهشة الركاب من استغراقي في النوم وسط الضجيج واهتزاز عربات القطار الكفيل بإيقاظ الموتى. أو أنام على مقعد بجوار سرير محمد أثناء جلسة الغسيل متحملاً ضحكات الممرضة وسخريتها.

لا يعني ذلك أنني قد نجوت من الكوابيس، ولكن كوابيس النهار تكون أقل وضوحاً، فقط يتكرر الصوت في أذني (عمك حافظ، لابد أن يصمت تمامًا)، ثم صرخة جدتي نعمت.

ترى ماذا يقصد بـ (يصمت تمامًا)؟

اقشعرّ جسدي وأنا أحاول أن أفسرها.

ترى ماذا فعل عمي حافظ حتى يغضب منه ذلك الشيء؟ وما علاقته به؟

هل يظهر له في أحلامه مثلي أم أن هناك شيئاً آخر؟

والسؤال المهم ما دخلي أنا بالأمر؟

إن كان يرى أن عمي حافظ لابد أن يصمت فما دخلي أنا؟

لماذا يخبرني بذلك؟

هل يريد مني أن أوصل الرسالة له؟

اقشعرّ جسدي وأنا أتخيل المعنى الذي أحاول الهروب منه، هل هذا معقول؟

هل يريد مني أن أقتله؟

لا، لا، لابد أنني أهول الأمر، فهو ليس بهذا الغباء، هو يعرف بالتأكيد أنني لا أستطيع قتل قطّة، ثم إن عمي حافظ بمثابة والدي، وله معزة خاصة جداً في قلبي.

بالتأكيد الأمر ليس كذلك، ولكن ماذا سيريّد كائن بهذا الشر مني إن لم يكن شيئاً شريراً.

وإلى متى سأظل أهرب؟

عمي "السعيد أبو سعد".

والد "علاء" رحمه الله.

وجدته جالسًا أمام بيته سارحًا ببصره في سور الجنينة.

نفس جلسة أبيه.

نفس البساط.

نفس العصا.

الفرق أن عمي السعيد لا يطلق سبابه على أطفال العزبة المزعجين مثلما كان يفعل معنا أبوه الراحل.

فعمي السعيد قد أصابه المرض بعد وفاة علاء وظل في فراشه مدة طويلة، بعدها بدأ يتحرك بصعوبة، إحدى ساقيه يجرها جرًا وإحدى ذراعيه دائمًا مثنية على صدره بوضع غريب، والأدهى من ذلك أنه أصبح لا يتكلم.

يقول أهل العزبة أنه قد جُنَّ حزناً على وفاة ابنه، بينما بعض نساء العزبة

يعتقدن أن جنًا قد لبسه.

عمر يؤكد أن حالته مطابقة تمامًا لأعراض الأصابة بجلطة في المخ.

جلستُ بجواره.

"كيف حالك يا عمي السعيد."

لم يرد ولم يبد عليه أنه سمعني أصلاً.

"لقد رأيت علاء في المنام."

بدأت عيناه تتحركان وارتعشت زاوية فمه.

"هناك شيء شرير يعيش في الجنية يزورني في منامي، أنت تعرف هذا

الشيء يا عمي، أليس كذلك؟"

عقد حاجبيه في غضب دون أن يلتفت إليّ.

"حسنًا هذا الشيء يقول أنه هو المتسبب في المصائب التي تصيب كل

من حولي وأنه يستطيع أن يرفع الضرر عنهم ولكن مقابل ذلك يطلب مني أن

أطيعه."

ازدادت ملامحه غضبًا.

"هو يطلب مني أشياء شريرة، ما رأيك يا عمي هل أصدقه؟"

بدأ يهز رأسه نفياً ببطء.

"ماذا أفعل إذا؟ كيف أتخلص منه، إنه يلاحقني يوميًا."

رفع عينيه إلى السماء وأشار بإصبعه لأعلى.

" ولكن هل هو فعلاً يملك القدرة على شفاء المرضى ورفع الضرر كما يقول؟ "

هز رأسه بعنف نافياً.

"لقد جنّتك لأن علاء حذرني منه، وذكر لي أنه وعدك بشفائه ولم يوفِ بوعد، هل نفذت له ما طلبه حقاً يا عمي ومع ذلك لم..."

أخذ يزمجر في غضب، وظهر الزبد من بين شفتيه، اتكأ على عصاه ووقف ثم أخذ يجر رجله نحو التربة.

حاولت تهدئته ومنعه من التقدم فضربني بالعصا على رأسي وأخذ يصرخ بحروف غير مفهومة.

نزل التربة بجلبابه واتكأ على عصاه ثم صعد على الجسر المقابل وسط أشجار الجازورين وأخذ ينهال بعصاه ضرباً على سور الجنيّة وهو يصرخ بصوت عالٍ.

تجمع أهل العربة وقفز اثنين منهم ورائه وأعادوه وأدخلوه بيته.

وسط نظرات الاتهام من الجميع قلت مفسراً ماحدث " لقد كنت فقط أسأله عن صحته وأحواله ولكن فجأة..."

انصرفت دون أن أكمل كلامي، ماذا أقول لهم، تابعتني العيون في غضب
بينما مازال صوت صراخ عمي السعيد يصل إليّ من داخل بيته.

بعد يومين وجدوا عمي السعيد ميتًا في فراشه.

ترى ماذا طلب منه راعي الذئاب؟

وهل نفذه؟

وبم وعده؟ شفاء علاء؟

عمك حافظ.

لا بد أن يصمت للأبد.

عادت الخلافات من جديد بين جدي عبد الحميد وإخوته.

بعدما كاد عمي فتحي أن يحقق المعجزة ويصل إلى اتفاق يرضي جميع
الأطراف ألقى عمي حافظ بقتلته.

كانت تربط عمي حافظ علاقة صداقة بابن نائب دائرتنا في مجلس الشعب وعن طريقه عرف أن طريقاً جديدة سيتم إنشاؤها على شاطئ البحر الجديد بجوار أرض " رجع الجنينة " وبالتالي سيزيد سعرها أضعافاً.

هنا انهار الاتفاق الذي أعده عمي فتحي، وبدأت الاتهامات بينهم أن جدي وعمي فتحي كانا يعرفان بأمر الطريق الجديدة.

كان عمي حافظ أصغر إخوته ولأنه لم يتزوج فكان دائم التنقل بين بيوت إخوته، نادراً ما تجده في غرفته في بيت جدي سالم.

تجده يتناول الإفطار في بيت عمي عبد الله ويتغذى في بيت جدي عبد الحميد، يشاهد مباراة في التلفاز في بيت عمتي زينب الكبيرة، ويتعشى مع أبي ثم يبات ليلته عندي في غرفتي، يخفي عدة أيام لنكتشف أنه كان عند المهندس إبراهيم في مصر أو عند أخته عمتي سعاد في المنصورة أو حتى عند عمتي زينب عبد الحميد وربما في عزبة المنة وثمانين عند عمي حسن الساكت.

هو نفسه لم يكن يعرف أين سيكون غداً أو حتى أين سيبيت ليلته.

كان خفيف الظل، دائم المزاح محبوباً من الجميع.

بعد حصوله على ليسانس الحقوق سافر إلى السعودية، ولكنه لم يستقر في عمل هناك وظل ينتقل من عمل لآخر.

فجر الخبر الذي نقله عن صديقه الوضع داخل العائلة، فبينما لازال جدي عبد الحميد يصر على عدم التفريط في أرض أبيه، حمل عمي حافظ عرضاً من

عضو المجلس لشراء الأرض بسعر مرتفع لأنه يخطط لبناء محطة بنزين بها، ويرى عمي حافظ أنها فرصة رائعة، بينما عمي فتحي يعتقد أن هذا السعر قابل للزيادة لو انتظروا لحين البدء في إنشاء الطريق. المهندس إبراهيم كان رأيه أن تستفيد العائلة من الأرض ويقومون بتنفيذ المشروع بأنفسهم وأنه يستطيع الحصول على توكيل إطارات سيارات مع محطة البنزين.

اختلفت آراء باقي العائلة ولكنهم انصاعوا كالعادة لرأي المهندس إبراهيم. وبدا جدي عبد الحميد كمن يخوض معركة خاسرة لا محالة.

بعدما بدأت الكفة تميل نحو رأي المهندس إبراهيم، نقل عمي حافظ رسالة أخرى من عضو المجلس، مخطط الطريق يحتوي أيضاً على مخطط لأبراج الضغط العالي، ومن ضمن المخطط هناك برج للضغط العالي سيتم إنشاؤه في أرض رجع الجنينة وبالتالي لن تصلح بعد ذلك لإنشاء أي مشاريع وسيتدنى سعرها حتى عن الأراضي الزراعية الأخرى نظراً لوجود البرج، العرض هنا أن يشتري هو الأرض بالسعر الذي حدده هو دون زيادة وسيستطيع هو بنفوقه وعلاقاته أن يغير المخطط وينقل البرج إلى أرض أخرى وأن يحصل على موافقة وزارتي الري والزراعة وهيئة الطرق وهي الإجراءات التي لن يستطيع غيره القيام بها.

انقلب الأمر رأساً على عقب، سقط الخبر على المهندس إبراهيم كالصاعقة، وانهارت أحلام العائلة.

ذهب المهندس إبراهيم بنفسه ليتأكد من الخبر، واستطاع عن طريق أحد أصدقائه في وزارة الكهرباء التأكد من الخبر.

بدأت الكفة تميل نحو رأي عمي حافظ، بينما ثار جدي عبد الحميد وقال أنهم يعيدون الماضي ويتنازلون عن أرضهم ويستجيبون لتهديد وابتزاز عضو المجلس الذي يعيد ما فعله حسن أبو زينة مع جدهم وأنهم بهذا يهدرون كل ما كافح من أجله أبوهم لاستعادة الأرض.

ورغم أن العرض صار مغلفاً بالتهديد وصار المكسب منه مخلوطاً بالمذلة إلا أن الكفة كانت تميل نحو قبوله.

سطع الضوء الأصفر في وجهي.

"الوقت يمر، لا تحاول الهرب."

الأشجار تتدافع من حولي.

كلما جريت في اتجاه وجدت العينين أمامي.

"ما أريده سيتحقق سواء بك أو بغيرك.

فإن تحقق بك.

فطوبى لك ولأحبائك.

وإن تحقق بغيرك.

فويلٌ لك ولأحبائك.

ما أريده سيتحقق لا محالة.

ما أريده سيكون.

سيكون."

ستبدأ الدراسة الأسبوع القادم ولقد وعدت أبي أن أنجح هذا العام، بدأت الاستعداد للذهاب إلى بورسعيد.

على الأقل سأكون بعيداً عن العزبة.

على أمل أن تختفي الكوابيس والمطارادات أو حتى تقل.

كانت الأمور تسوء بين جدي وإخوته، وبدأت المشاجرات تتكرر بشكل يومي.

سيسافر عمي حافظ وعمي فتحي بعد يومين ولم يتم الاتفاق بعد. جعلهما المهندس إبراهيم يقومان بعمل توكيل له لإنهاء الأوراق في حال لم تنته

المفاوضات قبل سفرهما. زادت الخلافات مع اتهامات متبادلة بين الجميع وصار الجو متوترًا بشدة.

علمت من عمتي زينب عبد الحميد أن عبير ستسافر غدًا إلى القاهرة ليتم عرضها على الخبير الألماني، لم أرها مطلقًا طوال الأجازة ولكني كنت أجلس مختبئًا في الجنية في مقابل بيتها حتى أشعر فقط أنها قريبة. غدًا لن تكون قريبة.

هل سيستطيع ذلك الطبيب علاجها فعلاً؟ هل تنتهي متاعبها؟ هل سنتمكن من الارتباط؟

تسللت بعد العصر إلى الجنية واختبأت في مقابل بيتها كالمعتاد وجلست تأكلني الأفكار.

اقتربت الشمس من المغيب ولكني قررت أن أنتظر قليلًا لأنه اليوم الأخير. وعندما ذهبت عند الفتحة للخروج من السور كانت المفاجأة، كان ذنبًا أسود يدخل منها.

أخذت أجري داخل الجنية مبتعدًا ثم اختبأت خلف شجرة وأخذت أبحث عن الذنب.

لا أثر له.

هل كان يطاردني؟ أم أنني جئت فقط في الموعد الخطأ وقت عبوره الفتحة.

قررت أن أنتظر قليلاً قبل أن أعود للفتحة.

كانت الشمس قد غربت بالفعل وانتشر الظلام ليملاء الفراغات بين الأشجار، أخذت أتلفت حولي حتى أعرف أين أنا بالضبط، لا شيء مميز، شجيرات البرتقال واليوسفي المتشابهة.

فجأة سمعت صوت دقات.

تتبعت الصوت وبدأت أقترُب ببطء وحذر، دقات متتابة، لما اقتربت أكثر صار الصوت أكثر وضوحاً كأنما أحدهم يضرب الأرض بفأس.

زحفت على الأرض واقتربت في حذر، فرأيت وسط الشجيرات ظل رجل يحمل فأساً ويضرب الأرض بقوة ليصنع حفرة كبيرة.

لم أميز ملامحه فبالإضافة للظلام كان يلف وجهه بتلفيعة. توقف الرجل فجأة وأخذ يبكي.

هل أصابه الجنون؟

ولماذا يصنع هذه الحفرة؟

جاءتني الإجابة فوراً حينما توجه المثلث نحو كومة على الأرض لم
ألاحظها من قبل، ثم حملها بين ذراعيه وتوجه نحو الحفرة.

لمحت قدمين تخرجان من الكومة التي يحملها الرجل، كادت تخرج مني
صرخة عندما عرفت كنه الكومة وسبب الحفرة فعضضت على ذراعي بقوة حتى
لا تخرج الصرخة.

وضع الرجل ضحيته في الحفرة وهو يبكي بصوت عال، أخذ يعدل وضع
الجثة في الحفرة بحنكة توضح أنها ليست أول ضحية، لماذا يبكي إذن؟
انفجر الرجل في البكاء فجأة وهو ينهال على قدمي ضحيته يقبلها.

قررت أن أراجع في بطن.

التفتُ وراني فوجدت ذنباً أسود يقطع على طريق الهروب، نظرت في
اتجاه آخر فوجدت ذنباً آخر.

لم تكن الذئاب تنظر نحوي ولكنها كانت تراقب ذلك الرجل المنهمك في
دفن ضحيته. عددت ثلاثة ذئاب حول المكان تقف في ترقب.

ظللت راقداً بجوار جذع شجرة محاولاً عدم إصدار أي صوت داعياً الله ألا
ينتبه ذلك القاتل لصوت ضربات قلبي التي أظنها فاقت صوت ماكينة المياه
الخاصة بالزواينة، وألا تشم الذئاب رائحة الخوف الصادرة مني والتي أعتقد
أنها ربما غطت على رائحة زهر الليمون والبرتقال.

كان الرجل قد أهال التراب على ضحيته وأخذ يسوي التربة فوقها بمهارة وخبرة وهو يتكلم بصوت عال يقطعه البكاء والعويل ميزت بين كلماته آيات من سورة "يس".

بعد أن انتهى جثا على ركبتيه وأخذ يدعو بصوت يقطعه البكاء.

نظرت خلفي فلم أر الذناب فزحفت ببطء مبتعداً، حتى ابتعدت مسافة كافية فوقفت وأخذت أجري، لاحظت أنني أبكي وأن دموعي تغرق وجهي، حاولت أن أكم صوتي ولكن أنيني كان يغلبني أثناء الجري والسقوط المتكرر، ترى هل أجري في الاتجاه الصحيح؟

هل لاحظ الرجل وجودي؟

هل تلاحقني الذناب؟

لاحظت ظلال أشجار الجازورين من بعيد، أخذت أجري بمحاذاتها باحثاً عن الفتحة، إن أسوأ كوابيسي يتحقق، ترى هل أجد الفتحة أم سيحدث مثلما حدث في الكابوس.

وجدت الفتحة فحشرت جسدي فيها بسرعة ثم قفزت التربة، ولأول مرة ورغم مهارتي المعروفة في قفز الترع والقنوات فشلت في عبور هذه التربة الصغيرة، سقطت في الماء الضحل وارتطم رأسي بالجسر بقوة، انزلقت قدمي في الطين الزلق حينما حاولت أن أخرج فسقطت مرة أخرى، أخيراً خرجت وقد تلوثت ملابسني وابتلت تماماً، أخذت أجري نحو العزبة متلفتاً ورائي في رعب.

لاح أمامي ظل شخص لم أميزه في الظلام.

"حميد هل أنت بخير."

هل هذه عبير حقًا.

"ماذا حدث لك؟ هل أنت بخير؟"

-عبير؟ أجل أن بخير لا تقلقي.

قلتها وأكملت طريقي مسرعًا نحو دار الرفاعي وصعدت جريًا إلى غرفتي
وأغلقت الباب خلفي ثم انهزت ساقطًا على الأرض.

الغائبون

"لا يخلو بيت في عزبتنا من غائب انقطعت أخباره حتى صار شيئاً معتاداً. بدأت حكاية الغائبين في العزبة من زمن بعيد. يبقى أول الغائبين وسيدهم هو جدك على الشرقاوي. فبعد أن أجبره حسن أبو زينة على بيع أرضه له شعر جدك بإهانة شديدة وأن مكانته ككبير العزبة قد كسرت وظل فترة لا يبارح بيته. بعدها خرج في صباح أحد الأيام من العزبة في اتجاه البحر الجديد ولم يعد.

وعندما تأخر ظن أهل العزبة أنه ربما ذهب ليزور أحد أقاربه في دمياط أو ربما عاد إلى الشرقية حيث جذور عائلته.

طالت غيبته وظلت الأخبار تتناثر لسنوات؛ هناك من رآه يطوف بالكعبة أثناء الحج، هناك من رآه في مستشفى في المنصورة، هناك من رآه في مولد السيد البدوي في طنطا. لكنه في النهاية لم يعد للعزبة قط.

كان على الشرقاوي رجلاً قوي الشخصية نافذ الرأي وكان يتحكم في كل كبيرة وصغيرة في العزبة، وبعد غيابه دبّت الخلافات والنزاعات بين أبنائه وإخوته واختلف حال العزبة تماماً.

وأصبح الناس عند حدوث أي مشكلة يقولون " غداً يعود علي الشرقاوي " باعتباره المخلص الذي سيعود ليقضي على كل المشاكل ويؤلف بين أهل العزبة مرة أخرى وربما استطاع استرجاع الأرض من الزواينة.

فقد كان كل منهم عندما يتذكر أرضه التي أخذها الزواينة يعود فيتذكر أن علياً الشرقاوي نفسه لم يستطيع الحفاظ على أرضه فيقل إحساسه بالذنب.

مع مرور السنوات بدأ يقل إيمان أهل العزبة أن علياً الشرقاوي سوف يعود ومع ظهور جيل جديد لم يرَ علياً الشرقاوي أصلاً، بدأ شأن غيابه يأخذ معنى جديداً فحين يريد أحدهم أن يعبر عن شيء بعيد الاحتمال يقول " عندما يعود علي " بمعنى (في المشمش).

بعد على الشرقاوي تعددت حالات الاختفاء في العزبة، حسن أبو عطا، سالم الشرقاوي، فرج أبو عبد المقصود، سلامة أبو جاد، حسن أبو الحاج علي،. أحياناً كان يعود أحدهم لنكتشف أنه كان مسجوناً أو مريضاً أو أنه تشاجر مع أبيه أو إخوته فقرر هجر العزبة، ولكن في معظم الأحيان تكون القاعدة أن الغائبين لا يعودون."

جدتي أنيسة

مشاهد متقطعة تتتابع أمام عيني.

أبي.

جدي عبد الحميد.

السيارة البيجو البيضاء المشؤومة.

طبيب يرتدي معطفًا أبيض.

عصام وعمتي زينب عبد الحميد.

عبير.

وخزات في ذراعي.

قناع على وجهي.

عينان صفراوان.

ماذا حدث؟

ربت عمتي زينب عبد الحميد على كتفي وقالت: لا تقلق يا حميد ستكون بخير، الأطباء قالوا أن حالتك تحسنت.

حالتي؟ أين أنا؟

-أنت في مستشفى المركز منذ يومين لقد نقلك أبوك وجدك هنا وكانت حالتك سيئة وقال الأطباء أنك مصاب بالتهاب رئوي. لقد ظل أبوك بجوارك هنا

من وقتها واليوم فقط ذهب لأن أخاك محمدًا لديه جلسة غسيل كلوي في المنصورة.

لكن ماذا حدث أنا لا أذكر شيئًا؟

-هذا ما كنت أود أن أسألك عنه، لقد جاءت عبير لزيارتك أمس مع أمها وقالت لي أنها رأتك تدخل الجنيينة وتأخرت بالداخل وبدأت هي تسمع أصوات غريبة ثم رأتك تسقط في التربة ثم انطلقت تجري ولم ترد عليها.

-أنا فعلاً سقطت في الماء وعدت جرياً لغرفتي لكني لا أعرف ما حدث بعدها.

-وجدك عمر على أرض الغرفة ترتجف وحرارتك مرتفعة جداً ثم نقلوك إلى المستشفى.

-وهل جاءت عبير فعلاً لزيارتي؟

-أجل كانت في طريقها للقاهرة ومرت علينا في المستشفى ولكنك كنت نائماً، حميد، ماذا كنت تفعل داخل الجنيينة؟

-لا شيء كنت أتجول.

-وما حكاية الأصوات التي حكمت عنها عبير؟

-أنا لم أسمع أي أصوات أنت تعرفين أن أهل العزبة دائماً يتحدثون عن أصوات غريبة تأتي من الجنية.

حميد، هل تخفي عني شيئاً؟

-أنت تعرفين جيداً أنني لا أستطيع أن أخفي عنك شيئاً؟

-هل الأمر متعلق بالحلم الذي حكته لي؟

دخل عمر ومعه عصام فقطعا حديثنا.

قال عمر: ما شاء الله لقد استيقظت، لقد كنت أتحدث الآن مع الطبيب وقال أنك ممكن أن تعود إلى البيت غداً.

ترى من الضحية؟

ومن يكون القاتل؟

ولماذا كان يبكي؟

ترى هل سيكتشف أحدهم الجريمة أم ستنزل سرّاً؟

"ما أريده سوف يتحقق سواء بك أو بغيرك"

"ما أريده سيكون"

أخذت أبعد الفكرة عن رأسي.

هل من الممكن أن يكون هو؟

هل يكون ما شاهدته هو المهمة التي كان من المفترض أن أنفذها؟

عندما عاد أبي في المساء سألته:

"أبي، ما أخبار عمي حافظ؟"

لقد سافر.

-هل رأيته قبل أن يسافر؟

نظر لي في دهشة وقال: ما هذا الكلام الغريب، طبعاً رأيته.

-أقصد أنني لم أراه قبل مرضي بعدة أيام.

-أنت تعرف الخلافات التي حدثت بينه وبين جدك لذلك لم يأت لبيتنا في الفترة الأخيرة والأيام التي سبقت سفره تصاعدت الخلافات جداً مع جدك وعمك فتحي وعمك عبد الله حتى أنه سافر غاضباً وقال إنه لن يعود مرة أخرى وأنه لا يريد من ميراث أبيه شيئاً، لكنه حتماً سيهدأ بعد فترة ويعود.

" حافظ لابد أن يسكت للأبد "

ترى هل كان يقصد ذلك؟

أن يهجر العزبة ويقرر ألا يعود إليها أبداً؟

أ يكون هذا كافياً لراعي الذئاب أم أنه يقصد شيئاً آخر؟.

أخذت أتحمس الأخبار في العزبة.

لا شيء.

لم يلاحظ أحد شيئاً ولم يسمع أحد أصواتا غريبة.

ظللت لعدة أيام أنتظر أن أسمع عن العثور على جثة أو على الأقل غياب

شخص.

بعد مراجعة سجلات العزبة وهو ما قامت به من أجلي جدتي أنيسة من خلال الاجتماع النسائي الدوري على مصطبة منزل التابعي رحمه الله تم تحديد الأشخاص الذين غادروا العزبة في تلك الفترة وهم خمسة أشخاص منهم عمي فتحي وعمي حافظ اللذين سافرا إلى السعودية، وبعد أسبوعين ظهر اثنين من

الخمسة واتصل عمي فتحي بعمي عبدالله من السعودية بالتالي اقتصرت القائمة على عمي حافظ وعوضين.

تمنيت أن يكون عوضين هو الغائب على الأقل سيكون ذلك نوع من العدالة بعد جريمته التي شهدتها.

أو ربما يكون هو القاتل واختفى خوفاً من اكتشاف أمره. ولكن إن كان هو القاتل لماذا سيهرب لقد تمت الجريمة

دون ترك أي آثار. ولقد ارتكب جريمة من قبل وظل بعدها في العزبة ملء السمع والبصر بل ومشى في جنازة ضحيته وساهم في بناء مسجد باسمه.

لا غالباً الشخص الغائب سيكون هو الضحية بينما يعيش القاتل وسطنا بأمان.

هل من الوارد أن يكون الضحية أو القاتل أو كليهما من خارج العزبة؟ ولماذا يدفن ضحيته هنا؟

ربما دخل الجنينة من جهة أخرى فربما يكون من القرية أو من عزبة واحد.

أخذت الأسئلة تتصارع في رأسي دون إجابات.

كانت الدراسة قد بدأت وكنت أقضي معظم الوقت في بورسعيد وأرجع للقرية كل أسبوعين ليوم واحد فقط ثم أعود.

لم أستطع الهرب تمامًا من الكوابيس ولكن على الأقل تكون أقل وضوحًا خارج العزبة.

كلما عدت إلى العزبة أسأل أبي عن أخبار عمي حافظ حتى سألني: ما بالك يا عبد الحميد؟ ليست أول مرة يسافر عمك حافظ فلماذا كل هذه الأسئلة؟

-لا شيء يا أبي أنا فقط قلق عليه.

بعد شهر جاء خطاب من عمي حافظ لأبي.

أراني أبي الخطاب وجعلني أقرأه.

يؤكد عمي حافظ في الخطاب أنه لن يعود إلى العزبة مرة أخرى بعد ما حدث بينه وإخوته.

تنفست الصعداء وحمدت الله أنه بخير.

عادت عمتي زينب عبد الحميد إلى بيت جدي مرة أخرى، كنت وقتها في بورسعيد وعندما عدت أعطتني جدتي أنيسة تقريرًا مفصلاً بما حدث.

لم تتحمل عمتي زينب ضغوط أهل عصام وأسئلتهم الكثيرة، أبو عصام دائماً يدعو لعصام في وجودها بالذرية الصالحة ويقول أنه يريد أن يرى ذريته قبل أن يموت. أما أم عصام فحدث ولا حرج، إن كيدهن عظيم، كل يوم أخبار عن فلانة التي أنجبت وفلانة التي أصبحت حبلى وفلان الذي عنده أربعة أولاد والحديث عن العزوة وما إلى ذلك. صحيح أنهما لم يتحدثا معها مباشرة نتيجة تعليمات مشددة من عصام إلا أن ذلك لم يمنع التلميحات المستمرة، وقائمة الفتيات التي تلوح بها أمه بين الحين والآخر معددة مزايا كل منهن.

الجديد بناءً على كلام عصام أن عمتي زينب قررت أن تسمح له بأن يتزوج مرة أخرى، وهو يؤكد أنه أخبرها مراراً أنه يحبها ولا يريد أن يفعل أي شيء يجرحها مهما كان السبب وأنه لم يعد يفكر في موضوع الأطفال إلا أنها أصرت على موقفها وقالت له أنها غير معترضة على زواجه.

وعندما عادت إلى بيت جدي سألتها جدي إن كانت تريد أن يطلقها منه إلا أنها رفضت تماماً.

وظلت في غرفتها تبكي طوال اليوم وعندما جاء عصام في الصباح كرر عليها نفس الكلام أمام جدي وجدتي إلا أنها أصرت وقالت أن هذا حقه وأنها لا تستطيع أن تحرمة منه وأن هذا قرارها الأخير.

طرقت باب غرفتها فلم أجد ردّاً حتى ناديت عليها ففتحت الباب بعينين متورمتين من البكاء.

دخلت وأغلقت الباب خلفي.

-عمتي هل أستطيع التحدث معك؟

-طبعًا يا حميد.

-أنا لا أفهم، إن كان عصام لا يريد أن يضايقك ويقول أنه لم يعد يفكر في موضوع الأطفال فلماذا أنت مصرة على مغادرة البيت وعلى حثه على الزواج، إن كان أبواه يضايقانك تستطيعان أن تنتقلا للعيش بعيدًا عنهما، ثم إن عصام يحبك ولن يستمع إليهما وقد صرح بذلك كثيرًا.

-الأمير ليس كما تراه يا حميد، عصام فعلاً قال كل ذلك ونبه على أبويه أنه لن يفعل أي شيء يجرحني مهما كان. ليس الأمر متعلق بالحاح أبويه وتلميحاتهما المستمرة فقط، عصام نفسه تغير، حياتنا لم تعد كما كانت من قبل، هو لم يستطع تجاوز الأمر قط، يقول دائماً أنه لم يعد يفكر في موضوع الأطفال ولكنه لم يستطع تجاوز الأمر، هو فقط يتظاهر بذلك، صرت أحس أنني حمل ثقيل عليه، هو لم يستطع التخلي عن حلمه وأنا لا أريد أن أكون عقبة في طريقه ولا أريد أيضاً الاعتماد على قوة تحمله ومقاومته التي قد تضعف بعد عام أو بعد عشرة أعوام لأجده وقتها قرر أن يتزوج رغمًا عني لأنه لم يعد يتحمل أو ربما اكتشف أنه قد تزوج سرًا، خلاصة الأمر-المالم تفهمه أنت- أن عصام يريد بشدة أن يكون لديه أطفال ويريدني أن أضغط عليه ليتزوج وأؤكد أن ذلك لن يضايقتني حتى يرتاح ضميره، وهو ما فعلته.

نظرت لعينيها اللتين قد تورمتا من كثرة البكاء وقلت: وهل حقاً لن يضايقك ذلك.

طبعاً لن يضايقتي، بل سيدبحني.

في أحد الأيام كنت أجهز أغراضي تمهيداً للعودة إلى بورسعيد عندما سمعت جدتي أنيسة تنادي على أبي: أسرع يا سالم، لقد مر المهندس إبراهيم وبقية أعمامك من هنا ويبدو أنهم ذاهبون إلى أبيك في الغيط وهو هناك وحده.

طمأنها أبي وأسرع منصرفاً فذهبت معه.

عندما اقتربنا من أرض رجع الجنية رأيت المهندس إبراهيم وإخوته يحيطون بجدي ورغم أصواتهم المرتفعة لم أميز ما يقولون ولكني رأيت المهندس إبراهيم يدفع جدي في صدره عدة مرات حتى سقط أرضاً.

قطعت المسافة جرياً رغم نداء أبي أن أتوقف.

عندما وصلت كان جدي وقف على قدميه فدفعه المهندس إبراهيم مرة أخرى حتى سقط. عندما اقتربت صرخ في جدي عبد الحميد: ولد، ماذا تفعل؟ إياك أن تمد يدك على أحد من أعمامك.

قطع عمي عبد الله وعمي عبد القادر الطريق على ثم وصل أبي فجذبني للخلف قليلاً وقال اسمع كلام جدك.

وضع المهندس إبراهيم عصاً على صدر جدي ولوح بورقة في يده قائلاً: لن تتحرك من هنا حتى توقع على هذه الورقة يا عبد الحميد، لم يتبق غير توقيعك أنت.

لم يرد جدي وأشاح بوجهه بعيداً.

-لا تكن غيباً لأبد من التخلص من هذه الأرض اللعينة التي تسببت في كل هذه المشاكل.

لا تضطرنني أن أهينك أكثر من ذلك.

استبد الغضب بي فحاولت أن أقرب منهما ولكن عمي عبد الله وعبد القادر منعاني من الاقتراب.

ألا يتعلم أحد من الماضي في هذه العزبة.

أليس هذا هو نفس ماحدث بين جدي سالم وأخيه الحاج علي.

ولكن من لنا الآن بعمتي زينب الكبيرة لتنفذ جدي من هذه المهانة.

تلفتت حولي لأبحث عن نجدة.

الجميع واقفون يشاهدون في صمت.

أبي يهمس لي " لا تتدخل".

-هيا يا عبد الحميد لا داعي للمزيد من الفضائح، أنت تعرف أنه لا مفر من التوقيع، لابد أن ننهي هذا الأمر الآن.

قطع كلام المهندس إبراهيم صوت ضجيج من بعيد.

التفت الجميع نحو الجرار الأحمر الكبير الذي يقترب في سرعة مثيرة عاصفة من التراب والضجيج.

عبر الجرار الجسر نحو الأرض وتوقف قريباً منا.

نزل عمي حسن الساکت من الجرار ومشى بروية حتى وصل للمهندس إبراهيم

دون أن يوقفه أحد.

أزاح العصا عن صدر جدي بهدوء ثم ساعد جدي على الوقوف ونفض عنه التراب وسانده ومشياً سوياً دون أن يعترض طريقهما أحد.

ساعد عمي حسن الساکت جدي على صعود الجرار ثم صعد من الجهة الأخرى ودون أن يفه ببنت شفة.

ثم تحرك بجراره مثيرة الضجيج والتراب والدهشة والحنق.

الساكت

"ربنا يصلح الحال"

عمي حسن الساكت

ظل منظر عمي حسن الساكت وهو ينقذ جدي ويخرجه من حصار إخوته مطبوعاً في ذهني، بدا كرجل خارق جاء لينقذ ضحيته بعد أن ضاقت بها السبل واستحكمت حلقات الحصار، جاء بجراره الأحمر كأنما هبط من السماء على متن فرسه المجنح ليحمل جدي بينما يقف أعمامي كأنما عُميت أبصارهم.

ولكني لم أفهم أبداً لماذا لم يمنعوه مثلما منعوني، ولماذا لم يأمره جدي ألا يتدخل مثلما فعل معي ولماذا استسلم له المهندس إبراهيم.

وعندما سألت أبي وجدتي أنيسة عن ذلك لم تدخل تبريراتهم رأسي؛ لأنه رجل طيب وعلاقته جيدة بالجميع و...

أسباب كلها غير منطقية.

عندما عاد عمر وعلم بما حدث استشاط غضباً وأخذ يصرخ فينا معاتباً
إيانا أن كيف سمحنا لهم بفعل ذلك، وعندما حكيت له لم يقتنع بمبرراتي وأخذ
يصرخ:

ولماذا يطلب منكم ألا تمدوا أيديكم على أعمامكم بينما هم مدوا أيديهم
على أبي، أنا لن أسكت على هذا سأذهب الآن لعمي عبدالله وللمهندس إبراهيم
وسأصفي معهم الحساب.

أخذ أبي يهدئ من روعه وأقنعه ألا يذهب حتى يستأذن أبيه لأنه سيغضب
بشدة لو علم بذلك.

فرد عمر: وأين هو أبي، لماذا لا نذهب ونحضره.

فرد أبي: هو في بيت عمك حسن ولقد عدت للتو من هناك، هو بخير
والحمد لله ولكنه يريد أن يبقى هناك لعدة أيام.

بالاتفاق مع عمتي زينب عبد الحميد قرر عصام أن يتزوج، اختارت له
أمه فتاة من قريباته، تمت الأمور بسرعة توحى أن الأمور كانت كلها مجهزة
بانتظار فقط موافقة صورية من عمتي زينب.

كان الاتفاق أن تمكث عمتي في بيت جدي شهرًا حتى تنتهي مراسم الزفاف والمباركات وخلافه بعدها تعود لشتتها بينما استأجر عصام لزوجته الجديدة شقة قريبة لحين تجهيزه شقة بالدور الأعلى في بيت أبيه.

حاولت عمتي أن تظهر تقبلها للأمر، ولكني كنت أعرف أنها تبكي طوال الليل، كان البيت كله حزينًا ومظلمًا بسبب غياب جدي ولكن حزنها كان مضاعفًا لعلمها بأن زوجها الحبيب سيتزوج امرأة أخرى بعد عدة أيام.

دخلت غرفتها وأخذت أتكلم معها دون أتطرق لموضوع عصام، كان الحديث عن خلافات جدي وإخوته وأرض رجع الجنية، وأثناء كلامي وقعت عيني على لوحة على مكتبها، الغرفة المظلمة تضيئها العينان الصفراوان، أغصان الغاب الممتدة بطول الجدار والجذور التي تبدو كأنها ثعابين تتلوى على الأرض.

رسمتها بناء على وصفك.

نظرت إليها في شك فأشاحت بوجهها: ولكني لم أصف لك كل هذه التفاصيل الدقيقة ولو حاولت لما استطعت أن أصفها بهذه الدقة.

لم ترد على فبادرت بسؤالها: عمتي، هل دخلت المخزن ورأيت ما رأيته أنا من قبل؟

قطع حديثنا صوت أبي ينادي علي.

قامت عمتي وأخفت اللوحة بسرعة قبل مجيء أبي.

دخل أبي بوجهه الذي ازداد نحولاً وعينيه المرهقتين.

-عبد الحميد، حاول أن تنام مبكراً اليوم، لأنني سأوقظك مبكراً لتأتي معي لنحضر جدك من عزبة المنة وثمانين.

-هل قرر أن يعود أخيراً؟

-لقد توصل عمك حسن الساكت لاتفاق مع أعمامي وسيعود أبي غداً ليقوم بتوقيع الأوراق حتى ننهي هذا الأمر. ولكن استعد سأوقظك قبل الفجر لأن جدك يريد أن يعود مبكراً جداً حتى لا يراه أحد ولذلك رفض أن يوصله عمك حسن بالجرار حتى لا يعرف أهل العزبة بعودته.

-ولماذا لا يعود في وضح النهار؟

-أنت تعرف جدك، هو حساس جداً من ناحية وضعه في العزبة ويعتبر ما حدث عاراً كبيراً ويريد أن يتفادى نظرات الشفقة أو الشماتة.

لم أخبر أبي ولكني فكرت أنه على كل حال أنا لا أنام ليلاً فلا بأس عندي من الذهاب مبكراً.

جهزنا العربة والحمار وانطلقنا في الظلام، جلس أبي صامتاً بينما لا يشق صمت الليل إلا صوت حدوات الحمار وعجلتي العربة أشحت بوجهي عندما

مررت أمام الفتحة في سور الجنيّة، لا أعرف إن كانت لا تزال موجودة ولكني لم أدخل الجنيّة قط منذ ذلك اليوم الذي شاهدت فيه جريمة دفن هابيل في الجنيّة.

لاحظت أن أبي قد أشاح بوجهه أيضاً ولكن عندما مررنا أمام أرض رجع الجنيّة التي شهدت اعتداء إخوة جدي عليه.

-أبي، ما الاتفاق الذي توصل إليه عمي حسن مع إخوة جدي؟

-لقد أقنع جدك أن يترك لهم نصف الأرض القريب من الطريق وهو الجزء الذي يريدون استثماره على أن يأخذ هو الجزء القريب للجنيّة.

-وهل وافق المهندس إبراهيم والآخرين؟

-أجل وافقوا، بشرط احتساب الجزء الذي سيأخذه جدك بسعر عالٍ يخصم من نصيبه في باقي ميراث أبيه.

قفزت إلى ذهني مرة أخرى صورة عمي حسن المخلّص وهو ينطلق بجراره الأحمر لينقذ جدي من براثن المهندس إبراهيم وإخوته. ترى كيف أقنع هذه الأطراف المتنافرة بعد كل هذه السنوات من النزاع والفرقة والخلافات.

كانت العربية تعبر بنا فوق كوبري عزبة واحد نحو الضفة الأخرى من البحر الجديد فقلت له:

-أبي أريد أن أعرف ما حكاية عمي حسن الساكت؟ وما درجة قرابته لنا؟

-أولاً هو اسمه حسن الرفاعي، وأبيه هو الحاج محمد الرفاعي الذي لا بد أنك سمعت حكايته عشرات المرات من التابعي رحمه الله حيث كان لا يفتأ يكررها على أسماع فتيان العزبة. كان محمد الرفاعي صديقاً مقرباً من جدك سالم رحمه الله وهو ما شجعه على أن يتقدم لطلب الزواج من إحدى بنات العائلة وهو أركان مستبعداً جداً وقتها حيث لم يكن مسموحاً أن تتزوج إحدى بنات العزبة برجل غريب، ورغم وساطة جدك سالم إلا أن جدك على رفض تماماً وقال إنه ليس فقط غريباً ولكنه أيضاً يعمل مع الزواينة حيث كان وقتها خفيراً على الجنيّة- الذين لم ينسَ لهم جدي على ما فعلوه بأبيه على الشرقاوي الكبير حين أخذوا أرضه وجعلوه يهجر العزبة ولا يعود إليها أبداً، ولكن عمتي زينب وافقت عليه وأصرت على موافقتها وساعدها جدي سالم.

ماذا؟ عمتي زينب الكبيرة؟ هل كان يريد الزواج بها؟

ولأول مرة من شهور رأيت أبي يضحك بقوة.

يا حميد عمتك زينب أم سالم-أو الكبيرة كما تسميها- لم تكن ولدت بعد حينذاك على حد علمي، من أقصدها هي زينب أم على أخت جدك سالم أي أنها عمة عمتك زينب الكبيرة.

-وهل تزوجت محمد الرفاعي؟

-أجل تزوجا، وعاشا في البيت الذي نعيش فيه الآن-دار الرفاعي- وأنجبا ثلاث بنات بالإضافة لعمك حسن الرفاعي، ولكنهم انتقلوا للعيش في عزبة المئة وثمانين وباعا البيت لجدي سالم.

-ولماذا لم أسمع عن عمتي زينب أم علي من قبل؟

-هذا لأنها وزوجها لم يطأ أرض العزبة قط منذ غادراها.

-ولماذا غادرا العزبة فجأة؟

-يقال أن عمتك زينب أم علي هي من طلب ذلك ويقال نتيجة خلافات عائلية، لا أعرف بالضبط، ما أعرفه أن جدي سالم حاول كثيرًا أن يقتنعهما بالبقاء ولكنهما أصرا على الرحيل وعدم العودة مطلقًا رغم أن هذا كان يخالف وصية جدي علي الذي وافق على زواجهما شرط ألا يغادرا العزبة قط. وطلبت عمتي ألا يزورها أحد من العزبة إلا جدي سالم ولكن أحيانًا كنت تطلب هي رؤية شخص بعينه من العزبة. فيما عدا ذلك انقطعت علاقتهم بالعزبة إلا من زيارات سريعة من ابنهما حسن الرفاعي.

-وهل هذا يبرر موقف المهندس إبراهيم وبقية أعمامي من عمي حسن؟

لا أعتقد ذلك؟

-بالطبع لا، هم لم يعترضوا على ما فعل احترامًا لعمتي زينب أم علي لأنهم يعرفون أنها هي التي أرسلته.

ماذا؟ هل تعني أنها لازالت موجودة؟
بالطبع، ولقد طلبت رؤيتك ولذلك أحضرتك معي.

الرابعة

"اسأل عمك زينب فهي تعرف الكثير"

ستي "كُل"

اقتربنا من عزبة المائة وثمانين.

تذكرت حنان بنت عمي حسن وتخيلت كيف كانت تقطع كل هذا الطريق ذهاباً وعودة إلى المدرسة يومياً.

هي الآن في كلية التربية بينما تزوجت بقية أخواتها ولها أخ وحيد اسمه محمد لازال في المدرسة الثانوية.

لاحت بيوت العزبة مرصوفة في صفين متقابلين تفصلهما ترعة صغيرة، فقط بضعة عشر بيتاً تحيط بهم أراضي العزبة وحظائر الماشية، مسجد صغير ثم في نهاية الطريق مجموعة صغيرة من المقابر ذات الشواهد القصيرة.

كان بيت عمي حسن أول بيت في العزبة، عرفته طبعًا من الجرار الواقف أمامه، بيت من دور واحد كباقى بيوت العزبة، له شرفة أمامية كبيرة يؤدي إليها درج عريض، صعدنا الدرج ثم أشار أبي إلى أريكة في الشرفة وقال لي أن أنتظر هنا ثم طرق الباب.

فتح له الباب عمي حسن فسلم عليه وأشار إلى أبي ليدخل ثم خرج ليسلم على مرحبًا ثم جاءت زوجته ترحب بي وتقول أنها سمعت عني كثيرًا من حنان.

بعد قليل نادى على أبي، دخلت فوجدت جدي عبد الحميد جالسًا، وكأنه كبير عشر سنوات، قبلت يده ثم احتصنته بقوة، جلسنا صامتين، لاحظت أن جدي يحاول تفادي أن تلتقي عيوننا، قطع أبي الصمت وأخذ يتكلم عن الأرض ودورة الري وخلاف حدث في العزبة بين أولاد الحاج علي وأولاد جدي سعد على الماء، كان جدي يستمع ويهز رأسه في صمت.

قال لي عمي حسن: هيا يا عبد الحميد سلّم على عمك زينب.

وأشار إلى باب في آخر المنزل.

وقفت أمام الباب منتظرًا أن يتطوع أحدهم بالمجيء معي ليقودني إليها أو يعرفها بي.

ولكن عمي حسن قال: هيا ادخل لا أحد هناك سواها، هي في انتظارك.

تخيلت ستي كل في غرفتها المظلمة على فراشها النحاسي، لابد أن عمتي زينب في نفس عمرها إن لم تكن أكبر منها.

فتحت الباب متوجسًا، فوجئت أنه يقود إلى حديقة صغيرة خلف المنزل يحيطها سور من الغاب تغطيه بالكامل أغصان اللباب المتسلقة فتحجب الحديقة عن العيون، بالداخل تكعيبة عنب صغيرة وبعض شجيرات الليمون والبرتقال، شجرة خوخ، وتوقف بصري عند شجرة مشمش كبيرة ذكرتني بشجرة المشمش الحبيبة التي كانت تحمل رسائل الزهرية إلى عبير.

"هل أعجبتك شجرة المشمش؟"

انتبهت للصوت فرأيتها.

كانت سيدة طاعنة في السن قد تجعدت بشرتها وانحنى ظهرها ومع ذلك كانت تتكئ على عصاها وتمسك بخيط تلفه حول غصن شجرة بمهارة.

"هذا يُسمى تطعيم، هذا غصن من شجرة يوسفى أقوم بتطعيمه هنا في شجرة برتقال، لقد تعلمت التطعيم من زوجي-رحمه الله- الذي تعلمها أثناء عمله في جنيئة الزواينة"

نظرت إلى فرأيت عينيها البرّاقتين فشعرت أنهما غريبتان في هذا الوجه المتغضن لكانهما عينا فتاة في مقتبل العمر.

"هل تعرف يا عبد الحميد، ذات مرة قمت أنا وزوجي بتطعيم شجرة يوسفى بغصن من شجرة نارينج، كانت شجرة اليوسفى هذه أثيرة لدي لأنني

كنت من زرعها، وكانت ثمارها كثيرة ولذيذة جدًا، وعندما أحضر زوجي غصن النارينج لم نكن نعرف وقتها ما هي ثمار النارينج، ونجحت عملية التطعيم وبدأت تظهر ثمار النارينج، ثم كانت المفاجأة، كان النارينج شديد الحموضة وطعمه سيء جدًا، الغريب أن غصن النارينج نما بسرعة وصار يطرح الكثير من الثمار التي لم نعرف كيف نتخلص منها، على الجانب الآخر بدأت غصون اليوسفي تضمر وتذبل شيئًا فشيئًا وقل ثمرها حتى توقفت عن الإثمار تمامًا، وتحولت شجرتي الأثرية إلى شجرة نارينج فقط بعد أن سيطر ذلك الغصن عليها، أعطيت النارينج إلى أخي سالم-رحمه الله- قال لي بعدها أن ابنته زينب قد صنعت من قشره مربى، ولكنني حزنت جدًا على شجرتي الأثرية فقمت بقطع غصن النارينج ولكن بعد فوات الأوان كانت غصون اليوسفي قد ذبلت بالفعل"

لم أفهم ماذا تقصد بحكايتها فنظرت إليها صامتًا.

"هل تعرف لماذا طلبت أن أراك؟"

نظرت إليها وقلت في حيرة: لا.

"لأنني عرفت أنك تبحث عني"

قلت لها في دهشة: ولكنني لم أسمع عنك سوى اليوم من أبي، فلم يتحدث عنك أحد في العزبة قط.

ضحكت بصوت متحشرج وقالت: "أعرف هذا، لقد اجتهدت كثيرًا حتى ينساني أهل العزبة وطلبت من المقربين ألا يذكروني أبدًا، ولكنني عرفت أنك تبحث عن عمك زينب"

-وكيف عرفت بذلك؟

"من نصحتك أن تسأل عمك زينب هي من أبلغتني"

فغرت فمي في دهشة، ماذا تقصد؟!

"حسنًا يا عبد الحميد، ما الشيء الذي يحيرك وتريد أن تسألني عنه؟"

ابتلعت ريق في صعوبة وأنا أفكر كيف أبدأ: لا أدري كيف أصف لك الأمر ولكن أنا أشعر أن هناك شيئًا شرييرًا في الجنية، لا أعرف ماذا يكون، ولا أدري ماذا يريد مني بالضبط، يزورني في أحلامي ليقلبها جحيماً، يطلب مني أشياء شرييرة، يهددني أن يضر كل أحبائي.

نظرت لي باهتمام فشعرت أن عينيها تخترقني وتكشف كل أسرارتي وبدأت تسأل:

-ماذا طلب منك بالضبط؟

-ماذا رأيت في أحلامك؟

-هل دخلت الجنية؟ ماذا رأيت هناك؟

-هل رأيته في الحقيقة من قبل؟ هل رأيته الذئاب؟

-هل دخلت غرفة المخزن وحدك من قبل؟ ماذا رأيته؟

-من يعرف بأمر أحلامك؟

-هل رآك أحد في الجنية؟

حكيت لها كل شيء فيما عدا الجريمة التي رأيته في الجنية، فسألتني:
هل هناك شيء تخفيه عني؟

هزرت رأسي نافيًا دون صوت.

قالت: حسنًا يا عبد الحميد، سأحكي لك ما أعرفه عسى أن يفيدك في ما
تواجهه، ولكن عدني ألا تخبر به أحد قط.

فلما وعدتها قالت: "ما سأحكيه لك لم أحكه لأحد قط ولم أتخيل أبداً أنني
سأقوله لأحد ولكن ما رأيته في منامي يجبرني أن أقوله لك عسى أن يفيدك أو
على الأقل يخفف عنك، بدأ الأمر مع جدي على الشرقاوي الكبير، لقد وجد شيئاً
في أرضه، لا أدري ما هو بالضبط ولكنه شر كامن من سنين طويلة، لا أحد
يعرف بالضبط ماذا حدث مع جدي على وكيف عثر عليه، ولكن زوجي قال لي
أنه يرجح أن هذا الشيء لا يوقظه إلا الدم، لا أحد يدري ماذا كان بين جدي على
وهذا الشيء ولكن جدي على أبقى الأمر في طي الكتمان ولم يخبر به أحد قط،
وعندما حاول الزواينة أخذ أرضه استمات في الدفاع عنها ولما أجبره حسن أبو

زينة على التنازل عنها، لم يتحمل البقاء بالعزبة ورحل ولم يعد، ولكنه قبل رحيله أخبر أكبر أبنائه بالسر، ومن حينها صار السر يتوارثه الابن الأكبر في العائلة".

سكتت قليلاً فقلت لها: وما هو هذا السر ياعمتي؟

" لا تكن عجولاً يا بني، فأنا أحكي لك مالم أتكلم فيه من قبل حتى مع نفسي، عندما جاء محمد الرفاعي إلى هنا، جاء كخفير على التل، وأثناء حراسته للتل لاحظ وجود ذئب سوداء ضخمة تدخل وتخرج في جحور أسفل التل في أوقات منتظمة، ومع مرور الأيام والليالي بدأ يقل خوفه منها، وفي إحدى الليالي بعد خروج الذئب من جحورها ذهب ليتفقد الجحور باستخدام مشعل.

لم يقل لي محمد غير أنه وجد شيئاً هناك، وأنا لم أجرو قط أن أسأله عن كنه هذا الشيء ولكن ما وجده جعل الذئب تطيعه فيما يريد.

فيما بعد استأجره حسن أبو زينه لحراسة الجنينة، استعان محمد بالذئب لحماية الجنينة ولإرهاب اللصوص والطامعين ولكنه لم يخبر أحداً بسرّه، واعتقد أهل العزبة أنه يملك موهبة ما لأنه كان رفاعياً أباً عن جد.

لاحظ محمد أن الذئب تقضي الليل في مكان ثابت كل ليلة حتى تعود مع الفجر إلى جحورها، هذا المكان هو أرض جدي علي.

في ذلك الوقت كانت تربط محمد الرفاعي بأخي سالم صداقة قوية، وعندما تقدم محمد لأبي طالباً الزواج مني رفض أبي طبعاً لأن بنات العائلة لا

يتزوجن من خارجها، ولكني أخبرت أبي أنني موافقة، وواجهت ثورة أبي وإخوتي ولم يقف معي إلا أخي سالم، وبعد صراع طويل مع تقاليد العائلة وصورتنا أمام الناس وافق أبي بشرط أن نسكن في العزبة وسط عائلتي، وافق محمد وبنى لنا بيتاً، بعد زواجنا توطدت علاقة محمد بأخي سالم أكثر، وصارا يسهران سوياً كل يوم.

فيما بعد عرفت أن محمداً حكى لسالم عن موضوع الذئاب، فاقترح سالم أن يتفحصا ذلك المكان الذي تقضي فيه الذئاب ليلتها. أخذاً يتفحصا تلك المنطقة شبراً شبراً، ثم بدأ يحفران، لم يكن هناك سور حول الجنيبة وقتها وكان الزواينة يعتمدون على محمد فقط في حراسة الجنيبة لذلك كان دخولهما يومياً سهلاً.

بدأت المشاكل عندما وجدا شيئاً تحت الأرض، لم يجبني محمد عما وجداه هناك عندما سألته لاحقاً ولكنه قال أنه شيء شرير.

اتفقا سوياً على حمل ذلك الشيء وإعادة ردم الحفرة التي وجداه داخلها كما كانت، ودفنا الشيء في غرفة المخزن الملحق بمنزلنا.

بدأت سلسلة من الأحداث الغريبة في العزبة، حوادث اختفاء، أصوات غريبة من الجنيبة، حوادث قتل-على رأسها مقتل حسن أبي زينة- حرائق.

بدأ محمد يتغير، صار عصبيًا ومتوترًا طوال الوقت، أسمعته ينن ويتلوى ليلاً وهو نائم قبل أن يصحو مفزوعاً.

أنا أيضاً كانت تنتابني رؤى مفزعة، ولقد ورثت عن أمي أني أرى الكثير من الرؤى التي لا تلبث أن تتحقق لاحقاً.

حاولت التكلّم مع أخي سالم ولكنه كان وقتها مشغولاً بالمفاوضات مع سعيد أبي زينة لاستعادة أرض جده.

أخذت ألح على محمد أن يخبرني عما به، شيئاً فشيئاً بدأ محمد يبوح بما يثقل ضميره، لقد وعدهما ذلك الشيء بمنحهما قوة كبيرة وبدأ بالفعل في تنفيذ وعوده، إلا أنه بدأ يطلب منهما أشياء لإثبات ولائهم، في البداية كانت طلباته بسيطة، إلا أن الأمر تطور وبدأت طلباته تتحول إلى أمور صعبة أو شريرة وعندما حاول محمد أن يتملص من تنفيذ طلباته اكتشف أنها صارت أوامر وأن ذلك الشيء لا يقبل أن يرفض أحد أوامره، حاول سالم أن يقتنع محمد أن يطيعه وأخذ يبسط له الأمر وحدث خلاف بينهما انتهى إلى أن محمد قرر ألا يشارك في الأمر وأن ينقل سالم الشيء الذي في المخزن إلى مكان آخر. ولكن حينما حاولا ذلك هجمت عليهما الذئاب وكادت تفتك بهما لولا أنها كانت لا تزال تهاب محمداً بسبب الشيء الذي وجده في كهوف التل.

بعد أن حكى لي محمد وهو يرتجف جلسنا طوال الليل نفكر ماذا نفعل، وفي الصباح قررنا أن نرحل.

جمعنا أشياءنا وانتقلنا إلى حجرة صغيرة هنا في عزبة المائة وثمانين كان محمد يعيش فيها أيام حراسته للتل. اعترض إخوتي وأعمامي كثيراً ولكني أصررت على عدم العودة، حاول أخي سالم إقناعنا دون فائدة. تارة بحجة ألا نتركه وحده يتحمل مسؤولية الشيء الذي في المخزن، وتارة بحجة خوفه علينا

من انتقامه، وتارة يذكرني بوصية أبي رحمه الله بعدم ترك العزبة ولكننا لم نرضخ لإلحاحه وقررنا ألا نعود لعزبة الجناينة أبداً.

كانت أيامنا الأولى هنا في غاية الصعوبة، لم يكن هناك سوى ثلاثة بيوت على مرمى البصر، وكانت الذئاب تحوم حول المكان طوال الليل ولكنها لم تجرؤ على الاقتراب، بدأنا في بناء هذا البيت وبدأت حالة محمد تتحسن وقلت الكوابيس والحمى التي كانت تصيبه عند النوم، واشترى سالم بيتنا وبثمنه استطعنا شراء قطعة أرض هنا وبدأنا حياتنا من جديد ومسحنا عزبة الجناينة من حياتنا وحاولنا جاهدين أن نمسح اسمينا من تاريخها.

كانت أياماً عسيرة جداً ولكننا لم نندم أبداً على قرارنا. وبدأت أمورنا تتحسن رويداً، بدأت أحلامي تقل وبدأت الذئاب تبتعد عن أرضنا وبدأ أنين محمد يقل أثناء نومه، وعشنا حياة جديدة كأننا ولدنا من جديد، وقبل وفاة محمد حقق أمنيته بالحج إلى بيت الله.

ماذا عن جدي سالم؟

للأسف لم يستطع أخي سالم الخروج من الفخ، ذلك الشيء يحتاج إلى شخص يكون بجواره دائماً ليرعاه وقد وعد سالم بتحقيق كل ما يتمناه في مقابل أن ينفذ ما يطلبه منه. وعندما زادت مطالبه حاول أخي سالم التملص ولكنه هدد أنه سيضر أبنائه وإخوته وأنه إن رفض أن يكون (ظله) سيجد من إخوته أو أبنائه من يكون (ظلاً) له وأن على سالم حينئذ تلقي غضبه وأيضاً تحمل ذنب

كل ما سيحدث من شرور، وبدأ مع كل مرة يتأخر فيها سالم عن تنفيذ طلب له بإحداث أذى في العزبة؛ حريق، شجار، حالة وفاة، إختفاء.

وفي النهاية أذعن سالم له وصار (ظله) وفي المقابل ساعده الشيء في استعادة أرض جده وأمره ألا يفرط فيها أبداً.

وبعد وفاته طبعاً تولى جدي عبد الحميد الأمر؟

ذلك الشيء يجهز للأمر مبكراً، فقبل وفاة سالم حكى لابنه الأكبر جدي عبد الحميد- عن ذلك الشيء وشرح له ما يجب فعله وأفهمه خطورة عدم طاعته وأمره ألا يخبر أحداً من إخوته بالأمر.

وهل يجب أن يكون الابن الأكبر هو من يحمل تلك المهمة؟

ذلك الشيء هو الذي يختار من يريده ولكن في الغالب يكون الابن الأكبر، ولكن إن رفض أو تقاعس في عمله يقوم ذلك الشيء بالتواصل مع فرد آخر من العائلة.

وهل كل هذا الشر مقتصر على عائلتنا فقط؟

-أولاً هذا الشيء ينشر شروره لكل من يستطيع الوصول إليه، فمحمد الرفاعي لم يكن من العائلة وكذلك حسن أبو زينة، بالإضافة إلى الكثير من أهل العزبة، ولكن من يختاره ظلاً له غالباً يكون من نسل على الشرقاوي. ثانياً لا تجعله يحقق مراده ويصور لك أن كل ما هو حولك شر خالص وأن كل من حولك قد استجاب لنداء الشيطان فهناك الكثيرون ممن صبروا وواجهوا الشر وتحملوا

الكثير ولم ينساقوا وراء إغرائه لهم ولم تفتّ فيهم تهديداته وغضبه وإيدائه، مثلاً نعمت زوجة أخي سالم ظلت ثابتة حتى وفاتها، كذلك جدتك حميدة وأمها ستك" كل" التي كانت صديقتي الوحيدة، عندما عرفنا بالأمر وقفتا في وجه جدك عبد الحميد وفي النهاية انتهى الأمر بالطلاق. وغيرهم هناك الكثيرون من الثابتين المرابطين الذي تحملوا الكثير من الأذى ولم يلنوا.

ولذلك طلبت رؤيتك اليوم؟

لماذا؟

لقد رأيت رؤيا وعرفت أن هذا الشيء اختارك ويحاول أن يجذبك إليه، وغالبًا هو يغريك بالكثير من الأشياء وبحل الكثير من مشاكلك ويهددك بأنه سيؤذيك أو سيؤذي أعباءك، ويحاول أن يصور لك أنه لا فكاك وأن كل من حولك قد وقعوا في براثنه واستجابوا له، فأردت أن أحكي لك ما لم أحكه لأحد من قبل لمارأيت أنك في خطر داهم وأيضًا أنه مازال أمامك الاختيار وأنه هناك من استطاع المواجهة وهناك من استطاع الفرار.

وبم تنصحيني إدا؟

-الخيار لك، أعرف أن الأمر صعب جدًا عليك، ولكن إن أردت أن تغفلت من المصير الذي اختاره لك ذلك الشيء فليس هناك إلا خيارين إما أن تهرب بعيدًا وتنسى العزبة تمامًا أو أن تستعد لمواجهة وترفض مساعدته وعندها عليك أن تستعد لتحمل الكثير، الكثير جدًا.

أرجو أن أكون قد أفدتك ولو قليلاً، أعرف أن حملك ثَقِيل جداً ولكن هذا قدرك وسأدعو الله أن يخفف عنك ويثبتك ويلهمك الصواب.

-هل أستطيع أن آتي لزيارتك مرة أخرى، وأسألك أو استشيرك في شيء.

فضحكت وقالت: تستطيع أن تأتي يابني متى شئت ولكن ربما لن تجدني في المرة القادمة فأنا أشعر أن أجلي قد اقترب كثيراً.

-سؤال أخير يا عمتي ولكنه مهم جداً بالنسبة إليّ، ماذا عن أبي؟ هل هو متورط في الأمر؟

النارينج

"اللهم لا ملجأ منك إلا إليك.

لم يعد لي إلا بابك.

أغلقت كل الأبواب.

كل الأطباء أعلنوا بأسهم.

حتى الطبيب القادم من ألمانيا لم يستطع أن يفيدنا، نفّض الجميع أيديهم وهزّوا رؤوسهم في يأس.

(إنّا لله وإنّا إليه راجعون) أنا راضية بقضاء الله.

المفترض أن يرعى الأبناء أباءهم وأمهاتهم، ويراقبون في حزن تحولهم من بعد قوة ضعفاً ومن بعد صحة مرضاً، هذه سنة الحياة، ولكن أن أرى ابنتي فلذة كبدي وقرّة عيني وهي تذبل أمامي وهي في مقتبل عمرها وأنا واقفة مكتوفة اليدين وقد نفّض الأطباء أيديهم من علاجها.

لقد رعيت أُمي في مرضها الأخير، وتقطع قلبي عليها، ولكن أن أرى
ابنتي تتألم وتذبل أمامي لهُو الجحيم بعينه.

رحمك يا ربي.

خالتي أم عبير.

لم تكن الشمس أشرقت بعد حينما ودعنا عمي حسن الساكت وانطلقنا في
رحلة العودة للعزبة.

كانت السماء مظلمة ولا أثر للقمر فيها، ولكنها كانت مكتظة بالنجوم
بشكل يفوق المعتاد، وكأنها عيون تراقبنا أثناء رحلتنا.

لم يقطع الصمت إلا صوت حدوات الحمار وهي تضرب الأرض الترابية
في تتابع رتيب يغري جفنيّ بسنة من النوم لا يمنعها إلا نسيمات الهواء البارد
تضرب صفحة وجهي في رفق وعواصف من الأفكار المتضاربة تضرب
صفحات مخي في عنف.

نظرت إلى جدي عبد الحميد الجالس في صمت، كلما حرك الهواء تلفيعته
أعاد لفها لتغطي وجهه جيداً، ذكرني وقتها بالفنان محمود المليجي في أدائه
العبقري لدور محمد أبو سويلم في فيلم "الأرض"، لم تكن مشكلة محمد أبو
سويلم هي شاربه الذي تم حلقه رغماً عنه ولكن كانت المشكلة في كبريائه الذي

تحطم، وهذه كانت نفس مشكلة جدي، كان يشعر أن كبرياءه تحطم، أن المكانة التي ظل يعمل لسنوات ليكتسبها كأحد كبار رجال العزبة الذين يعتد برأيهم قد انهارت.

لذلك أصر على العودة قبل شروق الشمس حتى لا يقابل أحدًا في الطريق، وزاد على ذلك بأن لف وجهه بتلفيعته حتى لا يعرفه من يراه.

أخذت أنظر إلى الجزء الظاهر من وجه جدي، ذلك الوجه الحبيب الذي كان مثالاً للخير ولم أسمع عنه إلا سيرة طيبة-ربما باستثناء ستي "كل"- ترى ما هي علاقته براعي الذئاب؟ ترى ماذا طلب منه راعي الذئاب؟

وهل نفذ له ما يريد؟ وبم وعده؟

حتى الآن لا أستطيع تخيل أن جدي عبد الحميد ذلك الرجل الطيب الحنون له علاقة بذلك الأمر الشرير، ليست علاقة فقط بل هو خادم ذلك الشيء أو ظله كما قالت عمتي زينب الكبرى.

جدي الذي لم يكن ينقل المحصول من الحقل قبل توزيع زكاته، جدي ذلك الرجل الخير الذي كان لا يتوقف عن مساعدة أي محتاج وكثيرًا ما أرسلني بمساعدات لأناس داخل العزبة أو خارجها. جدي الذي كان يصل رحمه ولا تمنعه أي ظروف عن زيارة أقاربه في المواسم والمناسبات، وكثيرًا ما ذهب معه في زيارته لعماته وخالاته وأبنائهم بالإضافة لعمتي زينب الكبيرة وأخته الثانية عمتي سعاد في المنصورة وعمي الباشمهندس إبراهيم في القاهرة.

هل يعقل أن يقوم هذا الرجل الطيب الحنون بعمل شرير، لا أستطيع تخيل ذلك، فلكي يكون "ظلاً" لراعي الذناب لابد أن ينفذ طلباته، وماذا ستكون طلباته إلا شرًا محضًا.

نظرت إلى الجانب الآخر حيث يجلس أبي ممسكًا بلجام الحمار، كان ينظر أمامه في شroud، أخذت أتأمل وجهه النحيل ولحيته نصف النامية وعينه المرهقتين اللتين تحملان حزن الدنيا، وبدأت أشعر بتأنيب الضمير لأنني شككت فيه، وبدأت أتذكر ما قالت عماتي زينب أم على عنه:

" أبوك يا بني هو المثال الحي على أن هناك من لا يزال يثبت على الحق مهما حدث، ويتحمل كل شيء في سبيل ذلك، ولا يميل مهما كانت الإغراءات ولا ينحني مهما كانت التهديدات. لقد جاءني هنا عندما كان في سنك ونصحتة مثلما نصحتك ولكنه أبدى استعدادة لقبول التحدي والثبات على موقفه، ولكن ذلك الشيء الشرير لم يعجبه ذلك وظل يحاول معه بشتى الطرق، بالإغراء تارة والتهديد تارة، ولكن ثبات أبيك وصموده ومراوغاته التي حكاها لي جدك عبد الحميد كي لا ينفذ طلبات ذلك الشيء كل ذلك كان يضعف ذلك الشيء، فبدأ يؤذيه بشكل آخر. هل تعرف كيف ماتت أمك؟ لا أحد يعرف، فقط هي سقطت من فوق السطح، لكنني أعرف أن ذلك الشيء هو السبب، ولقد جاءني أبوك بعدها وقد هده الحزن وقال لي أنه قرر أن يأخذك معه ويغادر العزبة وسألني عما سيفعله ذلك الشيء بعدها، فقلت له أنه سيختار أحد أفراد العائلة ربما أخوه طه أو عمه فتحي أو حافظ والاحتمال الأكبر أنه سيختار ابنه-أنت- ليكون بديلاً له.

هنا راجع أبوك موقفه وقرر البقاء حتى لا يقع الأمر على أحد من هؤلاء وهو يعرف أنهم غالباً لن يتحملوا ما تحمله هو، وربما يسيئوا التصرف مما يطلق عنان ذلك الشيء لينشر شروره. فطالما هو ثابت وقادر على مراوغته ستظل الأمور بخير وستظل أنت والآخرون بخير.

وظل يتحمل إيذاء ذلك شيء في نفسه وفي أخته وأبنائه في صمت، ولكنه ظل دائماً يخشى أن يستغل ذلك الشيء نقطة ضعفه ويضرب عليها ولذلك جاءني يطلب رأيي، هل تعرف ما هي نقطة ضعفه؟. أنت."

أفقت على صوت عواء ذنب من بعيد، لم يلتفت أبي ولا جدي إليه، عدت بنظري إلى وجه أبي الحبيب، كم تحمل هذا الرجل من صعاب، من يتخيل أن هذا الرجل النحيل البسيط تحمل كل هذا من أجل الآخرين، ورغم ما تحمله من أجلي لم أكن أبداً مصدر سعادة أو فخر له، لم أحقق له أي من أمنياته، بل زودت عليه همومه وأحزانه.

ظهرت أسوار الجنينة وبدأت أصوات صياح الديكة تصدر من بيوت العزبة مع اقترابنا منها.

جاء عمي حسن الساكت ومعه شيخ البلد وعمي عبد الله وعمي عبد القادر. دخل عمي حسن الساكت وتحدث مع جدي ثم نادى على شيخ البلد فدخل بينما بقى عمي عبد الله وعمي عبد القادر في الخارج. فتح شيخ البلد أوراقه

وخرائطه وأخذ يشرح لجدي ما تم الاتفاق عليه في تقسيم تركة جدي سالم ثم سأله: " هل أنت موافق؟"

لم يرد جدي وظل يحدق في الأوراق في صمت.

ربت عمي حسن الساكت على كتفه مشجعاً دون أن يتكلم، فهز جدي رأسه موافقاً.

فأعطاه شيخ البلد الأوراق وجعله يبصم عليها.

جمع شيخ البلد أوراقه وخرائطه داعياً بالبركة للورثة والرحمة للفقيد في جمل سريعة يحفظها عن ظهر قلب، ثم أخذ يحكي عن جدي سالم معدداً أفضاله وخصاله ومواقفه ثم بدأ يحكي أن القسمة بين جدي سالم وإخوته أخذت وقتاً طويلاً أيضاً وأنه هو الذي استطاع أن يوفق بينهم كما فعل مع أبناء جدي سعد وأبناء الحاج علي.

استمر شيخ البلد في سرد حكاياه ونوادره رغم أن جدي كان شاردًا كعادته بعد عودته من بيت عزبة المنة وثمانين، بينما كان عمي حسن بالطبع يجلس صامتاً ولم يتبق في الغرفة غيري أنا وأبي الذي كان ينظر له ويهز رأسه مجاملاً دون تعليق.

بدا لي أنه لن ينتهي من حكاياته خاصة عندما بدأ يحكي أنه هو من قام بتقسيم تركة سعيد أبي زينة على أبنائه وماذا كان نصيب كل فرد وماذا فعل كل

منهم بنصيبه، حتى جاءنا صوت عمي عبد القادر متملماً من الخارج (هيا يا شيخ أبو المكارم لقد تأخرنا، المهندس إبراهيم ينتظرنا).

أخيراً وقف الشيخ أبو المكارم حاملاً أوراقه وخرائطه وسلم على جدي عبد الحميد داعياً له بالبركة وانصرف مع عمي حسن الساكت.

طلب منّا جدي عبد الحميد أن نتركه لينام لأنه متعب قليلاً ولم يخرج من غرفته يومها.

وفي آخر الليل وبينما أنا جالس فوق سطح غرفتي أتأمل النجوم مولياً ظهري للجنية ومحاولاً مقاومة النوم سمعت صوت أعرفه جيداً، صوت باب قديم يفتح وكأن مفاصله تنن مقاومة فتح الباب بعد أن أكلها الصدأ.

بعدها سمعت صوت بكاء وأنين، مددت رأسي في حذر محاولاً أن أسترق النظر.

فعرفت من الذي يبكي بصوت عال.

وكانت تلك المرة الوحيدة التي رأيت فيها جدي عبد الحميد يبكي.

عدت إلى دراستي في بورسعيد.

تعمدت أن أقلل من تواجدي في العزبة، كنت أعود من بورسعيد مساء الخميس، فأقضي بعض الوقت مع أبي وجدي ثم أسهر حتى وقت متأخر مع

عمر وماجد وفي حالة عدم تواجد أي منهما أذهب إلى أحمد أبي حامد لنسهر
سويًا قدر المستطاع لأعود لغرفتي فأقضي باقي الليل مستيقظًا في برج المراقبة
ولا أنام حتى صلاة الفجر.

كنت أهرب من النوم ليلاً في العزبة، وأعود لبورسعيد مساء الجمعة.
ولكنني كنت كل مرة أعود محملاً بذكرى أليمة تؤرق منامي باقي الأسبوع.

تزوج عصام.

وصارت حالة عمتي زينب عبد الحميد في أسوأ حال. لم تعد تتكلم مع أحد
ولا تغادر غرفتها.

انكبّت على لوحاتها التي صارت أكثر سوداوية وكآبة.

وبعد مرور شهر جاء عصام ليأخذها لتعود لمنزلها حسب اتفاقهما ولكنها
رفضت.

ورفضت أن تقابله.

وطلبت أن يمهلها شهرًا آخر.

أخيرًا خرجت عمتي زينب أم جمعة من المستشفى وعادت إلى بيتها.

ولكنها لم تعد كما كانت.

نحل جسمها وأصابها الهزال، أصبحت تمشي بصعوبة، ولم تعد تستطيع حمل شيء بذراعها اليسرى.

ولكنها كانت على عهدي بها صابرة حامدة شاكرة.

وكلما زرتها وجدتها تحمد الله على حالتها وتحكي لي كيف أن حالتها تحسنت كثيرًا وأنها رأت الموت بعينيها ومرت عليها أيام لم تكن تتخيل أنها ستعود لبيتها يومًا.

أصبح جدي عبد الحميد فجأة رجلاً عجوزًا، يمشي بصعوبة باستخدام عصا جدي سالم التي كان يحتفظ بها، انحنى ظهره وتهدلت كتفاه.

لم يعد يخرج من البيت إلا للصلاة في مسجد العزبة (مسجد شهيد الفجر)، لم يعد يذهب للغيط أو للدوار.

لم يعد يحضر الجنازات أو يزور أقاربه في المناسبات أو يذهب كل يوم خميس للمقابر لقراءة القرآن وتوزيع الصدقات على قبر أبويه.

لا أعرف عمر جدي بالضبط ولكنه تعدى الستين عامًا بالتأكيد منذ سنوات ولكنه كان قبل أزمته الأخيرة كما لو كان في الأربعين، وكان يعمل بيديه في الغيط وفي الدوار، كان كسدٍ يقاوم تيار الزمن ويوقف تقدمه ثم انهار فجأة.

رغم أنني لم أر عبير طوال هذه الفترة إلا أنني كنت أطمئن عليها من خلال أمها التي وفت بوعدا أنها سوف تطمئنني عليها بين الحين والآخر.

ولما طلبت منها أن أرى عبير قالت أن عبير لا زالت ترفض. لم أرد أن ألح عليها ولكني كنت أجدد طلبي في كل مرة حتى جاءتني بالرد أنها موافقة أن تقابلني بعد انتهاء الاختبارات.

كانت ستي "كل" تجلس على الجسر وتنظر في السماء.

من خلفها كانت الجنيينة.

ولكن السور لم يكن موجودًا.

وكذلك أشجار الجازورين.

اقتربت منها.

بدا وجهها مضيئاً وهو يعكس ضوء القمر.

" هل أخذت قرارك يا عبد الحميد؟"

-أي قرار يا ستي.

"هل ستسافر بعيداً وتنجو بنفسك من الهلاك أم ستبقى لتواجه الشر؟"

-لا أحب الهروب.

"الطريق هنا عسير جداً."

-ولكن أبي خاض نفس الطريق بصمود، إذن الأمر ليس مستحيلاً.

"إذاً هل قررت أن تبقى وتحمل المسؤولية؟"

-لم أقرر بعد ولكني أفكر في البقاء.

"وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً"

-هل تعتقد أن الحمل أثقل من أن أتحملة؟.

"لا يكلفُ الله نفساً إلا وسعها"

-حيرتني يا ستي، بم تنصحينني؟

"فكر واستفت قلبك واتخذ قرارك سريعاً لأنه لن ينتظر كثيراً، واحذر أن يتسلل إليك من الشقوق ليغيرك شيئاً فشيئاً"

بدأ النور الأصفر يلعب في الجنينة وبدأت أسمع عواء الذئاب ولكني لم أكن خائفاً.

-هل تقصدين إنني لن أستطيع الصمود كما فعل أبي؟

مدت يدها في حجر جلابها وتناولت ثمرة نارينج وقالت " هل تحب النارينج؟"

-لا، لا أحبه أبداً.

فابتسمت وقالت " هذا جيد، إذاً لا تزرعه"

ثم ألقت الثمرة في الجنينة فشبت النار في الجنينة.

اليأس

"أحياناً يكون اليأس رحمة.

فليس هناك أكثر قسوة من الأمل الزائف الذي يجعلك تنحت في الصخر حتى تتآكل أظافرك وأصابعك ذاتها وأنت تجاهد للجري خلف سراب.

ولا يترك لك رفاهية اليأس والرضا بالقضاء والقدر، فيعود يلوح لك من بعيد ويعِدك بآمالٍ جديدةٍ كاذبة.

تقضي عمرك في كفاح خلف سراب دون أن تستمتع بالقليل الذي بين يديك، لا تبالي بمعاناة من حولك على أمل أن تحقق حلمك وتعوضهم عن معاناتهم، وكلما وصلت لطريق مسدود يدفعك الأمل الكاذب لمعاناة جديدة ويفتح لك طريق زائف ويمنيك بنهاية معاناتك.

في هذه الحالة يكون اليأس رحمة، أن تعرف أن هذا قدرك وترضى به، وتبدأ في النظر إلى القليل الذي في يديك وتقرر ألا تضعه في البحث عن سراب.

هذا ليس يأساً من رحمة الله -والعياذ بالله- بل هو إيمان بعدم حصر رحمة الله في باب واحد، فربما قدرك أن يظل هذا الباب مؤصداً ولكن تأتيك رحمة الله من باب آخر أو بصورة أخرى.

هذا هو ما أسميه اليأس الرحيم، وهو ما غير حياتي وجعلني أتوقف عن الجري خلف أمل كاذب، أمام باب موصد، والتفت لجهة أخرى فرأيت الدنيا بشكل مختلف."

عبير

انتهت اختباراتي كان موعدي مع عبير في اليوم التالي ذهبت مبكرًا ووقفت أمام كلية الآداب منتظرًا.

وقفت سيارة أجرة أمام البوابة رأيت داخلها عبير ووالدتها، نزلت عبير ودخلت مباشرة إلى الكلية بينما ظلت والدتها في السيارة التي تحركت بها مبتعدة.

أخذت أقطع الطريق ذهابًا وإيابًا أمام الكلية أفكر لماذا وافقت عبير هذه المرة على لقائي؟.

تراها وافقت على ارتباطنا؟

هل تحمل أخبار جديدة عن شفافها؟

ولكن والدتها قالت أن الأطباء لم يمنحهم أي أمل في شفائها.

نظرت في ساعتى.

لازال الوقت مبكرًا.

كان زوج عمتي سعاد قد توفي بالأمس ولم أستطع حضور العزاء بسبب الاختبارات، بيت عمتي قريب من كلية الآداب ولكن الوقت لازال مبكرًا جدًا لكي أذهب لأوقفهم من النوم لأعزيهم. جدي عبد الحميد ولأول مرة لم يستطع المجيء للمنصورة وزيارة زوج عمتي في مرضه الأخير ولم يستطع

حتى حضور العزاء لكن أبى وأعمامى جميعًا حضروا.

كان هذا تغيرًا كبيرًا في حياة جدي، فهو لم يكن يترك مناسبة ولا واجب تهنئة ولا عزاء إلا حضره، ولقد أخذني معه كثيرًا لحضور عزاء أناس لا أعرفهم في قرى ومدن لا أعرفها، فما بالك بزواج أخته التي كان يزورها كلما ذهب إلى المنصورة وكان يأخذني معه دائمًا لألعب مع أبنائها ياسر وعفاف.

قطع أفكارى ظهور عبير خارجة من بوابة الكلية.

عبرت الطريق نحوها مترددًا وقد قفزت إلى ذهني ذكرى لقائنا العام الماضي في نفس المكان ورد فعلها عندما حاولت أن أقرب.

كان رد فعلها هذه المرة مختلفًا إذ ابتسمت عندما رأيتني مما جعلني أسرع الخطا نحوها. حبيتها بكلمات متلعثمة فردت التحية ضاحكة.

-هل انتهى الاختبار بهذه السرعة؟-

- هو لم ينته بعد ولكني خرجت في نصف الوقت.

لماذا هل كان الاختبار سهلاً؟

- سأخبرك ولكن دعنا نجلس في مكان أولاً.

كانت الكافيتيريا القريبة من الكلية صغيرة ولا تتسم بالهدوء فقلت لها أن هناك كافيتيريا هادئة في آخر الشارع.

- لا، لا، هذه الكافيتيريا تفي بالغرض.

عبرنا الطريق سوياً نحو الكافيتيريا الصغيرة وجلسنا.

لاحظت أنفاسها المتقطعة فنظرت لها صامتة فابتسمت ابتسامة باهتة: لا تخف أنا بخير.

عرفت لماذا رفضت أن نذهب للكافيتيريا التي في آخر الشارع، إن كانت أنفاسها تقطعت هكذا من مشي مسافة قصيرة كهذه فمعناها أن حالتها لم تتحسن بل تأخرت كثيراً.

بقيت صامتة حتى انتظمت أنفاسها ثم قالت: كنت تسأل عن الاختبار، حسناً أنا لم أكن أنتوي حضور هذا الاختبار لأنني غبت بالفعل عن معظم اختبارات هذا العام ولكني حددت موعد لقائك اليوم حتى يكون في اليوم التالي بعد آخر اختبار لك، فعندما مر نصف الوقت سلمت ورقة الإجابة وخرجت حتى

أجلس معك وقت أطول لأنني قلت لأمي أن تعود لاصطحابي بعد الاختبار بنصف ساعة.

صمتت قليلاً ثم استطردت: حسناً يا حميد أعرف أنك حتماً تتساءل لماذا وافقت على لقائك ولا بد أنك وضعت احتمالات كثيرة ربما من ضمنها أنني قد شفيت من مرضي أو على الأقل تحسنت حالتي فأعدت النظر في أمر ارتباطنا. -بالضبط هذا ما كان يدور بخدي، ولكن أياً يكون السبب فأنا سعيد بلقائك.

ابتسمت وقالت: لا أريد أن أكون

محبطة لك يا حميد ولكنني كما لا بد أنك لاحظت لم تتحسن حالتي بل هي تسوء باستمرار ولكنني أغلقت ملف مرضي ومحاولات العلاج ومعه موضوع ارتباطنا للأبد.

ولكنني لا أوافقك يا عبير في ربط موضوع مرضك بأمر ارتباطنا، فأنا أحبك وواجبي أن أكون بجانبك خاصة في الوقت الذي تحتاجين فيه لمن يكون بجوارك، وأنا متأكد أنني سأكون سعيداً بجوارك في كل الحالات وأنني سأفعل كل ما بوسعي من أجل راحتك وسعادتك.

-أنا أقدر كل ذلك يا حميد، ولقد كنت أحارب طوال الفترة الماضية من أجل الخروج من هذه المحنة حتى لا أكون سبباً في تعاستك وكنت أدعو الله أن يشفيني كي لا أكون سبباً في شقائك وشقاء عائلتي، وعندما علمت من الدكتورة زينب ما حدث لك العام الماضي بعدما علمت بأمر مرضي وتأثير ذلك على

مستقبلك الذي كنا خططنا له سوياً وقرارك بترك الدراسة زاد ذلك من حزني وكرهي لنفسي وللدنيا كلها، كانت فعلاً فترة عصيبة في حياتي ولكن ظل هناك بصيص من أمل خادع أنني ربما أبرأ من مرضي وأعود لحياتي وتعود لي أحلامي التي ضاعت. حتى جلست مع جدتي أثناء مرضها الأخير، كان ذلك بعد أن أعلن الطبيب الألماني فشل العلاج الذي أتى به وأنه لم يعد هناك حل لمشكلتي، دخلت بعدها في اكتئاب شديد ورفضت كل الأدوية ورفضت تناول الطعام وكنت أدعو الله ليل نهار أن أموت لكي أرتاح من عذابي ويرتاح من حولي مما أسببه لهم من أسى، حتى طلبت جدتي رؤيتي، لازلت أذكر كلامها بالحرف، قالت لي أنها بلغت من العمر أرذله ولكنها ترى عمرها كله أمامها الآن كأنه أياماً معدودة، وأنها نادمة على كل لحظة من عمرها أضاعتها في قلق على شيء في المستقبل أو في حزن على شيء مضى، وأنها لم تستفد من سنوات عمرها كلها إلا بلحظات السعادة واللحظات التي استطاعت فيها إسعاد أحبائها، ورغم الحياة البانسة التي عاشتها إلا أنها نادمة فقط على اللحظات التي أضاعتها بعيداً عن أحبائها، كانت نادمة أنها لم تجد فرصة لتعبر لأبويها وإخوتها قبل وفاتهم عن مدى حبها لهم وامتنانها لوجودهم في حياتها، نادمة أنها لم تقض وقتاً أطول مع زوجها وأبنائها وأحفادها وانشغلت عنهم بأشياء أخرى، لا زلت أذكر كلماتها الأخيرة (يا ابنتي، العمر لا يقاس بطوله وعدد سنينه، بل بلحظات السعادة التي تعيشينها وتشاركينها مع أحبائك قبل أن يفارقوك أو تفارقهم، والسعادة لا تحتاج إلى مال وصحة وطول عمر، هي فقط تحتاج إلى الرضا بما قسمه الله لك بعدها ستظنين حوذك فتجدي الكثير من الأشياء التي يجب أن تسعدي بها والآناس الذين يحبونك ويسعدون لسعادتك، استمتعي بكل مالدك واستغني عن كل ما لم يقسمه الله لك واعلمي على ترك

ذكرى سعيدة في نفوس من حولك قبل أن تفترقوا لسبب أو آخر فالأعمار بيد الله ورب أحياء حولنا قد ماتوا في قلوبنا منذ سنوات ورب أناس غيبهم الموت وهم أحياء في قلوب أحبائهم، استمتعي يا ابنتي بحياتك طالت أو قصرت ولا تضيعي لحظاتك في البكاء على ما مضى أو ما سيأتي، فقط ارضي بقضاء الله وانظري حولك وستفاجأي بكثير من الأشياء التي تستحق أن تسعدي بها قبل أن تضيع).

أكملت عبير: استطاعت جدتي رحمها الله أن تغير تفكيري وتعيد إلى حياتي التي كدت أن أفقدها وسط غابة من الاكتئاب واليأس والدموع، استطاعت أن تترك في نفسي ذكرى سعيدة أذكرها بها دائماً كما نصحتني أن أفعل مع كل أحبائي.

لهذا قررت ألا أضيع لحظة سعادة، وبدأت أرى الأشياء بعين أخرى، بدأت أجد السعادة في أشياء صغيرة؛ مشاهدة الحقول من نافتي، أصوات الطيور في الصباح، رائحة زهور البرتقال من الجنية، قراءة القرآن، سماع أغنية أحبها، رواية جديدة، عندما زارتنى عمك زينب أم سالم (أنت تسميها عمك زينب الكبيرة كما قالت هي لي) ورأيتني أقرأ أحضرت لي مجموعة كبيرة من الكتب من مكتبة زوجها وقالت لي أن أرسل أخي بعد أن أنتهي منها كي تبذلها لي بمجموعة أخرى، بدأت أرى ما أملك وليس ما أفقد، فخلال رحلتي في المستشفيات رأيت الكثير من المرضى الذين يعانون أكثر مني، فأنا والحمد لله- أستطيع أن أرى وأسمع وأمشي على قدمي ولو لمسافة قصيرة، لم أعد أحتاج للبقاء في المستشفى مدة طويلة لتلقي علاج بالوريد، بدأت استمتع بكل هذه الأشياء والأهم من ذلك رؤية السعادة في عيون من حولي ومشاركتهم سعادتهم؛ بدأت أشاهد مباريات كرة القدم مع أبي رغم أنني لا أحبها

- واحتفل معه بهدف الأهل في المقاولين، أساعد أمني في إعداد الطعام وفي إتمام طيورها، أقضي وقتاً أطول مع إخوتي وأصدقائي وأحاول أن أترك لهم ذكرى سعيدة وأعوضهم عما سببته لهم من حزن وأذى في الفترة السابقة.

لهذا وافقت على لقائك اليوم يا حميد كي أعذر إليك عن كل الألم الذي سببته لك، وعن كل الأحلام التي حلمناها سوياً وضاعت بسببي.

تعتذري عن ماذا؟ أنا الذي أعذر لك أنني لم أستطع أن أكون جوارك وقت محنتك، لم أستطع أن أمسح عنك أحزانك ووقفت عاجزاً أمام باب بيتك المغلق في وجهي وأمام ألمك الذي لم أجد سبيلاً لإنقاذك منه. والآن أطلب منك مرة أخرى أن تعطيني الفرصة لأكون بجوارك وأحاول أن أعوضك عما فات فلو أنك وافقت سنستطيع الضغط على والدك للموافقة على ارتباطنا.

موافقة والدي ليست هي المشكلة يا حميد، أنا لا أستطيع أن أربط حياتك بي بظروفي هذه حتى لو كنت أنت على استعداد للتضحية، لا أريد أن أضع حملاً ثقيلاً على علاقتنا، أريدها أن تظل ذكرى سعيدة لكلينا، ثم أنني مؤخرًا اعتدت على حياتي بشكلها الجديد بدون أحلام كبيرة فلا أستطيع الخوض في مغامرة جديدة لا أعتقد أنني سأتحمل عواقبها، لقد وجدت مؤخرًا الخط المناسب لظروفي ولا أريد أي هزة قد تعيدني لمستنقع الاكتئاب الذي خرجت منه للتو. فرجاء لا تحاول فتح باب الأمل مرة أخرى.

صمتت قليلاً ثم أكملت

حسنًا يا حميد دعنا ننس أمر الأيام الماضية، لقد قررت كما قلت لك ألا أضيع وقتًا في اجترار الذكريات الأليمة والبكاء على ما ضاع، دعنا لا نتكلم عن مرضي وفكرة ارتباطنا حتى لا نفسد فرصة لقاء غالبا لن نتاح لنا مرة أخرى،

لقد تحدثت كثيرًا الآن أريد أن أسمعك ولكن تذكر لا حديث عن المرض أو الارتباط.

تحدثنا يومها كثيرًا، كانت تبدو سعيدة وكانت الابتسامة تضيء وجهها، كانت عينيها تبسيمان إن جاز لي أن أقول ذلك مما أشاع السعادة في روحي وأنساني ظروف مرضها، حكيت لها عن تفكيري في السفر وترددي في اتخاذ القرار، فقالت أنها تعتقد أن السفر سيكون خيارًا جيدًا لي حتى أبدأ حياة جديدة ولمحت إلى بعض الكوابيس التي تراها وتربط بين بقائي في العزبة وأشياء سيئة لها علاقة بالجنينة، فوجنت بأمر كوابيسها ولكني لم أرد أن أتطرق للحديث عن الجنينة والكوابيس وهي كذلك بدا أنها لا تريد أن تتحدث عن ذلك.

قراءة الساعتين قضيناها كانتا توازيان حياة كاملة بالنسبة لي. حتى ظهرت السيارة وبها والدتها. نزلت والددة عبير وسلمت على وقالت: سنعود للعزبة بهذه السيارة إن كنت تريد سنوصلك معنا.

كان هذا غير ممكنًا بالطبع فاعتذرت لها وقلت أنني يجب أن أذهب لبيت عمتي لأداء واجب الغزاء في زوجها.

وقفت عبير ومدت يدها مسلمة: أراك على خير يا حميد، وأنا شاكرة على كل لحظات السعادة والمشاعر الجميلة التي شعرت بها بسببك، وتذكر أنك كنت

دائمًا مصدر سعادة لي وأن حياتي بسببك صار لها معنى وصارت أجمل وأني
كنت ولازلت ممتنة لك.

-أنا الذي يجب عليه أن يشكرك لأنك كنت مصدر النور الوحيد في حياتي
وستظلين كذلك للأبد، وتأكدي أنني سأظل بجوارك للأبد وسأظل مستعدًا لفعل أي
شيء يسعدك، وأعدك أن أظل وفياً لحبك ما حييت وأن قلبي محرم دخوله على
غيرك للأبد.

-وأنا أحلك تمامًا الآن من هذا الوعد، أريدك أن تعيش حياتك وتسعد بها،
تتزوج وتنجب أطفالاً، هذا سيسعدني أكثر من بقائك وفياً لي دون داعٍ، لا أريد
أن أكون مصدر ألم لك بعد الآن، فقط أجعلني ذكرى سعيدة في حياتك كما أنت
في حياتي.

وابتسمت ابتسامة أخيرة ثم ركبت السيارة.

الشر

"لن يأتي لك الشيطان قانلاً هذا شرٌّ فارتكبه، إنه يدخل إلينا من شقوق ضمائرنا، يهز ثقتنا في الحلال والحرام حتى تختلط الحدود بينهما فيتسلل منها، يهون علينا الأخطاء الصغيرة حتى يضع قدماً على أرض ضمائرنا بعدها يتحرك حثيثاً حتى يسيطر عليها، يهون الخطأ في أعيننا ثم يزرع في عقولنا قائمة مطولة من المبررات لارتكاب الخطأ، الخطوة الثالثة والأهم ينشر الشر أمام أعيننا ليقتنعنا أن الجميع مخطئون، بل هم جميعاً يرتكبون ما هو أكثر فظاعة مما نحن بصدده، فلماذا ألتزم أنا بالحق والفضيلة بينما الجميع يغش، وعندما يقع الخطأ يكون دوره أن يهون علينا نتائجه فنرى أن شيئاً لم يتغير فنستسهل الخطيئة فتدور عجلة الأخطاء وتبدأ سلسلة لا تنتهي من الانحدار.

فاحذر يا ولدي دائماً من الخطوة الأولى ولا تدعه يتسلل إليك"

عمتي زينب أم علي.

بعد لقائي مع عبير تغيرت أشياء كثيرة.

قررت قضاء وقت أكثر مع جدي عبد الحميد، صرت أجلس معه لنحكي
بالساعات عن جدي سالم وعن نشأة العزبة وعلى الشرقاوي وحسن أبي زينة.

زادت زياراتي لجدي حميدة وعمتي زينب أم جمعة التي لم تتحسن
حالتها.

صرت أقضي وقتًا أطول مع إخوتي محمد وأمل، وأنتهز فرصة عودة
عمر في نهاية الأسبوع لنسهر مع ماجد في بيت عمتي زينب الكبيرة.

الأهم أنني صرت أكثر قربًا من أبي، ذلك الرجل العظيم الذي منحني
بصموده القوة والثقة بالنفس، ما عرفته عن ذلك الرجل من عمتي زينب جعلني
فخورًا به ومنحني الثقة بالنفس لأكون مثله.

أصبحت أساعده في العمل وأذهب بدلاً منه مع محمد للمنصورة من أجل
جلسات الغسيل الكلوي أو زيارات المستشفى الجامعي من أجل التجهيز لعملية
زراعة الكلى.

لم نكن نتكلم أنا وأبي كثيرًا لكنه كان يحثني دائمًا على السفر. لم أكن
قررت بعد هل أسافر أم أبقى في العزبة ولكنه كان يعتقد أن أمر سفري كان
محسومًا.

الوحيدة التي لم أستطع اقتحام عزلتها كانت عمتي زينب عبد الحميد. فقد أصبحت في الفترة الأخيرة معزولة عن الجميع تمامًا، رفضت أي كلام عن عودتها لبيتها تمامًا رغم مجيء عصام أكثر من مرة إلا أنها كانت ترفض لقاءه، رفضت أيضًا كلام جدي عن الطلاق ولم تقبل أي نقاش فيما يخص مستقبلها، لم تعد تريني ما ترسمه من لوحات، وصارت مقتضبة جدًا في كلامها معي.

وافقت مؤخرًا على لقاء عصام عندما طلب لقاءها لمناقشة أمور الصيدلية، أصرت أن تقابله في غرفة الضيوف وألا يتحدث في شيء إلا العمل.

أخذ عصام يتعلل بأمور الصيدلية ليزورها ليعرض عليها الحسابات أو يطلب منها تخليص أوراق في المديرية من أجل العهدة وبعض الأدوية التي لا بد أن تستلمها بنفسها، وأحيانًا كانت تضطر للذهاب للصيدلية عندما يكون هناك تفتيش أو مرور من المديرية، أصبحت علاقتهما علاقة عمل أكثر منها علاقة بين زوجين، ولكنني أعتقد أن عصام كان يتعلل فقط بأي سبب لزيارتها.

كان جدي قد قرأ فاتحة عمي "طه" على بنت عمي عبد القادر وذلك قبل الخلافات الأخيرة.

ولكن بعد انحياز عمي عبد القادر إلى جانب المهندس إبراهيم ومشاركته في الاعتداء على جدي تغيرت الأمور وتجمد مشروع الزواج.

ولكن جدتي أنيسة سمعت أن عمي طه يزور عمي عبد القادر، فتشاجرت معه وقالت له أن أباه لو عرف سيغضب جدًا، ولكن عمي طه قال لها أن أباه هو

من قرأ الفاتحة مع عمي عبد القادر وأن الفتاة ليس لها ذنب فيما حدث وأن جدي لابد وأنه سيصفو لأخيه يوماً ما وستعود العلاقات كما كانت.
ولكن جدتي غضبت جداً ونبهت عليه ألا يفتح الأمر مع جدي عبد الحميد.

ظهرت النتيجة ونجحت.

وبدأت إجراءات التجنيد.

قبل الذهاب إلى مركز التدريب قررت زيارة عمتي زينب أم على في عزبة
الـ ١٨٠.

لم تكن في حديقتها هذه المرة.

كانت جالسة في غرفتها على فراشها وقد بدت أشبه بستي "كل"، رحبت بي وسألنتني عن أحوالي فقلت لها أن أحوالي أفضل كثيراً فنظرت لي متسائلة
فقلت لها:

-لا أدري يا عمتي كيف أصف لك الأمر، ولكنني أشعر أنني أقوى، لم أعد أخاف من الأحلام، لم تعد الأحلام واضحة مثلما كانت، ولم أعد أتذكر معظمها، صارت صورة أبي تملأ عقلي أكثر، طالما استطاع أبي أن يصمد في وجه الشر فأنا أيضاً سأستطيع.

لم تبدُ عمتي سعيدة بما قلت، وقالت: وهل اتخذت قرارك بشأن السفر؟
لهذا جئت إليك. لقد قررت البقاء رغم أن أبي لازال يفكر في سفري وبدأ
بالفعل في البحث عن عقد عمل لي.

ثم حكيت لها عن حلمي الذي رأيت فيه ستي "كل" فابتسمت وقالت:
رحمة الله عليها، وهل فهمت ما تقصده؟
حقيقةً هي زادت حيرتي فقط.

حسنًا هي تريد أن تقول لك ألا تدعه يتسلل إلى قلبك، لا تدع له ثقبًا
يتسلل منه ولو كان صغيرًا جدًّا، فهو قادر على التسلل من أصغر الثقوب حتى
يغرقك كما يتسلل الماء إلى القارب، فلا تدع له الفرصة ولا تطعم نقاء قلبك
بالكراهية كما فعلت أنا بشجرة اليوسفي، فإن قطرة واحدة من الشر لكافية
لتلويث نهر من الخير.

-وهل تعتقدين يا عمتي أنني ساستطيع أن أتحمل تلك المسؤولية؟
-لا أعرف يا ولدي، ولكنه حمل ثقيل جدًّا.

-وهل قلّة الكوابيس عن ذي قبل وعدم وضوحها تعني أنه ينس مني
وسيتركني لحال سبيلي.

-هو يستمد قوته من ضعفك، كلما كنت قويًا قلت سيطرته عليك، ولكني لا أعتقد أنه سيتحرك لحالك، سيحاول معك مرارًا وكل مرة سيأتي إليك من باب مختلف، ولكني أعتقد أنه أيضًا سيحاول مع أفراد آخرين من العائلة.

-إذا هل أبقى يا عمتي؟

-هذا قرارك يا ولدي، هذا مصيرك وعليك أن تحدده وإن كنت أعتقد أنه محدد مسبقًا.

عندما تقدم عمي طه للتجنيد من قبل ذهب جدي إلى المهندس إبراهيم ليتوسط له كي يتم توزيعه في مكان قريب وهو ما تم بالفعل واستطاع المهندس إبراهيم بعلاقاته أن يرسل توصية إلى قائد الوحدة التي تم توزيع عمي طه فيها.

الآن وبعد أن انقطعت العلاقات مع المهندس إبراهيم على أن أعتمد على نفسي.

بعد انتهاء إجراءات التجنيد تم ترحيلي إلى مركز التدريب حيث قضيت فترة عصبية بدنيًا، تدريبات بدنية طوال اليوم، طوابير، أوامر مستمرة، تكدير، تدريب على صيانة المركبات، لا راحة، ما أن تضع رأسك على الفراش في آخر النوم حتى تقفز مفزوعًا من نفير نوبة الاستيقاظ فجراً، لا أحلام، لا وقت للتفكير، نأكل بسرعة قبل أن يضرب النفير، نتيمم لأته لا يوجد ماء، نصلي بالحذاء لأن الوقت لا يكفي لخلع الحذاء الميري الضخم " البيادة " وإعادة

لبسه. كانت فترة عصيبة بدنيًا ولكنها كانت مفيدة لي نفسيًا، لكنني أخذت أجازة إجبارية من التفكير.

بعد فترة التدريب تم توزيعي على وحدتي، وحدة بعيدة جدًا في وسط الصحراء، تم توزيعي على الورشة الخاصة بالوحدة حيث أصبحت أقضي يومي بين الطوابير وصيانة وتنظيف المركبات ثم الوقوف في خدمة الحراسة وطبعًا مع الكثير من تلقي التوبيخ والعقاب والجزاءات من الصول عبد اللطيف.

الصول عبد اللطيف كانت معاملته سيئة جدًا مع الجنود عمومًا ولكنه معي كان أكثر تعسفًا، أوامر باستمرار، يكلفني بأشياء هو يعرف أنني لن أستطيع فعلها ليعود ويعاقبني، سلمني عهدة يعرف جيدًا أنها ناقصة، يكلفني بعمل أكثر من زملائي، تكدير وشتائم، هكذا كان يومي في الورشة حتى طابور الهاتف وتوزيع الخدمات.

في البداية بدت الخدمة بالنسبة لي شيء سهل ناهيك عن ميزة الابتعاد عن الصول عبد اللطيف، فقط تقف في مكان حراستك بالسلاح وإذا اقترب أحدهم تثبته مكانه، تنتهي ساعات حراستك فتوقظ زميلك وتنام في مكان الحراسة حتى يأتي دورك مرة أخرى. لا مشكلة في السهر فأنا معتاد عليه. ولكن الأمر هنا مختلف فبعد إرهاق العمل طول اليوم ما أن تستلم نوبة حراستك حتى تجد أن جفنيك يزنان أطنانًا وأن الجاذبية الأرضية ازدادت أضعافًا حتى لتكاد تشدك شدًا لتنام، عقارب الساعة تدور في تكاسل عنيد وكأنها تدور للخلف وكلما قررت الاستسلام لجسدك المرهق تتذكر جنود الأمن الذين يدورون ليتأكدوا من عساكر الخدمة، لا مزاح في الأمر النوم في الخدمة يؤدي إلى المحاكمة العسكرية فورًا.

في أجازاتي القصيرة للعزبة لم تكن الأمور أفضل.

عمتي زينب عبد الحميد ازدادت حالتها سوءًا مع اقتراب ولادة زوجة عصام الثانية.

انتشرت الأخبار عن توطد العلاقات بين عمي طه وعمه عبد القادر مع أنباء عن مصاهرة متوقعة، جدي بدا حزينًا جدًا ولكنه لم يتكلم مع عمي طه في هذا الشأن.

في مفاجأة كبيرة تم القبض على نائب دائرتنا في المجلس الذي كان سيشتري نصف أرض رجع الجنية من المهندس إبراهيم وبقية إخوة جدي عبد الحميد، تم إيداع النائب السجن رغم نفوذه وعلاقاته الهامة لم أفهم تفاصيل التهمة ولكن يبدو أن الأمر يتعلق بأخذ قروض من البنوك وعدم ردها، الصحف تناولت الأمر تحت عنوان نواب القروض وتم حبس أكثر من نائب.

الأدهى من ذلك تم تأجيل مشروع الطريق الجديد مما أصاب المهندس إبراهيم بخيبة أمل كبيرة فبعد أن قاموا بتبوير الأرض لن يستطيعوا بيعها أو استثمارها.

ورغم أنني اعتقدت أن جدي عبد الحميد سيسعد بهذه الأخبار إلا أنه بدا حزينًا كما هو ولم تفرق مع الأخبار الجديدة.

عقدتي الأزلية تبعني إلى الجيش.

دائماً أتواجد في الوقت والزمان غير المناسبين إطلاقاً، لأجد نفسي شاهداً على كل ما هو خاطيء أو مخالف أو شرير.

أقف خدمة على البوابة لأرى الضابط المسئول عن الميس (المطعم) وهو يرسل كمية من الزيت والسكر وصفيحة جبن مع جندي من نفس قريته لحملها إلى بيته.

أقف خدمة على السلك المحيط بالوحدة لأرى الجنود الذين يهربون ليلاً ويعودون قبل الفجر، الجندي المسئول عن احتياطي الوقود المخزن يسرق الوقود ويبيعه لمحطة الوقود القريبة ويعوضه بماء.

جنود تدخن البانجو ليلاً.

وخلاف ذلك من كل ما هو مخالف ولكني تعودت أن أظل صامتاً.

بدأت الأحلام تعود خاصة في أثناء الأجازات ولكنها لم تكن بوضوحها السابق.

كانت الأجازة عندي تبدأ بلقاء جدتي أنيسة التي كانت تعطيني تقرير مفصل عما فاتني من أخبار العائلة والعزبة.

في إحدى الإجازات أخبرتني أن الشرطة فتشت بيوت وحظائر العزبة كلها بحثاً عن "عوضين".

ولماذا تبحث الشرطة عن عوضين الآن فهو مختفٍ من مدة طويلة ما الذي ذكرهم به؟ وطوال عمره معروف بالسرقة، ما الجديد؟

-هذه المرة يقال أنه انضم لعصابة تختبئ في البحيرة وتعمل على السطو وتهريب الآثار والمخدرات ويقال أنه سرق منهم قطعة آثار وهرب بها، وهناك إشاعات أخرى تقول أنه اعتدى على ضابط في المنزل لأن الحكومة يبحثون عنه في كل مكان.

صدمني الخبر.

عوضين؟!!

إن هو حي، كنت أتمنى من كل قلبي أن يكون هو الضحية التي شهدت دفنها في الجنيّة وذلك جزاء ما اقترفت يداها.

إن من يكون الضحية ومن يكون القاتل؟

ترى هل لعمي حافظ علاقة بالأمر؟

لقد تحدث عنه راعي الذئب قبل الجريمة (حافظ لا بد أن يصمت).

ولم يذكره بعدها قط.

وبعدها اختفى عمي حافظ ولم نعرف عنه شيئاً إلا من خطاباتهِ وكلام
عمي فتحي عنه.

هل يكون هو القاتل، وقد فر خوفاً بعد جريمته؟

لا أتصور أبداً أن عمي حافظ قد يقتل أحداً.

قالت لي جدتي أنيسة-نقلاً عن هدى أرملة التابعي- أن هناك إشاعات
تقول أن عوضين مختبيء في حقول القصب.

هذا معتاد، فحقول القصب كانت دائماً مخبأ أميناً لكل من أراد الهروب،
وكلما هرب أحدهم ظهرت الإشاعات أنه مختبيء في حقول القصب.

لكني وأثناء جلوسي في برج المراقبة ليلاً فوق سطح غرفتي رأيت أخا
عوضين يحمل منديلاً ضخماً ملفوفاً ويمشي متلفتناً في حذر حتى دخل حقول
القصب.

عوضين

" عندما يتعامل معك الجميع أنك شرير ميت الضمير، فإن ذلك يرفع عن كاهلك عبء التصنع وإدعاء البراءة ومحاولة إيجاد مبررات واهية لأفعالك، بالتالي يصير الأمر سهلاً وصريحاً أنا فعلت ذلك ببساطة لأنني شرير، فلا داعي لنصائحكم والكلام الكثير عن الحلال والحرام والصواب والخطأ.

في البداية عليك تجاهل نظرات الازدراء وتعاليمهم عليك كأنهم مجموعة من الملائكة ترفرف بأجنحتهم. بعدها يجيئون إليك طالبين منك أداء مهامهم القذرة، فهذا يريد الانتقام من جاره، وذاك يريد منك حرق محصول فلان أو سم مواشيه وخلاف ذلك مما لا يجرؤون على فعله بأنفسهم-باعتبارهم ملائكة- معتقدين أنك حين تقوم بجرائمهم ستحمل عنهم أوزارهم. حينها ستكون أنت من ينظر لهم بتعالٍ وازدراء بعد ما سقطت عنهم أقنعتهم وأجنحتهم"

عوضين أبو الشاذلي

كان عوضين دائماً رجلاً مختلفاً.

لم يجمع أهل العزبة على أحد مثلما أجمعوا على عوضين، كان رجلاً طويلاً نحيلاً يعوض نحوله بشارب ضخم يتدلى على جانيه فمه يفتخر به دائماً.

أي حادثة سرقة في العزبة أو في العزب المجاورة يكون عوضين دائماً المشتبه فيه الأول. وكثيراً ما كانت تثبت عليه الإدانة.

ولقد رأيته من موقعي في برج المراقبة متورطاً أكثر من مرة في حوادث سرقة بالإضافة إلى جريمة قتل حسنين أبي عبد المقصود.

المشكلة أنه رغم كل ذلك ظل دائماً فقيراً وظل أولاده وزوجته يجدون بالكاد قوت يومهم. فعوضين كان من رواد قهوة ضرغام وكان يداوم على شرب الحشيش ولعب الورق ورغم مهارته في لعب الورق وقدرته على الغش والخداع التي كان يفتخر بها إلا أنه كان يخرج من القهوة وقد ازدادت ديونه.

بالإضافة إلى ذلك كان كثيراً ما يغيب بالشهور دون أن يعرف عنه أحد شيئاً، فيضطر إخوته لرعاية بيته وأبنائه، ثم يعود ليقول أنه كان يعمل في القاهرة أو بورسعيد أو بحر البقر ولكن الشائعات تقول أن معظم هذه الغيابات تكون بسبب حجزه في سجن المركز.

لم يكن عوضين يبالي بشأن ما يقال عنه ولكن إخوته كانوا يشعرون بالخزي من أفعاله ويحاولون عبثاً التغطية على أفعاله التي كانت تمثل عاراً على عائلته وعلى العزبة بأكملها.

وعندما اشتروا له حصاناً وعربة ليعمل عليها حدثت حادثة غريبة، أثناء تجوله بحصانه متباهياً في العربة انهارت عليه قمينة مشتتة في حادثة نادرة لم نسمع عنها من قبل، لا أدري لماذا اقترب عوضين بحصانه من القمينة وكيف انهارت القمينة في نفس اللحظة ولكن ربما هي رسالة عليا لعوضين لعله يتعظ وربما كان يحاول هدم القمينة فانهارت عليه، الغريب في الأمر أن عوضين خرج سليماً إلا من بعض الحروق البسيطة بينما نفق الحصان على الفور.

جمع أهل العربة من بعضهم مالاً لشراء حصان آخر لعوضين وأعطوه المال ولكنه لم يشتتر حصاناً بل عرفوا بعد ذلك أنه باع العربة وأنفق المال وعاد كما كان عاراً على عائلته وعلى العربة.

بعد شهر من المعاناة في الجيش من سوء معاملة الصول عبد اللطيف وضباط الورشة وتكدير وعقاب وحرمان من الإجازات، فجأة استدعاني قائد الوحدة إلى مكتبه. كان إذا استدعاني ضابط الورشة أذهب مرتجفاً فما بالك بقائد الوحدة شخصياً.

لدهشتي عاملني القائد بطريقة غير متوقعة اطلاقاً وأجلسني في مكتبه وأخذ يسألني عن مؤهلي الدراسي وعن مسقط رأسي وماذا يعمل والدي ثم سألني "هل تعرف اللواء عبد المحسن؟" وعندما أنكرت معرفتي به هز رأسه في دهشة ثم عرض على أن ينقلني للعمل في المبيت الخاص به، وهي وظيفة هامة في الجيش تحمي صاحبها من باقي ضباط وضباط صف الوحدة لأن صاحبها يكون تحت حماية القائد شخصياً، المسمى الرسمي للوظيفة هو "متابعة القائد"

أو" بوليس القائد" ومهمته هي تنفيذ أوامر القائد وتلبية طلباته وترتيب مكتبه والمبيت الخاص به، المميزات كثيرة منها الخروج من تحت طائلة ضباط الصف والعساكر القدامى وكثرة الإجازات والإعفاء من الخدمات. ولكن هذه الوظيفة تعرضك لسخرية باقي الجنود باعتبارك خادم شخصي مع تلميحات عن غسيل الملابس وتلميع الأحذية وربما ما هو أكثر مما جعلني أتردد أمام القائد في الموافقة وعندما لاحظ ذلك قال لي:

" خذ وقتك في التفكير، المهم سَلَمَ عهدتك في الورشة وغدًا تنزل أجازة وعندما تعود ستتسلم عملك في مكتب الأفراد ولو ضايقتك أحد في الوحدة أخبرني وإن غيرت رأيك في موضوع المبيت في أي وقت سأنقلك"

أخذت أشكره غير مصدق لما يحدث فأشار لي أن أنصرف فوقفت وأديت التحية له وانصرفت، ولكنه ناداني عندما اقتربت من الباب: " عبد الحميد، أرسل سلامي للواء عبد المحسن".

لم أدر ماذا أقول له، أنا لا أعرف من هو اللواء عبد المحسن ولكنني تعلمت في الجيش ألا أعترض فقلت له " أوامر سيادتكم يا افندم".

ثم انصرفت.

صار استدعائي لمكتب القائد هو حديث الجنود وصف الضباط مع تلميحات عن أنني من المؤكد لدي أقارب مهمين جدًا، وكثرت الأسئلة عن

الوساطات التي جعلت القائد بنفسه يهتم بأمرى وزاد فضولهم بعد ما لم يجدوا لدي إجابة.

أنا نفسي كان يملأني الفضول، ترى من هو اللواء عبد المحسن؟ هل ذهب أبى للمهندس إبراهيم كى يتوسط لى؟ هل يعرف جدى عبد الحميد بذلك؟

سلمت عهدتى الناقصة للصول عبد اللطيف الذى لم يجرؤ على الاعتراض مع الأوامر الواضحة من القائد أن أسلم عهدتى اليوم.

استلمت تصريح إجازتى وغادرت الوحدة غير مصدق لما يحدث.

وصلت المنصورة فى وقت متأخر فقررت المبيت مع عمر حتى الصباح، كان عمر يقيم فى شقة صغيرة مع عدد من زملائه.

وعندما سألته إن كانت العلاقات بين جدى والمهندس إبراهيم قد عادت غضب بشدة من مجرد ذكر الفكرة وعندما حكيت له ما حدث مع قائد الوحدة أخذ يضحك وقال: طبعاً لم يكن المهندس إبراهيم هو من توسط لك، ولكن خمن من يكون؟

قلت له فى حيرة: لست أدري، ربما كلم أبى العمدة أو الشيخ أبا المكارم؟

ضحك وقال: لا، إنه ياسر ابن عمك سعاد.

فقلت فى دهشة: ياسر؟ هل تعنى أنه كلم أحد معارف والده رحمه الله؟

-لا، لا، ياسر بنفسه هو من توسط إليك، وأنا الذى كلمته وطلبت منه ذلك.

-وكيف فعل ذلك، أنا آخر عهدي به أنه كان يعمل مدرساً في أحد المعاهد الأزهرية.

-لقد تغير حاله تماماً، إنه الآن يعمل مترجماً في وزارة الخارجية وربما يسافر إلى الخارج قريباً، لقد كنت في زيارة لعمتي سعاد الأسبوع الماضي حين اتصل بها فكلّمته وحكيت له معاناتك في الجيش.

ذهبنا لمنزل عمتي سعاد وشكرناها وطلبنا منها أن تشكر ياسر ثم قضينا الليلة نتمشى في شوارع المنصورة وأنهيناها بعشاء ثقيل من شطائر الفول والطعمية ثم عدنا لشقة عمر، وبينما عاد هو لكتبه ومذاكرته كان للشطائر مفعولاً مخدراً معي فما أن وضعت رأسي على الفراش حتى.

لمع الضوء الأصفر في وجهي بقوة.

ضحكة شريرة أسمعها للمرة الأولى.

"لن تستطيع الهرب مني" كان صوته راضياً مما أثار قلقي.

كان الضوء الأصفر قوياً لدرجة أنه أعمى عيني عن كل ما حولي.

"كلما ابتعدت سيقترّب مني آخرون"

"سيغريهم بريق النار ودفنها"

لم أتحرك من مكاني محاولاً أن أبداً غير خائف.

عل كل حال لم أكن أرى أي شيء حولي.

"سيبذلون كل جهدهم حتى يقتربوا"

"سيقترفون أي شيء في سبيل الحصول على القوة "

شعرت بأصوات لهاث الذئاب تقترب.

"سيحاولون الحصول على رضاي بأي ثمن"

"ومن يقترب منهم أكثر من اللازم ستحرقه النار"

بدأت أشعر بأنفاس الذئاب على كف يدي.

"وستتحمل أنت وزر ما اقترفوه"

"وستتحمل أنت ذنب ما سيحدث لهم"

"وفي النهاية "

"لا مفر"

"ستعود إليّ"

صحت مفزوعاً وسط دهشة عمر فقلت له أن هذا بسبب العشاء الثقيل
وأنه كان من الأفضل ألا أنام بعد العشاء مباشرةً.

شربنا الشاي سوياً ثم قلت له أنني سأنزل أتمشى في الشارع قليلاً فعرض
على أن يأتي معي فقلت له أن يكمل مذكرته وأني لن أتأخر.

أخذت أقطع الشوارع الخالية بينما الأفكار تتصارع في رأسي.

لم أر كوابيس بهذا الوضوح منذ شهور، ثم إن الكابوس أتاني بعيداً عن
العزبة. لماذا كان يبدو صوته راضياً، لا بد أن شيئاً شريعاً حدث.

ترى من هم الآخرون الذين اقتربوا منه وماذا اقتربوا في مقابل ذلك.
ولماذا أتحمّل أنا أوزارهم.

ولماذا يبدو واثقاً أنني سأعود إليه.

لقد ظننت أنني تمكنت من الهروب من برائته بعدما قلت الكوابيس
وصارت أقل وضوحاً.

ولكن يبدو أن عمتي زينب أم على كانت على حق.

يبدو أنه سيحاول معي مراراً وسيأتي لي كل مرة من باب مختلف.

لا بد أن أكون مستعداً له.

عدت بعد الفجر وجدت عمر نائماً على مكتبه وقد سقطت رأسه على
كومة كتبه، أيقظته ودفعته دفعاً للفراش وحملت حقيبتي واتجهت للموقف ونمت
في السيارة بعدما أخبرت السائق أن ينزلني في محطة قريتنا.

وعندما وصلت السيارة نزلت نصف نائماً حتى أنني لا أذكر كيف قطعت
الطريق حتى عزبتنا تماماً

مثل حمار جدي عبد الحميد الذي يحفظ الطريق من الغيط للدوار وحده.

وعندما وصلت العزبة عرفت أن هناك أمراً جلاً.

مجموعة من رجال العزبة مجتمعون تحت الجميزة.

وقبل أن أدخل العزبة عرفت الخبر.

لقد وجدوا جثة عوضين فجر اليوم.

جثته الممزقة.

اقترِب أكثر من اللازم

" المشكلة أنه عندما تقرر أن تكون شريرًا عليك أن تكون ذكيًا سريع البديهة، فعندما تلوح لك الفرصة عليك أن تقتنصها على الفور فإن تأخرت قليلاً وترددت ستضيع الفرصة وستندم على حماقتك.

لذلك لا بد أن يكون ذهنك حاضرًا كي تأخذ قرارك دون تردد لأنها ربما تكون فرصتك الأخيرة فكن شجاعًا وتحرك على الفور فإن حالفك الحظ ستقتنص الفرصة التي ستغير حياتك كلها.

المشكلة هنا أنه لا ضمان في الأمر، فربما بعد كل ذلك تكتشف أنها فعلاً فرصتك الأخيرة، وأن اقتناصك لها كان أكبر وآخر حماقة في حياتك.

الميزة فقط أنه لن يكون هناك وقت للندم."

عوضين أبو الشاذلي

صارت عزبتنا الهادئة كالبحر الهائج.

الخفر يملأون العزبة ببنادقهم العملاقة التي نعرف جميعًا أنها لا تعمل.

الجنود من المركز يحرسون المكان الذي وجدت فيه الجثة في أرض رجع الجنية في الجزء الذي آل للمهندس إبراهيم.

عائلة عوضين يطالبون بدفنه بينما يقول العمدة أنه لابد من انتظار تقرير الطبيب الشرعي.

تحقيقات في المركز.

اضطر المهندس إبراهيم للمجيء من القاهرة لحضور التحقيقات مع بقية إخوته لأن الجثة تم العثور عليها في أرضهم.

بين الحين والآخر يعلو صراخ الحريم من باب المجاملة فلا أعتقد أن هناك من حزن على رحيل عوضين إلا أمه وربما زوجته، لكن أحدًا لم يتمن أن تكون نهايته بهذا الشكل المفزع.

جلست مع جدتي أنيسة فحكت لي التفاصيل، عبد اللاه أبو سعد كان ذاهبًا للغيط حين رأى شيئًا في الأرض التي بورها إخوة جدي. وعندما ذهب لتفقد الأمر وجد جثة ممزقة ببشاعة تعرّف فيها بصعوبة على شارب عوضين، عاد عبد اللاه إلى العزبة صارخًا وجمع رجال العزبة وعادوا للجثة وأرسلوا للعمدة

الذي جاء بنفسه وجعل الخفر يخلون المنطقة ويمنعون أهل العزبة من الذهاب للغيط أو الخروج من العزبة حتى يأتي العسكر من المركز.

يُقال أن الجثة كانت ممزقة كأنما نهشتها وحوش مفترسة رغم أنهم وجدوا بجوارها طبنجة وسنجة كبيرة.

بعد يومين من التحقيقات صدر تقرير الطب الشرعي وسمحوا لأهل عوضين باستلام جثته ودفنها، كان العزاء سريعاً، ليوم واحد فقط، ومع ذلك غيم الوجود على العزبة طوال أيام إجازتي. ترى هل ما حدث لعوضين يفسر الكابوس الذي رأيته في شقة عمر في المنصورة؟

هل ما حدث لعوضين هو ما جعله راضياً؟

هل كان عوضين هو (الآخرين) الذين ذكرهم راعي الذئب؟ أم أن هناك فعلاً آخرون وقعوا تحت تأثير غاياته؟

لم تكن عبير في العزبة كما عرفت مما زاد جو العزبة كآبة.

لم أستطع اقتحام عزلة عمتي زينب عبد الحميد التي ساءت حالتها بشكل غير مسبوق.

اشتعلت الأمور بين جدي عبد الحميد وعمي طه بعدما قرر الأخير أن يعلن رسمياً خطبته على بنت عمه عبد القادر، ورغم محاولات أبي لتهئية الأمور إلا أن الأمور وصلت لطريق مسدود، وترك عمي طه البيت غاضباً.

كان عمر مشغولاً باختباراتهِ فلم يحضر للعربة وكان ماجد في القاهرة حيث توسط له ياسر ابن عمتي زينب للعمل في مدينة الإنتاج الإعلامي.

خلاصة القول كانت إجازة كئيبة جداً.

ولأول مرة لا أشعر بالحسرة عند قرب انتهاء الإجازة، كنت أجلس فوق برج المراقبة في آخر ليلة قبل العودة للجيش، أهدق في النجوم التي تملأ السماء والتي لا بد أنها تنظر لي باستخفاف واستهزاء، فهي لا بد رأت ما حدث لعوضين، كما رأت ما حدث للتابعي والآخرين حتى حسن أبو زينة، وتعرف ماذا وجد علي الشرقاوي وأين ذهب بعدما هجر العربة، وتعرف ماذا وجد جدي سالم ومحمد الرفاعي ومن الضحية التي حضرت دفنها في الجنيحة وغير ذلك من ألغاز عزبتنا.

أخذت الأفكار تتدافع في ذهني بينما النوم يداعب جفني وأنا أقاوم خوفاً مما قد أرى في منامي.

أخذت أقاوم النوم متخيلاً أنني أقف بسلاحي خدمة على مخازن السلاح وأن عبد الفتاح جندي الأمن ثقيل الظل يقترب محاولاً اصطيداً جندياً نائماً أو

جالساً حتى يبلغ عنه كي ينال هو إجازة إضافية غير مبالٍ بما سيحدث للجندي المعاقب.

لابد أن أكون حذراً، شددت قبضتي على السلاح، ها هو عبد الفتاح يقبل من ناحية حقول القصب، الجندي الواقف حراسة على حقول القصب يثبته سائلاً عن كلمك سر الليل، ابتسمت عندما وصل خيالي لهذه النقطة، لابد أنني جننت، سمعت النداء من الجندي الواقف لحراسة منزل عبير

"خدمة برج المراقبة تما اا ام؟"

فرددت عليه النداء: "تما اا ام"

كما تعودنا لابقاء أنفسنا مستيقظين ثم ناديت بصوت عالٍ على جندي حراسة المسجد

"خدمة مسجد شهيد الفجر تما اا ام؟"

فرد النداء: "تمام".

اتجه عبد الفتاح مبتعداً نحو طريق عزبة فرنسا، هذا جيد ولكن لابد من الحذر لأنه قد يعود في أي لحظة أو قد يظهر جندي أمن آخر.

لابد أن أبقى مستيقظاً.

لابد أنني جننت فعلاً ولكن لا بأس بالجنون في سبيل البقاء مستيقظاً.

لا بد ألا أنام.

لا بد ألا أنا...

سطع الضوء الأصفر.

صوت صرير مرتفع.

الأغصان تتلوى على السقف.

الجزور تزحف على الأرض محاولة الإمساك بقدمي.

إنه يضحك مرة أخرى.

"أحسن، لقد اتخذت القرار الصحيح أخيرًا، وأعدك أن الندم لن يعرف طريقًا إلى قلبك، الآن أنت في جانبي، وجانبي هو الجانب الأقوى دائمًا لن تندم على قرارك، لن تندم أبدًا"

قمت مفزوعًا لأجدني فوق سطح غرفتي أصرخ "اثبت، اثبت محلك، كلمة سر الليل"

ثوانٍ مرت حتى استوعبت أنني فوق سطح غرفتي ولست في محل خدمتي في الجيش.

سمعت صوت الصرير.

فنزلت بسرعة وانطلقت نحو غرفة المخزن فوجدتها مغلقة، دخلت البيت فوجدت الكل نائمين، طرقت باب عمتي زينب فلم تجب كالمعتاد.
عدت لغرفتي.

الكابوس كان في غرفة المخزن هذه المرة.

ترى هل كان كلامه لي أنا.

كنت أشعر أن الكلام موجه لشخص آخر ولكني لم أرَ أحداً.

لمرة أخرى كان راعي الذناب راضياً وهو ما أقلقني جداً.

أعتقد أنني لم أعد أحتاج لجنود الأمن كي أبقى مستيقظاً حتى الصباح.

عدت لوحدي.

استلمت العمل في مكتب الأفراد مع الصول صابر، العمل في مكتب الأفراد يعتبر رفاهية كبيرة بالنسبة للعمل في الورشة، فيما عدا طابور الصباح كل ما أكلف به هو أعمال مكتبية فقط؛ إعداد الأوامر اليومية وجدول الخدمات والإجازات، دفتر الأوامر وأوامر التكليف وما إلى ذلك.

كلها أعمال دقيقة لا تقبل الخطأ، بالإضافة للتعامل المباشر مع القائد ورئيس العمليات والضباط وهو ما لم أكن أحبه.

ولكن على أي حال الأمر يعتبر رفاهية بالنسبة للعمل في الورشة تحت وابل من سباب الصول عبد اللطيف، صرت أرتدي زيًا نظيفًا أؤدي عملي في الظل والأهم من ذلك لم أعد أقف خدمة بالسلاح.

الصول صابر كان شخصية عصية على الفهم، هو غالبًا ما يكون صارمًا جدًّا، توحى ملامحة بالجدية الشديدة مما يتناسب مع العمل الدقيق الذي يقوم به، وأحيانًا أخرى أراه ساخرًا كثير المزاح لا يتوقف عن السخرية من الجميع- خاصة أنا- مع توزيع ما يستجد من النكات ذات الإيحاءات النابية غالبًا- على كل من يقابله.

كان الصول صابر صبورًا معي في البداية وكان حريصًا على مراجعة كل ما أكتب، وعلى عدم تكليفي بشيء يخص القائد أو دفتر الأوامر، وأخذ يحثني على أن أكتب بخط واضح لأن هذا أساسي في عمل قسم الأفراد، ووطلب من سمير وحسن جنديي الأفراد الأقدم أن يعلماني كل شيء.

سارت الأمور بشكل جيد في قسم الأفراد، الصول صابر يوزع العمل بيني وبين حسن ثم يطلب من سمير مراجعة ما أقوم بكتابته لأنه غالبًا سيحتاج لإعادة كتابته من جديد.

لم أبال بكثرة سخرية الصول صابر من أخطائي لأنني جديد في مكتب الأفراد وما ألبث أن أتعلم كل شيء كما تعلمه الآخرون فالأمر ليس صعبًا ولا معقدًا. ولكن الشكاوي لم تتوقف.

وقبل إجازتي بيوم كنت منتظرًا أن يعود حسن من إجازته لأنزل أنا في اليوم التالي، كلف رئيس العمليات سميعر بمهمة في القاهرة وصرت وحدي في المكتب فكلمت الصول صابر: هل هذا يعني أن إجازتي تأجلت؟

فقال لي: لا ستنزل إجازتك إن شاء الله في الصباح الباكر ولكن جهز الأوامر واليومية وجدول الخدمات وحسن سيعود الليلة سيقراً هو الأوامر في طابور الصباح.

جهزت كل العمل وحدي، ووزعت جدول الخدمات بعد طابور الهتاف وهو طابور انتهاء اليوم في الخامسة مساءً، طبعاً كان الجدول زاحراً بالأخطاء واضطرت لتعديله عدة مرات وسط غضب الضابط النوبتجي والصول صابر، أكثر من جندي كان اسمه مكرراً في أكثر من خدمة، أخيراً في السادسة استطعت تعديل الجدول وبلغت كل فرد بمحل خدمته.

وفي المساء عاد حسن فسلمته الأوامر والدفاتر وجهزت نفسي للإجازة.

وفي السادسة صباحاً أخذت تصريح الإجازة وخرجت.

طوال الطريق كنت أفكر في كوابيس كانت تراودني في آخر أيام قبل الإجازة، لم تكن كوابيس واضحة ولكن كل ما أتذكره هو أن راعي الذئب كان راضياً، وكانت ضحكته تتردد في رأسي.

لابد أن شيئاً شريراً قد حدث فهو لا يسعده إلا المصائب.

ترى ماذا حدث.

عندما وصلت العزبة كان كل شيء يبدو هادئاً.

أطفال يلعبون بجوار التربة، أولاد يلعبون الكرة وهم بزي المدرسة،
مجموعة من نساء القرية متجمعات عند مصطبة التابعي يستمعن في تركيز
لهدى وهي تحكي بصوت منخفض.

كل شيء يبدو طبيعياً.

دخلت دار الرفاعي فوجدت جدتي أنيسة جالسة في الشرفة والحزن يكسو
ملامحها.

ودون أن أسألها حكّت لي كل شيء.

"لن تندم أبداً"

"أحياناً تعطيك الدنيا ما ظللت تتمناه لسنوات طويلة، وظللت تتخيل كم السعادة التي ستشعر بها إن حصلت عليه، ولكن للدنيا ألاعيبها الماكرة، فقد تعطيك ما طلبته وفي مقابل ذلك تأخذ منك في المقابل شيئاً آخر فتضيع عليك فرحتك، الأسوأ عندما تعطيك الدنيا ما تمنيته ولكن بعد فوات الأوان، تعطيك إياه بعدما تكون فقدت رغبتك فيه ولهفتك إليه، وبدلاً من استقباله بالفرحة كما كنت تتخيل تستقبله فقط بالحسرة "

عصام

بعد سفري بيوم واحد وضعت زوجة عصام بنتين توأم ولكنها نزلت كثيراً وحاول الأطباء إيقاف النزيف دون فائدة وتم تحويلها للمنصورة ولكنها توفيت في اليوم التالي.

هكذا حكّت لي جدي أنيسة: "وعندما علمت عمّك زينب بذلك دخلت في موجة من الصراخ ولم تتوقف حتى فقدت الوعي ونقلناها للمستشفى وقال الأطباء أنها مصابة بانهيار عصبي وعادت من المستشفى بعد يومين ولكن

حالتها لم تتحسن، نعطيتها الأدوية التي وصفها الأطباء حتى تهدأ فتظل نائمة معظم الوقت ولكنها عندما تصحو لا تتوقف عن البكاء، وأمس وجدتها في المطبخ تحاول أن تجرح معصمها بالسكين والأسبوع الماضي حاولت ابتلاع عشرة أقراص من دوائها لولا أن رآها عمر. والآن اتفقتا ألا نتركها وحدها حتى وهي نائمة لأنها حتى أثناء نومها أحياناً تظل تتلوى في ألم وتستيقظ صارخة".

دخلت غرفة عمتي زينب فوجدت جدي عبد الحميد يجلس بجانبها يقرأ القرآن بصوت خافت ولما رأيته أشار لي ألا أصدر صوتاً حتى لا أوقظها.

خرجت لجدتي أنيسة في جلستها الحزينة وسألتها عن أبي فقالت أنه ذهب لبيت أمه ليساعد في نقل الأثاث من البيت القديم.

وعندما نظرت لها في دهشة فسرت: "أثناء المطر الشديد ليلة أول أمس انهار سقف بيت جدتك"

الحمد لله لم تصب جدتي حميدة ولا عمتي زينب أم جمعة، فقط انهار جزء من السقف مع المطر في غرفة الضيوف، رفضت جدتي حميدة رفضاً تاماً أن تقيم مع أبي فاضطر أبي أن يستأجر لها شقة قريبة من بيتها القديم.

عندما أخبرتني جدتي أنيسة بما حدث ذهبت للبيت القديم فوجدت أبي ومعه رجلان ينقلون أثاث المنزل على عربة جدي عبد الحميد، أخذت أساعدهم في نقل الأشياء ثم ذهبنا إلى الشقة التي استأجرها أبي على بعد شارعين،

وجدت خالتي سامية (زوجة أبي) تساعد جدتي حميدة في ترتيب الأشياء، بينما كانت عمتي زينب أم جمعة جالسة على حشية على الأرض في إحدى الغرف تسبح على مسبحة في يدها.

بعدما انتهينا من نقل الأثاث جلست بجوار عمتي زينب أم جمعة وسألتها عن حالها: "الحمد لله يا حميد في خير ونعمة، كان من الممكن أن نصاب أو أن يسقط علينا شيء وأنت تعرف أن حركتي بطيئة ثم إن الأطباء حذروني من أي جرح لأنني أتناول بانتظام علاج لتسييل الدم كما تعرف، فالحمد لله الذي سلم وأخرجنا سالمين، وسوف نتعود على هذا البيت الجديد وهو أفضل من بيتنا القديم بكثير حتى يعود ابني عبد الله إن شاء الله ويعيد بناء بيتنا القديم، الحمد لله"

لن تكف عمتي زينب عن إدهاشي بصبرها، ستنظل دائماً حامدة شاكرة مادام قلبها النقي يدق دقاته الشبيهة بدقات الساعة.

طلبت أن استلم مناوبة الليل بجوار عمتي زينب عبد الحميد، أعطاني عمر شريطاً من الأقراص وقال لي أن أعطيها نصف قرص منه في حالة إذا دخلت في نوبة البكاء والصراخ.

جلست على مقعد بجوار فراشها وأخذت أفكر فيما آل إليه حال تلك المسكينة، هذه الفتاة الواعدة التي كان يتوقع لها الجميع مستقبلاً باهراً.

ولكن ترى ما الذي أوصلها لما هي فيه الآن.

لقد توفيت زوجة عصام، ولكن ما الذي يدفع عمتي زينب للانهايار
العصبي حزناً على ضررتها.

لا أعتقد أن أم المتوفية ذاتها حزنت عليها بهذا الشكل.

هل تشعر بالذنب لأنها لم تكن تحبها.

هل يؤنبها ضميرها على دعوة دعيتها عليها في ساعة غضب؟

أم يؤنبها ضميرها على شيء آخر.

قفز إلى ذهني صوت صرير باب غرفة المخزن وصوت ضحكة راعي
الذئاب.

"أحسننت، لقد اتخذت القرار الصحيح أخيراً، وأعدك أن الندم لن يعرف
طريقاً إلى قلبك، الآن أنت في جانبي، وجانبي هو الجانب الأقوى دائماً"

ترى هل دخلت عمتي زينب المخزن في ذلك اليوم؟

هل كان كلامه موجهاً إليها؟

وبم وعدّها؟

وهل هذا سبب ما هي فيه؟

أخذت أهرز رأسي في عنف وفلتت من شفتي كلمة "لا".

تقلبت عمتي زينب في فراشها وفتحت عينيها في وهن.

كيف حالك الآن؟

حركت شفتيها وبالكاد سمعت صوتها: الحمد لله.

ثم أغمضت عينيها مرة أخرى.

نظرت إلى ملامحها التي تفوح بالطيبة والنقاء، عمتي زينب التي لم أسمع منها أو عنها إلا كل خير التي كنت أراها دومًا مثلاً للنقاء والطيبة في هذا العالم، لا يمكن أن تكون كما تخيلت.

مهلاً ولماذا أصلاً أتخيل هذه الخرافات من المؤكد أن هذا الشيء هو من زرع هذه الأفكار الشريرة في عقلي، عمتي لا يمكن أن تؤذي نملة، وهو أيضًا لا يستطيع أن يفعل ما يقول، أية قدرات يملك حتى يدعي أنه يستطيع أن يفعل كل ذلك، كائن بهذا الشر ليس من المفروض أن أتوقع منه أن يتحلى بالصدق.

إنه يكذب.

إنه يكذب.

قضيت الإجازة بين بيت جدتي حميدة لأساعد في ترتيب البيت وقضاء حوائجها وبين مناوبات الحراسة على عمتي زينب عبد الحميد التي تحسنت حالتها تدريجياً.

كنت أقضي الليل في حجرتها حتى الفجر حين يتولى جدي عبد الحميد المناوبة وأذهب أنا لبيت جدتي حميدة لأنام هناك بعيداً عن الجنية وأحلامها وأقضي النهار عندها.

أثناء مناوباتي في غرفة عمتي حاولت أن أشاهد اللوحات التي كانت تخفيها عني على أجد فيها ما يفسر لي ما حدث لها، ولكني لم أفهم شيئاً فلوحاتها الحديثة غامضة جداً ومليئة بالخطوط والأشكال المتداخلة.

قبل أن أعود للجيش حاولت أن أتكلم معها وسألتها إن كان من الممكن أن استفسر عن شيء، ولكنها أدارت وجهها وقالت لي أنها لا تريد أن تتكلم في أي شيء.

عدت للجيش فوجدت مفاجأة في انتظاري.

أخبرني سمير أنني لم أعد أعمل معهم في مكتب الأفراد، وعندما سألته عن السبب حكى لي.

يوم نزلت إجازة قرأ حسن الأوامر التي كتبتها أنا، وكانت للأسف مليئة بالأخطاء بالإضافة إلى أن الخط كان سيئاً جداً فلم يستطع حسن قراءة الكثير من الكلمات فاضطر أن يخطأها، كان رئيس العمليات غاضباً جداً وأعطى حسن جزاءً خمسة أيام حجز بالوحدة، وعندما رأى دفتر الأوامر سأل الصول صابر عن كتب هذه الأوامر، وعندما أخبره الصول صابر أنني من كتبتها وأن قائد الوحدة شخصياً هو من أمر بتعييني في مكتب الأفراد أمر رئيس العمليات

بإخراجي من مكتب الأفراد وقال إنه سيتحدث هو مع سيادة القائد ويفسر له الأمر.

سألت سمير " وأين سأذهب إذا؟ هل سأعود للورشة؟"

هز سمير كتفيه في صمت.

ما أن غيرت ملابسني حتى جاءني بوليس قائد الوحدة حاملاً رسالة من القائد: " سيادة القائدة يقول لك إن كنت تريد العمل معنا في مبيت سيادته تستطيع المجيء من اليوم وإن كنت لا تريد عليك غداً العمل في مكتب التدريب"

وعندما أبلغت الجندي بأنني أختار مكتب التدريب حاول أن يقنعني بالعمل معه في المبيت وأخذ يعدد لي مزايا العمل مع القائد ونصحني ألا أصدق الإشاعات السخيفة التي يطلقها الجنود.

ولكنني صممت على رأيي.

وانتقلت للعمل بمكتب التدريب.

طبعاً تكرر الأمر، ظللت في مكتب التدريب شهراً ثم تم نقلي لمكتب الأمن وهو المكان الذي يتمناه أي جندي في الجيش لما يتمتع به جنود الأمن من مميزات ولكن وظيفة جندي الأمن أن يتكلم بينما اعتدت أنا أن أصمت مهما رأيت وكان ما أراه كثيراً، انتقلت بعدها لمكتب الإشارة ثم ميس (مطعم) الضباط ثم مندوب الوحدة المسؤول عن شراء المستلزمات من الخارج حتى استقر بي الأمر في كائتين الوحدة.

سبقتني سمعتي إلى الكانتين بعدما فشلت فشلاً ذريعاً في كل مكان عملت فيه. الجندي المسئول عن الكانتين هو محمود أبو عمو، ولقد أطلق عليه الجنود لقب "أبو عمو" لأنه كان عندما يغضب-وهو غاضب دائماً- ينادي بها من أمامه "لا يا أبو عمو".

بدأت العمل مع أبو عمو في الكانتين، الموضوع بسيط، إعداد الشاي وشطائر الطعمية والبيض المقلي، تسجيل الحساب في الدفتر، حيث أن غالبية الجنود لا يدفعون نقداً بل "على التقريشة" كما يقولون، أي على الحساب حتى آخر الشهر حين يذهب محمود أبو عمو بالدفتر لمكتب الحسابات حتى يحصل نقوده من كل جندي فور أن يستلم راتبه القليل جداً.

لاحظت أن محموداً أخطأ في تسجيل حساب أحد الجنود فنبهته فقال لي بغضب وبلهجة أهل المنيا المحببة "لا يا أبو عمو، مش أما تبص في الدفتر خالص، خليك في شغلك وسخن الأومايات وجهاز الشاي وأنا أما أخذ بالي من الحساب".

تعودت بعدها على الصمت، فهو يغالط في الحساب متعمداً مع الجنود وصف الضباط وحقته في ذلك أن الكانتين لا بد أن يحقق مكسباً لا يقل عن الشهر السابق وإلا تم تغييره وتسليم الكانتين لجندي آخر.

اعتدت على العمل في الكانتين، تسلم الطلبات من المندوب-وهي كانت مهنتي السابقة التي فشلت فيها- تجهيز الشطائر والشاي، المهم أنني بعيد عن الطواوير وعن أعين ضباط الصف.

بالنسبة للعزبة استقرت حالة عمتي زينب عبد الحميد ولكنها بقت على صمتها ووجومها.

حاول عصام زيارتها أكثر من مرة ولكنها رفضت أن تقابله.

وفي إحدى إجازاتي وصلت المنصورة فقررت زيارة عمر أولاً، ولكن زميله في السكن صعقتني بالخبر "عمر في المستشفى مع والده"

جدي

"لا يا أبو عمو، الدنيا مش أما ينفع فيها الطيبة دي، لازم أما تعرف
مصلحتك فين يابيه، لازم تقاوح وتخربش مش أما تُجعد كيه، الدنيا مليانة ديابة،
لازم قبل أما هي تاكلك إنت تلغمها"

محمود أبو عمو

ساعدني زميل عمر كي أدخل المستشفى دون الانتظار لوقت الزيارة.

لولا طبعًا لما استطعت دخول المستشفى الجامعي والأدهى أنني لم أكن
أصل لمكان جدي وسط متاهة الممرات داخل المستشفى.

دخلت القسم المزدهم بالمرضى الراقدين على أسرته على جانبي القسم.
أشار زميل عمر على أحد الأسرة فرأيت جدي راقداً على أحد الأسرة بينما أبي
يجلس على بطانية على الأرض بجوار الفراش.

انطلقت نحو جدي وقبلت رأسه وقلت: ألف سلامة عليك يا جدي، ماذا حدث؟

رد على أبي:- لا تخف يا عبد الحميد جدك صلب ولا يسقط بسهولة.

طمأنني أبي وقال أن جدي بخير وأن الأطباء قد يسمحون له بالخروج غداً.

خرج عمر من حجرة الطبيب المناوب وقال إنه سأل الطبيب فطمأنه على حالة جدي وقال إن حالته مستقرة ومن الممكن خروجه غداً.

شرح لي عمر ما حدث: لقد استيقظت جدتي أنيسة على صوت أنين لتجد جدي يمسك ب صدره بقوة ويئن. فنادت على أبي بسرعة لينقله للمستشفى فأحضر أبي سيارة وأخذه فوراً إلى المنصورة وهناك اكتشفوا أنه مصاب بذبحة صدرية أو جلطة بالقلب. يصر عمر أنه مصاب بالاثنتين معا أو أنهما شيء واحد، لم أفهم- وتم حجزه بمستشفى الطوارئ لمدة يوم ثم تم نقله للمستشفى الجامعي حيث يرقد منذ ثلاثة أيام.

وحكى لي عمر أن أبي يرافق جدي منذ دخوله ورفض تماماً أن يبيت عمر أو عمي طه مع جدي بحجة أنهما لن يستطيعا تحمل معاملة الممرضات والعمال وطلبات جدي الكثيرة وإزعاج المرضى الآخرين وذلك رغم أن أخي محمد وخالتي سامية تم حجزهما بمركز الكلى من أجل عملية زراعة الكلى والتي ستجرى اليوم.

أخذت أحدث مع جدي وبدا لي فعلاً بصحة جيدة.

في وقت الزيارة جاءت جدتي أنيسة وعمي طه وعمتي زينب عبد الحميد التي صارت أفضل حالاً وإن بدا وجهها حزيناً جامداً كأنما لم تشق صفحته الابتسامة قط.

أحضرت جدتي الكثير من الطعام معها وطبعاً لم تنس فطير الذرة والمش طعام جدي المفضل.

لاحظت أن علاقة جدي بعمي طه لم تعد على مايرام رغم أن عمي طه قبل يد جدي وجلس بجواره.

نادى أبي على عمي طه وقال له أنه سيذهب لمركز الكلى ليتفقد محمد وخالتي سامية بعد العملية وطلب منه أن يظل مع جدي حتى يعود وقال لي أن أصطحب جدتي وعمتي بعد الزيارة إلى العزبة، فقلت له: سأظل أنا مع جدي الليلة ويمكن لعمي طه أن يعود مع عمتي وجدتي.

فرد أبي بحدة لم أعدها فيه: لا ثم أكمل بغضب: قلت طه هو الذي سيظل مع أبي وأنت وعمر توصلوا خالتي أنيسة وزينب.

ثم نظر إلى عمي طه وقال: هل سمعت؟

حسنًا، فقط أوصل سلامنا لمحمد وسامية.

انصرف أبي مسرعًا وبقينا مع جدي وسط زحام الزوار وما جلبوا معهم
من طعام وشراب وضجيج.

بدا جدي بحال أفضل وأخذ عمتي زينب بجواره وأخذ يقبل رأسها.

فجأة وسط الزحام والضجيج رأيت عمي المهندس إبراهيم يدخل القسم،
توقفنا جميعًا عن الكلام حتى أن مرافقي المرضى في الأسرة المجاورة توقفوا
عن الكلام.

توقف المهندس إبراهيم على بعد عدة أمتار وظهر من خلفه عمي عبد الله
وعمي عبد القادر وابنته خطيبة عمي طه.

تجمدنا جميعًا في أماكننا.

تقدم عمي طه مرحبًا بهم فتقدموا نحو فراش جدي، لاحظت أن عمتي
زينب تسلت في صمت وابتعدت نحو نهاية القسم.

"ألف سلامة عليك يا عبد الحميد"

قالها المهندس إبراهيم وهو يسلم على جدي.

"الله يسلمك يا بشمهندس."

مد المهندس إبراهيم يده نحوي مسلمًا، نظرت في وجهه وتذكرت آخر
مرة رأيته يوم اعتدى على جدي.

قال جدي في حزم: سلم يا عبد الحميد على عمك الباشمهندس.

سلمت في صمت، التفت المهندس إبراهيم إلى عمر وتأمله في معطفه الأبيض ثم قال: ما شاء الله يا عمر لقد صرت طبيباً.

ثم مد يده مسلماً، بقي عمر جامداً كأنه لا يراه.

قال له جدي " سلم على عمك الباشمهندس يا عمر."

بقي عمر على حاله فكرر جدي نداه.

لم يتغير في عمر غير احتقان وجهه وعرق نابض في جانب رأسه، أعرف عمر جيداً، هو يكاد ينفجر.

فجأة تحرك عمر مبتعداً دون أن يسلم على المهندس إبراهيم.

تقدم عمي عبد الله محاولاً اختراق سحابة الصمت والتوتر وقبل رأس جدي وقال " ألف سلامة عليك يا أبا سالم، والله إن المهندس إبراهيم ما أن سمع بما حدث جاء من مصر خصيصاً لزيارتك، أدام الله المعروف بيننا وشفاك وعافاك يا أخي، كانت أمي رحمة الله عليها دائماً تدعو الله أن يديم المعروف بين أبنائها وكان أبي رحمة الله عليه يقول... "

استمر عمي عبد الله في الكلام بينما سلم عمي عبد القادر على جدي ثم دفع ابنته لتسلم عليه.

أخذ عمي طه يرحب بهم في حماس وأخذ يوزع عليهم علب العصير والشيكولاته ثم أخذ يشرح لهم ما قاله عمر عن حالة جدي وأنه ربما يخرج من المستشفى غدًا.

بعد نصف ساعة متواصلة أخيرًا أسكت المهندس إبراهيم عمي عبد الله بإشارة من يده بعدما كان الأخير قد تطرق في حديثه كعادته إلى العائلة وتاريخها المجيد.

سلم المهندس إبراهيم على جدي وقال له "شفاك الله يا عبد الحميد، ونراك على خير إن شاء الله."

ثم انصرف وتبعه مرافقوه.

جذبني عمي طه جانبًا وقال "عبد الحميد، أنا سأذهب لأوصلهم وابق أنت مع جدي، ولو تأخرت فسيكون عليك توصيل أمي وزينب"

فقلت: "ومن سيبقى مع جدي حينها"

فقال وهو يسرع الخطا ليلحق بهم "سيكون أبوك قد عاد أو ربما يظهر عمر"

كان جدي يجلس يحدق أمامه في شرود بينما جدتي أنيسة أخذت تحكي ما حدث في العزبة خلال الأيام الماضية وتنقل له سلامات أهل العزبة.

أخذت أحرق في وجه جدي الجامد محاولاً استشفاف ما يشعر به.

ترى هل سامحهم بعدما كسروه؟

عادت عمتي زينب عبد الحميد فجلست بجوار أبيها في صمت ثم قالت
دون أن تنظر إليه: لماذا يا أبي؟ لماذا سامحتهم بعد ما فعلوه بك؟

ظل جدي شاردًا ببصره كأن لم يسمعها ثم قال: "وكيف لا أسامحهم يا
ابنتي؟ هم إخوتي، ولقد ضحيت بالكثير من أجلهم وتحملت ما هو أكثر من ذلك
حتى أراهم فيما هم فيه الآن"

ولكنهم لم يقدروا ذلك يا أبي.

لأنهم لا يعرفون يا ابنتي. وحتى لو كانوا يعرفون ما فعلته من أجلهم ولم
يقدروه فسأسامحهم أيضاً. فنحن عندما نضحى من أجل من نحب لا نفعل ذلك
في انتظار المقابل حتى ولو كان مجرد شكر وتقدير نحن نفعل ذلك لأننا نحبهم
فقط وأياً كان رد فعلهم فسنظل نحبهم.

لم تبدُ عمتي زينب مقتنعة بكلام جدي ولكن جدتي أنيسة قطعت حوارهما
وأكملت حديثها عن الخلاف بين إخوة عوضين وأرملته وولادة بقرة حامد أبي
العوضي المتعسرة وباقي أخبار العزبة. حتى دخل علينا عصام.

سلم عصام على جدي بحرارة ثم سلم على وعلى جدتي أنيسة ثم نظر إلى
عمتي زينب وسألها عن حالها. أطرقت عمتي زينب وقالت دون أن تنظر إليه:
الحمد لله.

لأول مرة من بعد وفاة زوجته يدور حوار بين عصام وعمتي زينب، أخذ يتحدث في البداية عن الصيدلية ومشاكله مع طلبيات الأدوية وتفتيش إدارة الصيدلة والنواقص، ثم بعدها سألها عن حالها وصحتها وسألته عن بناته فأخبرها أن أمه تعتني بهما وأنه سمى إحداهما زينب.

عند انتهاء الزيارة عرض عصام أن يوصل عمتي زينب وجدتي أنيسة ولكن عمتي رفضت بحجة أنها ستذهب لزيارة عمتها سعاد قبل أن تعود للعزبة.

بعد انصراف عصام عرضت عليها أن أوصلهما فقالت أنه من الأفضل أن أظل بجوار جدي إلى أن يعود أبي أو عمي طه.

وهل ستذهبان وحدكما.

ماذا بك يا حميد؟ لقد درست في المنصورة خمس سنوات وكنت أذهب وأعود وحدي ما الجديد.

بعد انصرافهما جلست بجوار جدي.

-عبد الحميد، أريد أن أتكلم معك في أمر هام.

خيرًا يا جدي.

-أنا أعرف أنه لم يعد أمامي الكثير وأشعر أن أجلي صار قريبًا جدًا.

-لا تقل هذا يا جدي. الأطباء أكدوا أن حالتك مستقرة وأنت.

دعك من كلام الأطباء أن أعرف ما أتكلم عنه، لقد اقترب الأمر كثيرًا، لذلك صمت قليلاً وابتلع ريقه بصعوبة ثم قال:- أعرف أنك عرفت الكثير في الفترة الأخيرة وأعرف كم تعاني حاليًا من التفكير في الأمر، كنت أود أن أتركك لتأخذ كامل وقتك وفرصتك للتفكير واتخاذ القرار ولكن للأسف الوقت يداهمنا.

من المؤكد أن راعي الذئب طلب منك أن تكون ظلاً له، أليس كذلك؟

كانت أول مرة يظهر راعي الذئب في حوار صريح أمامي فطلت مبهوًا للحظات ثم أومأت برأسي دون أن أتكلم.

-لا بد أن هناك الكثير من الأسئلة تدور في رأسك وأنا أرى أنه يجب على أن أجيبك عن بعضها حتى نضع الأمور في نصابها الصحيح.

-هل أنت حقًا تساعد هذا الشيء يا جدي؟ هل أنت ظله كما يقول؟ أنا لم أصدق أبدًا أنك شاركت في شيء شرير كهذا.

-لا تحكم علي يا عبد الحميد دون أن تعرف كيف كان الأمر وقتها. أنت لا تعرف كم الضغوط التي وقعت علي حتى أوافق، لقد كنت وقتها في سنك أو أكبر قليلاً، ولقد قاومت كثيرًا ولكن بلا فائدة، هو يعرف ما يريد ويعرف جيدًا كيف يحصل عليه، ظل يحاصرني حتى لم أجد بداً من طريقه حتى أتفادى انتشار شروره بسبب رفضي وأتفادى إيذائه للآخرين من أجل تهديدي. هو يعرف مفاتيح كل شخص ويعرف كيف يصل إليه ولم يستعص عليه أحد حتى الآن.

ماذا عن أبي؟

صمت جدي قليلاً ثم قال: سالم يلعب بالنار، لا يمل من المراوغة والخداع، لم يتعلم من الماضي، لم تردعه معاناته من كل ما فعله معه راعي الذئب، ولا زال يراهن على مراوغته حتى ينفد صبر راعي الذئب وهو ما أخشاه.

-ولماذا يريدني أنا؟ لم لم يختر عمي طه أو عمر أو حتى عمي عبد القادر؟

-لا أحد يعرف لماذا يختار هذا ويترك ذاك، ولكني أعرف من صغرك أنه يريدك أنت.

-وماذا إذا رفضت؟

-كما قلت لك هو يعرف مفاتيح ضحاياه ويعرف كيف يصل إليهم، سيهددك، سيؤذي أحبائك، سيعرض عليك أن يساعدك لتصل إلى ما تريد، المهم في النهاية سيعرف كيف يحصل عليك.

-ماذا إذا هربت بعيداً؟ لو سافرت خارج البلاد؟

-لا أعرف يا عبد الحميد، هذا قرارك ولك الحرية في اختيارك، أنا فقط أردت أن أنقل لك رسالة هامة. فحواها هو ماذا عليك أن تفعل إذا وافقت.

-أنا لم أوافق، ولكن أريد أن أعرف.

-هذا هو ما أردت أن أقوله لك، في حالة ما إذا وافقت أن تكون ظله لابد
أن تعرف ما هو مطلوب منك.

صمت قليلاً ثم أكمل: "المطلوب أولاً هو حراسة أرض رجع الجنية
والدفاع عنها لآخر نفس لأنها المكان الذي أتى هو منه ولا تسمح بوقوع
الأرض تحت سيطرة أي شخص غريب فيعبت في متعلقاته."

-وكيف أتى هو منها؟ لا أفهم؟

-لقد كان مدفوناً فيها منذ عهد سحيق حتى أيقظه جدك الكبير على
الشرقاوي.

-وكيف أيقظه؟

-أنا لا أعرف التفاصيل، كل ما أعرفه أن علياً الشرقاوي تشاجر مع أخيه
وجرحه جرحاً بليغاً وسالت دماؤه واختلطت بتربة الأرض التي كان مدفوناً فيها.
لا أعرف ماحدث بعدها بالضبط ولا كيف استيقظ ولكن المشاكل كلها بدأت منذ
تلك النقطة، وبعدها بسنوات أخرج أبي والحاج محمد الرفاعي الأمانة من
الأرض التي كانت وقتها ضمن جنية الزواينة ثم دفنوها في غرفة المخزن،
ومن يومها وهي هناك وإن بقت متعلقاته مدفونة في أرض رجع الجنية.

-وما هي الأمانة.

-لا أعرف بالضبط ما هي، ولكن هذا يحملنا للجزء المهم وهو مهمتك
الأساسية في حالة موافقتك؛ رعاية الأمانة.

-تقصد حمايتها؟

-لا، هو يستطيع حمايتها بنفسه، رعايتها أي إبقائها حية.

-وكيف يكون ذلك؟

-هذا يحتاج لشيء واحد فقط.

-تلقت جدي حوله ثم قال بصوت خافت: الدم.

الظل

"لا تحكم على قرار أحد دون أن تعرف الظروف المحيطة به وقت اتخاذ القرار.

لا تحكم على خطأ أحد فربما لو كنت مكانه وتعرضت لما تعرض له لفعلت ما هو أكثر خطأً.

لا تحكم على اختيار خاطيء لشخص دون أن تعرف باقي الاختيارات فربما كانت أكثر خطأً.

لا تحكم على أحد بوضع نفسك مكانه فأنت لست هو.

لا تحكم على أحد وتحاسبه فالله وحده يعلم كل شيء ووحدته يستطيع أن يحاسبه دون أن يظلمه.

لا تحكم على أحد."

جدي عبد الحميد

"قبل أن تبدأ في خدمة راعي الذئب عليك أن تعطيه دمك، ستجعل دمك يتسلل إلى الأمانة المدفونة في المخزن، بعدها تصير ظله، ربما يطلب منك أن تفعل ذلك مرات أخرى ولكن نادرًا ما يفعل ذلك، ولكنه يطلب أشياء أخرى إذا نفذتها سيحقق لك الكثير وإن لم تفعل فإن عقابه عسير"

-إذن هو يطلب دمي أنا.

-بعض الأحيان يطلب دمًا آخر.

-تقصد دم شخص آخر.

-ليس بالضرورة دم إنسان، أي دماء تفي بالغرض ولكن لذلك طقوس معينة يحددها هو.

-ماذا تقصد بطقوس؟

-أعني كيفية الحصول على الدم، وحالة الحيوان أثناء ذلك، دع هذه التفاصيل لوقتها.

-لست أفهم هل نذبح الحيوان لنحصل على دمه أم هناك طريقة أخرى.

-هذا ما يراوغ به أبوك دائماً يتغاضى عن التفاصيل ويحضر الدم دون أن يقوم بالطقوس مما يقوم بتهدة راعي الذئب وإبقاء الأمانة ولكنه يعرف أنه يخدعه وما يلبث أن يعاقبه.

-وهل طلب من قبل دماً بشرياً يا جدي؟

بقي جدي صامتاً ولم يرد.

-وهل نفذت ما أراد؟

-هناك الكثير من الطلبات التي لم أستطع تنفيذها ولذلك كانت حياتي مليئة بالمعاناة نتيجة موجات غضبه العاتية.

-وهل اقتصرت طلباته على الدم فقط؟

-أحياناً يطلب أشياء غريبة وغير متوقعة، قد تكون بسيطة جداً وقد تكون معقدة جداً أو غير مفهومة أو تحمل شراً فائقاً.

-لا زلت لا أصدق أن جدي الرجل الطيب الحنون المعروف بصلاحه وتقواه الذي لم أر أو أسمع عنه إلا خيراً يقوم بأشياء شريرة ويقوم بخدمة هذا الكائن الشرير.

-أحياناً تدفعك الظروف للاختيار بين أمرين كلاهما خطأ بين، فيكون عليك اختيار الأقل خطأ لتفادي شر أكبر عليك أو على الآخرين، ولكن ربما لسوء تقديرِك أو لتراكم هذه الاختيارات الأقل سوءاً تجد النتيجة سيئة جداً. أنا لا

أبريء نفسي ولكنني فقط أطلب منك ألا تحكم علي حكمًا قد يكون ظالمًا لأنك لا تعلم إن لم أفعل ما فعلت كم الشرور التي كانت ستحدث.

-ألم تجد ما تفعله يتنافى مع الإيمان والفطرة السليمة وأبسط قواعد الدين والفضيلة، أعتقد أن حديثك عن هذا الشيء والمبالغة في قدراته والخوف الشديد منه لدرجة معصية الله لإرضائه قد يدخل في إطار الشرك والعياذ بالله.

وأنت من يشهد لك الجميع بالإيمان والصلاح.

لقد تناقشت مع أبي رحمه الله في هذه النقطة بالضبط ولقد ضرب لي مثالاً لا أنساه، قال لي أنه أثناء الاحتلال الإنجليزي لمصر كان الجميع يعرف أنهم يمثلون المستعمر الغاصب الذي لا حق له وأن طاعتهم تخالف قواعد الحق والعدل والدين ولكنهم أطاعوهم لأنهم يعرفون أن الإنجليز كانوا يملكون من القوة ما يستطيعون بها تنفيذ ما يريدون، هل كان هذا شرك بالله، هو خطأ ولكنه كان محاولة لتفادي أذاهم حتى نمتلك القوة على مقاومتهم وطردهم، هكذا هو أمر عزبتنا، إنها ترزح تحت احتلال غاشم معتصب، ولا سبيل الآن لمقاومته ولا قبل لنا بمواجهته، ما نقوم به خطأ ولكنه يحمي باقي العائلة والعزبة كلها من شر غضب ذلك المحتل، لذلك علينا الصبر عليه حتى يأتي أمر الله.

ماذا عن الآخرين، هل استجاب له كل أهل العزبة؟

ليس بالضبط، هو لا يظهر للجميع بذلك الوضوح الذي تراه، لكنه يحاول إغراء الجميع لارتكاب الشرور خاصة عندما يغضب، ربما لاحظت في الفترة

الأخيرة حين ابتعدت أنت عنه أنه بدأ إما في إغواء من حولك أو إيذائهم حتى يقودك إليه ..

قطع جدي كلامه فجأة وهو ينظر لمدخل القسم.

نظرت فوجدت أبي يقف متصلبًا هناك، أخذ يحرق فينا لحظاتٍ ثم اقترب منّا فأشاح جدي بوجهه بعيدًا.

-أين طه؟

قالها أبي بغضب لم أعهده فيه.

لقد ذهب ليوصل المهندس إبراهيم وعمي عبد القادر.

لم يلتفت أبي لزيارة المهندس إبراهيم لجدي وانفجر غاضبًا: ألم أقل له ألا يترك أباه حتى أعود، ألن يتصرف طه كرجلٍ ولو مرة واحدة، ألا يمكنني الاعتماد على أحد في هذه العائلة ولو كان في شينًا بسيطًا، هل سيكون على دائمًا القيام بكل شيء وحدي.

أدار جدي ظهره لموجة غضب أبي غير المعتادة دون أن ينبس ببنت شفة.

-لا بأس يا أبي، أنا بقيت معه وجدي بخير الحمد لله.

ولكنني أكدت أن طه هو من يبقى، وأن توصل أنت عمتك وجدتك، من أوصلهما إذن؟

-لا أحد. لقد صممت عمتي زينب ألا أذهب معها.

ما شاء الله، على أن أقسم نفسي عدة أجزاء جزء يجلس مع أبي هنا وجزء مع الولد المسكين الذي يجري جراحة وجزء ليوصل أختي وخالتي للعزبة وجزء ليرعى شئون البيت والأرض والدوار وذلك لأن لا أحد يسمع لي ولا أحد يريد أن يتحمل أي مسئولية، وأين ذهب عمر؟

لقد انصرف غاضباً عندما جاء المهندس إبراهيم لزيارة جدي.

لم يحدث قط أن رأيت أبي غاضباً إلى هذا الحد، جلس صامتاً بعض الوقت ثم قال: حسناً عليك العودة الآن إلى العزبة وأنا سأبقى مع أبي.

-لا بأس سأبقى معك وربما يعود معنا جدي للعزبة في الصباح.

-لا عليك العودة اليوم، أمن المستشفى لن يسمحوا بأكثر من مرافق ثم إن أختك أمل وحدها في المنزل، وأريدك أيضاً أن تمر على جدتك حميدة وعمتك زينب أم جمعة ربما تحتاجان شيئاً لأنني لم أمر عليهما منذ عدة أيام.

اصطحبني أبي حتى مدخل القسم وسألني عما حدث مع المهندس إبراهيم حتى خرجنا من القسم أوقفني وقال: حميد، عما كان يتحدث معك جدك.

ابتلعت ريقِي وأنا أتفادى عينيه ثم قلت: لا شيء محدد، كان يحكي أشياء متفرقة عن تاريخ العائلة وذكرياته مع جدي سالم والمهندس إبراهيم.

نظر لي أبي نظرة غير مصدق ثم ربت على كتفي وقال: حسناً انتبه لنفسك.

طوال الطريق إلى العزبة ظلت كلمات جدي تدور في رأسي، لم أستطع أن أتخيل جدي وهو الرجل المعروف بصلاحه وإيمانه يقوم بخدمة هذا الشيء وفي سبيل إرضائه يقوم بأشياء مخالفة. وكائن بهذا الشر لا يرضيه إلا كل ما هو شرير أو مشين أو حرام.

وأخذت أتخيل ما قد يكون ما طلبه من جدي، وماذا طلب منه جدي، وماذا ارتكب الآخرون من أجله أو ربما فقط تحت غوايته، ماذا فعل جدي سالم أو سعيد أبو زينة أو حسن أبو زينة. ترى كيف استعاد جدي سالم أرض رجع الجنية؟ هل كان بمساعدة ذلك الشيء؟ كيف مات حسن أبو زينة وابنه سعيد؟ هل قتلها راعي الذئاب؟ أم قتلهم شخص من أجله؟ ربما كانا من أعوانه وانقلب عليهم في موجة غضب؟ ماذا عن علاء؟ هل له دخل في موته؟ هل كانت وفاته انتقاماً من أبيه؟ أم كانت أمنية شخص ما وحققها له راعي الذئاب؟ أكون حسن؟ ولكن هذا غير ممكن فحسن كان أكثرنا حزناً عليه؟ ربما لهذا يجب أن أشك فيه؟ ما هذا الذي أفكر هذا الشيء يقودني للجنون وللشك في كل ما يحدث حولي.

ترى ما قصة عمتي زينب عبد الحميد معه؟ هل لوفاة زوجة عصام علاقة بالأمر؟ لا يمكن أن أصدق هذا. هو يدفعني لأن أتخيل أن الكل متورطون معه،

يريد أن يصور لي الدنيا كشرٍ خالص كما قالت عمتي زينب أم علي. رغم أن الخير بالتأكيد موجود والدليل: أبي.

وقفت أمام مدخل العزبة مفكرًا، من يتخيل أن هذا المكان الهاديء الوادع الذي يفوح بعطر الطبيعة البكر التي لم تلوثها آفات المدنية، والذي يبدو كمثال للمحة من زمن مضى يمتليء بالطيبة والفترة السليمة الخالية من الأحقاد، من يتخيل أن تحت كل هذا تغلي براكين من الشر.

لمع ضوء أصفر خاطف في الجنيحة، لا أدري هل كان هذا حقيقياً أم لا ولكنني قررت إنني لن أنام الليلة حتى أتفادى لقاءه. لم يكن ذلك هيناً ولكنني سهرت للصباح ثم اطمأننت على أختي أمل التي كانت تقيم مع عمتي زينب عبد الحميد في غرفتها ثم ذهبت إلى منزل جدتي حميدة ونمت هناك حتى العصر.

وعندما عدت إلى العزبة وجدت جدي في المنزل. كان يبدو بصحة جيدة وكانت دار الرفاعي مليئة بالزائرين، كل أهل العزبة تقريباً جاءوا لزيارة جدي بما فيهم عمي عبد الله وعمي عبد القادر مما زاد من غضب عمر الذي كان لازال غاضباً من زيارة المهندس إبراهيم لجدي في المستشفى.

كان جدي يبدو بصحة جيدة ولكن عمر أصر أنه يحتاج إلى الراحة وعدم التعرض لمجهود أو انفعال.

في اليوم التالي استمرت الزيارات، واستقر الجرار الأحمر في ساحة الدار دليلاً على وجود عمي حسن الساكت الذي جلس صامتاً بجوار جدي.

في هذه الليلة لم أستطع المقاومة وغلبني النوم.

كنت أمشي في الجينة متتبعًا صوتًا غريبًا، كأنه شخص يتألم، كان الضوء الأصفر يلمع بعيدًا فأخذت أجري وسط الأشجار حتى اقتربت منه وعلى الضوء الأصفر لاحظت شيئًا غريبًا، كانت أغصان الأشجار تتحرك في ببطء، وعندما دقت النظر في الشجرة التي اختبأت ورائها وجدت في تجاعيد جذعها ما يشبه الوجه البشري، عدت للخلف مفزوعًا، والتفت نحو شجرة أخرى فوجدت وجهًا آخر يبدو حزينًا متألمًا، كان يبدو مألوفًا، أجل هو يبدو شبيها بعمي السعيد والد علاء رحمهما الله، كل الأشجار كانت تحمل وجوهًا متألمة على جذوعها، لاحظت على جذع إحداها تجاعيد تبدو مثل شارب عوضين.

ارتفع الصوت أكثر، فاقتربت قليلاً غير عابئ بالأشجار الغريبة التي تتلوى أغصانها في ألم، كان راعي الذئاب هناك يختفي جسده الفارع خلف الضوء الأصفر القوي الذي يخفي معالم جسده، بينما أمامه رجل واقف وظهره لي يمسك صدره وينن. كانت أرى ظهر الرجل وسط الضوء الأصفر الذي يغشي عيني بينما راعي الذئاب يمد يده نحو صدر الرجل الذي صرخ بقوة.

"لقد انتهى وقتك واكتفيت منك."

صوت ضربات مرتفعة مع صوت نسائي ينادي.

ركع الرجل على ركبتيه وهو يعتصر صدره.

ارتفع صوت الطرقات والنداء، يبدو كصوت عمتي زينب الكبيرة " زينب أم سالم".

ترى ما الذي أتى بها هنا.

"افتحوا الباب."

ضحكة عالية من راعي الذئب.

"لقد كنت مفيدًا جدًا طوال الفترة الماضية ولكنها النهاية."

صوت عماتي زينب "افتح يا سالم."

رفع راعي الذئب عصًا طويلة ثم غرسها في صدر الرجل ثم أكملت طريقها حتى انغrust في أرض الجنيئة.

صرخ الرجل صرخة عالية.

"افتح يا عبد الحميد."

ثم استيقظت على صوت الطرقات على الباب

قمت مفزوعًا فتحت باب غرفتي واتجهت نحو سور السطح ونظرت نحو باب البيت الخارجي فرأيت عماتي زينب الكبيرة تطرق الباب بقوة.

نزلت السلم بسرعة فقابلني أبي على السلم وسألني "ماذا يحدث؟"

-عمتي زينب الكبيرة بالخارج وتطرق الباب بقوة.

-اللهم اجعله خيرًا، افتح لها الباب بسرعة.

أكملت طريقي للخارج وبينما أفتح الباب سمعت جدتي أنيسة تنادي على أبي " سالم، تعال ساعدني بسرعة."

فتحت الباب لعمتي زينب الكبيرة فدفعت الباب ودخلت مسرعة دون أن ترد على سؤالي: ماذا حدث يا عمتي؟

دخلت ورائها فوجدت جدتي أنيسة تبكي بينما أبي يقف أمامها متسائلاً.

"أنجذني يا سالم، استيقظت على صوت أبيك يتألم ثم سكت فجأة ولم يعد يرد عليّ."

اندفعت عمتي زينب الكبيرة نحو غرفة جدي قائلة: لأنه مات يا أنيسة،

عبد الحميد مات.

اندفعنا جميعًا نحو غرفة جدي وأخذ أبي ينادي عليه ويهز كتفه، بينما وضعت عمتي زينب الكبيرة يدها على صدره وقالت: كفى يا سالم، لقد مات أبوك.

جلست جدتي أنيسة على الأرض وأخذت تبكي وتلطم وجهها بيديها،
استيقظ عمر واندفع إلى الغرفة متسائلاً، وأخذ يضغط بإصبعه على رقبة جدي
ثم أخذ ينفخ في فمه ويضغط على صدره بقوة.

جاءت عمتي زينب عبد الحميد من غرفتها وقد غلبها تأثير الحبوب
النومة ووقفت في مدخل الغرفة وما أن رأت ما يحدث حتى سقطت مغشياً
عليها.

تساقطت دموع عمر وهو يضغط على صدر أبيه بقوة، ربت أبي على
كتفه وقال: كفى يا عمر.

فضغط عمر بإصبعه على رقبة جدي مرة أخرى ثم انهار باكياً فوق جسد
أبيه.

حاول أبي أن يبدو متماسكاً ولكن دموعه كانت تنساب في صمت بينما هو
يقوم بالتجهيز للجنائز وإجراءات الدفن.

كانت جنازة مهيبة، خرج النعش من دار الرفاعي وسط صراخ النساء
اللائي لم تفلح تنبيهات أبي في إسكاتهن.

بعد خروجنا من العزبة انضم للموكب أناس كثيرون من عزبة فرنسا
وعزبة واحد ومن القرية وأناس كثيرون لا أعرفهم ربما أتوا من قرى مجاورة.

امتلاً المسجد الكبير عن آخره بالمصلين، تقدم عمي حسن الساكت وأم المصلين في صلاة الجنازة ثم خرجنا من المسجد وتوجهنا صوب المقابر.

لم أرَ من قبل جنازة مثل هذه ولم أرَ من قبل زحاماً مثل هذا. لقد حضرت مع جدي رحمه الله جنازات كثيرة في القرية وخارجها ولكن جنازة جدي كانت الأضخم والأكبر.

تدافعت الوجوه واختلطت أمامي في الزحام عمي طه وعمي عبد القادر يساعدان في حمل النعش، أبي يمشي أمام النعش وبجواره المهندس إبراهيم وعمي عبد الله، عمر وماجد كانا بجواري ثم فرقنا تدافع الناس، اقتربنا من المقابر، جاهدت كثيراً حتى أصل للمقدمة حتى وصلنا للقبر الذي دفن فيه جدي سالم، كان أبي قد حضر مع الحانوتي في الصباح وفتح القبر وجهزه، لقد حضرت هذه الطقوس كثيراً مع جدي وأبي، وكان جدي لا يتوقف عن إعطائنا التعليمات والتنبيهات لأننا سنكون من يقوم بهذه الأشياء من بعده. كان الحانوتي يقف منتظراً أمام القبر، تم إنزال النعش وقاموا بإخراج جسد جدي لم أستطع التقدم للمساعدة، تقدم أبي ودخل القبر ليتسلم جسد جدي وأخذ يقوم بمهارة بما علمه إياه الفقيد نفسه، نظرت له وهو يقوم بعمله رافضاً مساعدة الحانوتي، كانت دموعه تنهمر وهو يقرأ سورة "يس" بصوت متقطع مالبث أن اختلط بالبكاء، تقافزت في ذهني مشاهد قديمة لعملية دفن، لا أدري لم تذكرت ذلك، توقفت دموعي وبدأ العرق البارد ينساب على وجهي، ثنيت جذعي وملت بوجهي لأرى ما يحدث كان أبي رغم بكائه يقوم بعمله بمهارة، وفجأة انهار باكياً وأخذ يقبل قدمي جدي.

دارت الدنيا بي، اندفع الحانوتي وعمي عبد الله نحو أبي واسودّ المشهد
أمامي، مع صوت ضحكة شريرة ترن في أذني.

أبي!

لقد كان هو.

إنه هو

"أحياناً كثيرة أرى أحلاماً غير مفهومة ثم لا تلبث أن تفسر نفسها على أرض الواقع في اليوم التالي، لم أكن أحب ذلك الشعور عندما أرى شخصاً في منامي وأصبح لأجد الأمر يحتل كل تفكيري، لا أدري ماذا أفعل، هل أحكي لأحد ما رأيت، إن لم أحك يظل يؤنبني ضميري إذا ما تحقق ما رأيته في المنام وهو غالباً ما يكون شيئاً سيئاً وأظل ألوم نفسي، وماذا يحدث إذا حكيت؟، لا شيء نفس الأمر يظل يؤنبني ضميري كأنني السبب في ما حدث.

أما تلك الليلة كانت الرؤيا واضحة جداً، كان أخي عبد الحميد يتألم، هو قد عاد منذ يومين من المستشفى، فنزلت من بيتي جرياً نحو العزبة دون أن أفكر ماذا سأفعل، وطوال الطريق كان قلبي يؤلمني، أخذت أطرق الباب بقوة وأنادي، وعندما توقف ألم قلبي فجأة، عرفت أن أخي قد مات"

عمتي زينب الكبيرة.

"لقد حان وقتك، أنا في انتظار مجيئك إليّ، هذا هو الوقت المناسب لتتال مكانتك التي تستحقها"

لمع الضوء الأصفر بقوة وكان صوته سعيداً وواثقاً.

لن آتي إليك أبداً.

سنأتي، لا أحد يخالف إرادتي.

أنا سأفعل.

حاول إذاً، ولكن تذكر أنك الخاسر وأن ما أطلبه يتحقق، إن لم تنفذه أنت
ينفذه غيرك كما ترى، وبعدها ستجيء إلى ولكنك ستجيء خاسراً.

سأنتظر تضحيتك لتكون بعدها ظلي وذلك يمنحك قوة لا تتخيلها.

لن أعطيك دمي، إن كنت تريده خذه ولكني لن أعطيك إياه بإرادتي.

لا، أنا لن أقبل دمك الآن، لابد أن تثبت ولائك أولاً، لابد أن تقوم
بالتضحية الكبرى، فقط انتظر أوامري.

ترددت ضحكته في أذني قبل أن يأتيني صوت عمر: عبد الحميد هل أنت
بخير؟

شعرت بألم شديد في رأسي، فتحت عيني لأجد وجهي عمر وماجد أمامي.

كان عمر يمسح جانب رأسي بمنديل ملوث بالدماء.

هل أنت بخير؟

-أجل أنا بخير.

ساعدني ماجد على الوقوف بينما حاول عمر فض الزحام من حولي: إنه بخير، انتهى الأمر.

سمعت صوت أبي ينادي من بعيد على عمر فرد عمر عليه: لا تقلق إنه بخير وسأظل معه.

سألني ماجد: ماذا حدث؟

-لا شيء شعرت بدوار شديد ثم اسودّت الدنيا أمامي.

قال عمر: إنه فقط لم يتحمل منظر القبر والدفن.

نظر لي ماجد في شك ثم قال: ولكن عبد الحميد شارك كثيرًا مع جده رحمه الله في هذه الأشياء، هل هناك شيء آخر يا عبد الحميد؟

هزرت رأسي نافيًا في صمت.

قال ماجد: حسنًا فلنعد للبيت لنظهر لك ذلك الجرح وتغسل وجهك وترتاح قليلاً، لا بد أن دار الرفاعي تعج الآن بالمعزين.

نفضت ملابسني ومشيت معهما نحو منزل عمتي زينب الكبيرة، لم أسمع ماذا يقولان طوال الطريق، كنت أشعر أنني في كابوس سخيّف من كوابيس الجنينة، هل من المعقول أن يكون أبي هو القاتل؟ طوال هذه السنوات وأنا أبحث عن الجاني وهو بجواري.

أبي!

رمز الخير والنقاء الذي يتحاكى به الجميع، الوحيد الذي صمد أمام إغراءات وتهديدات راعي الذئاب، أكتشف في النهاية أنه قاتل، وقاتل من؟ عمه ورفيق عمره حافظ، من المؤكد أنه هو ضحيته، وإلا لماذا اختفى بعدها وأصر أبي أنه بخير، بالتأكيد هو وفق موضوع الخطاب وأنفق مع عمي فتحي على إشاعة خبر أن عمي حافظ في السعودية بينما هو من دفنه بيديه في جنيحة الزواينة. قالها راعي الذئاب "إن لم تنفذه أنت ينفذه غيرك كما ترى"، المعنى واضح، هو قال لي قبلها "حافظ لا بد أن يصمت" وعندما لم أنفذ طلبه نفذه له أبي، رمز الصمود الذي حكى عنه عماتي زينب أم علي، أبي الذي خدع الجميع.

وصلنا بيت عمتي زينب الكبيرة، أحضرت عماتي زينب شاشاً وزجاجة مطهر وربطت لي رأسي الذي ارتطم بقبر جدي كما عرفت من ماجد.

كان ماجد وعمر يتجادلان كعادتهما فجذبني عماتي زينب بعيداً عنهما: تعال بعيداً عن هذين الديكين الذين لا يكفان عن الجدل، يكفيك ما أصاب رأسك اليوم.

جذبني معها إلى الشرفة فوقفت أتأمل البحر القديم ومن ورائه تظهر عزبتنا، منزل جدي سالم ووراءه باقي بيوت العزبة، لاح لي جزء من الجرن الكبير مفروشاً بالقش وتحيط به الفراشة المعتادة، كانت الصواني تتحرك نحو الجرن محملة بالطعام، رأيت أبي يقوم بعملية التنظيم بينما عمي طه يقف مع العمال الذين يثبتون مكبرات الصوت والمصابيح لإنارة الجرن والعزبة كلها.

-عمتي، كيف عرفت أن جدي مات؟

-أنا لم أعرف أنه مات، أنا رأيته في منامي وكان يتألم وكان الحلم واضحاً جداً لدرجة أنني نزلت من بيتي في ذلك الوقت وهرولت حتى دار الرفاعي.

لن تصدقني يا عبد الحميد إن قلت لك أنني كنت أشعر بألم في صدري طوال الطريق وعندما كنت أطرق الباب زال الألم عني فجأة حينها شعرت أنه مات.

-وماذا رأيت في منامك؟

-فقط رأيت أخي يتألم وهو يمسك ب صدره.

-ألم تري شخصاً آخر معه؟ شخصاً يعذبه؟

-ماذا تقصد يا عبد الحميد؟ من الذي عذب جدك؟

وقفت متردداً للحظات ثم قلت لها: لقد رأيته أيضاً في منامي يتألم ولكن كان راعي الذئاب هو من يعذبه.

اصفر وجه عمتي زينب وبُهِتت فأكملت: كان صوت نداءك يصلني في الحلم وعندما طعنه في قلبه استيقظت وجريت لأفتح لك الباب، هل تعتقدين يا عمتي أن راعي الذئاب قد قتله؟

-لا أعرف يا عبد الحميد، جدك كان مريضاً كما تعرف، ولكن هل رأيته واضحاً في منامك؟

-هو يستتر خلف ضوء أصفر قوي يخفي معالم جسده لكنه هو.

ما أعرفه فقط يا عبد الحميد أنك يجب أن تسافر بعيداً في أقرب وقت ممكن.

جلست بجوار عمر وماجد في صيوان عزاء جدي، ازدحم الصيوان بعدد غير مسبوق من المعزين، كان جدي رحمه الله شديد الاهتمام بحضور الجنازات والعزاء فبالتالي كان يستحق جنازة هائلة وعزاء غير مسبوق نتاج جهوده طوال سنين حياته. كان يقف في مدخل الصيوان في استقبال المعزين المهندس إبراهيم ثم أبي وعمي طه ثم بقية إخوة جدي. لم يقف عمر معهم اعتراضاً على وجود المهندس إبراهيم بينما لم أرغب أنا محاولاً الابتعاد عن أبي.

لأول مرة يقام عزاء في العزبة ولا يكون جدي واقفاً في أول الصف ولا يكون متابعاً لكل صغيرة وكبيرة في العزاء، لأول مرة أيضاً يحضر مأمور المركز بصحبة ضابط النقطة ونواب مجلس الشعب والشورى عن دائرتنا عزاءً بعزبتنا. جلسوا بجوار العمدة والشيخ أبي المكارم شيخ البلد.

أخذت أتأمل في وجوه الجالسين بينما صوت قراءة الشيخ عباس يتردد عبر مكبر الصوت في جنبات العزبة.

ناظر المدرسة ومعظم المدرسين، محمد ابن عمتي سعاد، أبناء المهندس إبراهيم وأبناء عمتي زينب الكبيرة، عمي حسن الساكت. كان جالساً في ركن

الصيوان وكعادته لا تعطي ملامحه أي تعبيرات أو انطباع عن مشاعره، وجه جامد لا يتغير، يخفي خلفه مشاعر شخص يعرف كثيرًا ويتكلم قليلاً، ترى ماذا يعرف عمي حسن؟ هل يعرف ما كان يفعله جدي؟ هل يعرف بأمر أبي؟

" قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً * الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا"

تردد صوت الشيخ عباس في أذني، ترى هل كان جدي من الأخسرين أعمالاً؟

هل ضاع كل الخير الذي صنعه في الدنيا وهو يحسب أنه أحسن صنعا؟

هل محا تعاونه مع ذلك الكائن الشرير كل ما صنعه؟ هل كان الخير والعمل الصالح قناعاً يخفي به حقيقته الشريرة أم أنه كما قال كان يتعاون مع ذلك الشيء كي يتفادى شرّاً أكبر وكي يحمي الآخرين من شره؟

عل أي حال هو الآن بين يدي خالقه الذي لا يظلم ولا يخفى عليه شيء هو سيحكم في أمره بالعدل.

ماذا عن أبي؟

نظرت نحو مدخل الصيوان حيث يقف أبي بلامحه الحزينة. ترى من يكون؟

هل هو الرجل الصالح الذي يضحى من أجل الجميع ويراوغ راعي الذناب في طلباته حتى لا يرتكب شيئاً شريئاً وفي سبيل ذلك يتحمل موجات غضبه؟ أمه أنه القاتل الذي دفن ضحيته سرّاً ثم عاد ليكمل حياته؟ بل ربما لم تكن ضحيته الوحيدة؟

أفقت على صوت ينادي باسمي وينقر على كتفي برفق، كان فتى من فتيان العزبة " عبد الحميد، عمك زينب تريدك" ثم أشار نحو دار الرفاعي.

تركت صيوان العزاء واتجهت نحو دار الرفاعي، كان الباب الخارجي مفتوحاً والبيت يعج بالنساء المتشحات بالسواد، نظرت من فتحة الباب فرأيت حدثاً أراه لأول مرة وغالباً ما ستكون آخر مرة، رأيت عمتي زينب الكبيرة جالسة وعن يمينها عمتي زينب عبد الحميد وعن يسارها عمتي زينب أم جمعة التي لم أرها في عزبتنا من قبل.

هبت عمتي زينب عبد الحميد إلى عندما لمحتني وقالت مشيرة إلى الضمادة التي على رأسي: ماذا حدث يا حميد؟

-لا شيء، جرح بسيط، ولكن لماذا أرسلت في طلبني؟

هنا تكلمت عمتي زينب الكبيرة: أنا من أرسلت في طلبك حتى توصل عمك زينب إلى بيتها.

وقفت عمتي زينب أم جمعة بمساعدة عصاها وربتت على كتفي: البقاء لله يا حميد، أحسن الله عزاءك.

كيف جئت وحدك هنا يا عمتي؟

لقد صممت أن أجيء وأنت تعرف ظروف جدتك حميدة الصحية
فاضطرت للمجيء وحدي.

فهمت ما تقصده بظروف جدتي حميدة.

وقبل أن ننصرف سوياً، خرجت عبير وأمها من دار الرفاعي، فوجئت
عبير عندما رأته أمام الباب، كانت ترتدي السواد الذي زادها بهاءً وجمالاً،
اقتربت وسلمت على وقالت: رحم الله جدك يا حميد، لقد كان رجلاً طيباً ترك في
نفوس الجميع أثراً طيباً، حاول أن تتذكر الذكريات السعيدة التي كانت بينكما
وادع له بالرحمة.

وقعت كلمات عبير مني موقفاً غير ما أرادته، فقد طغت الأيام الأخيرة
على كل الذكريات السعيدة، ولكنني اغتصبت ابتسامة وقلت لها: شكراً يا عبير.

أشارت إلى ضمادة رأسي وقالت: ألف سلامة؟

جرح بسيط، كيف حال صحتك؟

ابتسمت وقالت: الحمد لله لازلت على قيد الحياة وأحاول، لا تنسى
نصائحي لك.

هنا مالت على عمتي زينب أم جمعة وقالت: هل هذه عبير؟

فأومأت برأسي، فمدت يدها لتسلم عليها قائلة:

أهلاً يا عبير لقد سمعت عنك كثيراً؟

احمرّ وجه عبير خجلاً وسلمت عليها ثم نظرت إلى متسائلة، فقلت لها:

هذه عمتي زينب.

لم أستطع أن أمنع نفسي من الضحك من الدهشة التي ظهرت على وجه عبير، ثم أكملت: أجل عمتي زينب ثانية أو بالأحرى ثالثة، هؤلاء الثلاثة كلهن عماتي زينب.

اهرب

"لا تضع تضع ثقّتك كلها في شخص واحد، لا تبني حياتك على شخص واحد مهما كانت ثقّتك به، لا تشيد بناءك كله على حجر واحد فإذا تحرك أو اهتز تداعى بناؤك كله.

لا تكرّس حياتك كلها لهدف واحد فإذا لم يتحقق تفقد حياتك معناها وتجد نفسك كالمنبت لا ظهرًا أبقي ولا أرضًا قطع.

مرة أخرى لا تضع ثقّتك كلها في شخص واحد وضع لنفسك دائمًا بدائل وخطط للعودة.

ومن باب الحيلة لا تثق بأي أحد."

عمتي زينب عبد الحميد

في الصباح حملت حقيبتني ونزلت.

قابلني أبي فسألني: ألم تقل أن إجازتك تنتهي غدًا؟

-لقد كنت مخطئاً، عندما قرأت تصريح الإجازة أمس اكتشفت أن الإجازة
تنتهي اليوم.

كيف حال جرحك؟

-لا بأس، إنه خدش بسيط.

كنت أحاول تجنب نظرات أبي فقال لي: عبد الحميد، هل أنت فقط حزين
على جدك أم أن هناك شيء آخر؟

-لا شيء، أنت تعرف كم كنت متعلقاً بجدي.

-ألا يوجد شيء تخفيه عني؟

-بالطبع لا.

كانت عودتي من الإجازة مبكراً حديث الوحدة، ولكني قلت أنني اعتقدت
بالخطأ أن الإجازة انتهت، وبررت صمتي وانعزالي بوفاة جدي.

قضيت أيامي في الجيش ما بين العمل في الكانتين في صمت أو الجلوس
وحدي.

ولأول مرة منذ دخلت الجيش أجد نفسي لا أنتظر الإجازة، بل أخاف منها.

بعد وفاة جدي واكتشافي حقيقة أبي تغير تفكيري رأساً على عقب، لم أعد متحمساً للمقاومة والنضال ضد الشر وإثبات أن الخير لازال موجوداً، لم أعد في الأصل مقتنعاً بذلك، كان كل ما يشغل بالي هو الهروب، لا بد أن أهرب ولا أعود أبداً إلى تلك البقعة الموبوءة التي تمكن منها الشر تماماً ولم يعد فيها موضع قدم لأي قيم فاضلة، بل ربما صارت بؤرة لانتشار الشر في العالم كله.

بدأت أتكلم مع زملائي عن رغبتي في السفر ووجدت أن الكثير من الجنود يرغبون في السفر بعد انتهاء خدمتهم العسكرية، عرفت أن سمير جندي الأفراد عمه يعمل في مكتب سفريات وأنه بالفعل ساعد بعض الجنود في السفر لدول الخليج، ذهبت إليه فوعد أن يكلم عمه في الإجازة القادمة.

هنا تذكرت المشكلة المنتظرة؛ الإجازة. ماذا سأفعل في الإجازة، الجيش ليس فيه مزاح فلا أستطيع أن أقول لهم لا أريد إجازة، وفي نفس الوقت لا أريد العودة للعزبة بشكل عام ولأبي بشكل خاص.

كنت أعرف أن محموداً أبا عمو أحياناً يقضي إجازته في السويس وعندما سألته عن ذلك قال إن أباه فلاح فقير ولديه تسعة أبناء غيره ولا داعي لزيادة حمله بابن عاشر يعود كل إجازة ليطلب منه مال، فكان محمود يذهب لمجموعة من رجال بلدته يعملون في السويس في المعمار ليعمل معهم حتى يستطيع تدبير نفقاته. لم يكن ماقاله مقتنعاً لي من قبل وكنت أشك أن عليه ثأر كما نسمع عن أهل الصعيد ولكنه بدا لي الآن تصرفاً منطقياً.

طلبت من محمود أن يرسلني لأقاربه في السويس لأعمل معهم فقال أن ميخائيل بلدياته-أو بلده- بلغة الجيش معي في دفعة الإجازة وسيذهب إليهم وسيأخذني معه.

بالفعل ذهبت مع ميخائيل وبدأت العمل معهم، لم أكن أتخيل أن هناك من يقوم بهذا العمل الشاق جداً في مقابل جنيهاات قليلة، كان العمل شاق جداً، وكان الرجال يهونون على أنفسهم بالمزاح الذي كان معظمه ينصب فوق رأسي بصفتي الشاب المدلل القادم من بحري والذي لم يتعود على العمل الشاق تحت الشمس الحارقة على العكس من رجال الصعيد الأشداء.

لكني لم أراجع واستمررت معهم حتى انتهاء الإجازة وعدت لوحدي في الجيش وقد تسلخت كفيّ وكثفّي وتورمت أقدامي. صارت أيامي في الجيش هي أيام راحتي، وفي الإجازة التالية صارت الأمور أفضل، وقلت سخرية العمال الآخرين مني.

لم تكن الأجرة القليلة تستحق كل هذا العناء ولكن المجهود الشاق الذي كنت أبذله هناك لم يكن يترك مجالاً للأفكار التي كانت تتصارع في رأسي وكنت في نهاية اليوم فقط أبحث عن مكان ألقى فيه جسدي المنهك، وكنا غالباً ما ننام في مكان العمل في مبانٍ تحت الإنشاء.

هذا بالإضافة إلى ميزة قضاء الإجازة بعيداً عن العزبة. استمر الحال على ذلك حتى تم استدعائي لمكتب القائد.

كان القائد يبدو مختلفًا عن اللقاء السابق، كان يبدو صارمًا عابس الوجه.

كيف حالك يا عبد الحميد؟

-الحمد لله.

كم تبقى لك في الخدمة العسكرية؟

-تقريبًا شهران سيادتكم يافندم.

-هل أخذت جزاءات من قبل في الوحدة هنا؟

-لا يا سيدي.

-هل تعرف كم مرة رفعت عنك الجزاء رغم أنك كنت تستحقه؟

-ابتلعت ريشي بصعوبة وقلت:- أعرف يا سيدي.

-لو لم أفعل ذلك لكنت فقدت دفعة أي قضيت ستة أشهر أخرى في الجيش.

صمت قليلًا ثم أكمل: ليس هذا فقط، بعد كل مشكلة كنت أنقلك للمكان الذي تختاره وعرضت عليك العمل في المبيت ولكن..

متى كانت آخر إجازة لك؟

من أسبوعين سيادتك يافندم.

وأين كنت أثناء الإجازة؟

كان طول الوقت يتكلم وهو ينظر في بعض الأوراق أمامه على المكتب،
ترددت قليلاً ثم قلت بصوت متحشرج: كنت في السويس.

وماذا كنت تفعل هناك؟

وقبل أن أرد رفع رأسه نحوي للمرة الأولى وقال بغضب: اللواء عبد
المحسن اتصل بي اليوم يسأل عنك.

أنا لا يعنيني ماذا تفعل في إجازتك اللعينة ولا ما يدور بينك وبين أهلك،
الأسبوع القادم ستأخذ إجازة وستعود إلى أهلك، لا يهمني ماذا ستفعل معهم
المهم ألا تأتيني شكوى منك مرة أخرى، لقد استكفيت منك بالفعل، أنا قائد وحدة
جيش ولست قائد روضة أطفال، هل فهمت؟

تمام سيادتك يافندم.

نصيحة أخيرة، لا أريد أن أسمع اسمك في الشهرين الباقيين إن كنت
تريد أن يمروا على خير.

-أوامر سيادتك يافندم.

أشار بيده لأنصرف وأعاد النظر في أوراقه.

"لماذا أعطاك القائد إجازة يا عبد الحميد؟"

قالها محمود أبو عمو في شك.

جاءته توصية يا محمود.

ولكنك عدت من إجازة قريباً ثم إنك قلت أنك لم تعد تريد إجازات.

-أنا لم أطلب إجازة ولكن أهلي طلبوا وساطة كي يعطيني القائد إجازة لأنهم اعتقدوا أنني محجوز في الوحدة.

نظر لي محمود نظرة شك أخيرة ثم عاد لعمله في الكانتين، هو لن يصدق، أي جندي يأخذ إجازة زائدة تدور حوله الشكوك دائماً أنه ربما وشى بأحدهم للقائد، كانت مكافأة القائد دائماً عبارة عن إجازة زائدة، ومحمود يخشى أن أكون قد وشيت به، أنا بالفعل أعرف عنه وعن الكانتين الكثير ولكن ليس من مصلحتي أن أشي به ثم أنني اعتدت أن أرى وأصمت.

المشكلة الآن ماذا سأفعل في الإجازة.

قلت لأبي أنني لم أرد أن أعود للعزبة وجدي غير موجود، لم يصدق طبعاً وظل يسألني إن كان هناك شيئاً آخر.

قال إنه كلم عمي فتحي كي يبحث لي عن عقد عمل في السعودية فلم أبد
اعتراضاً.

كنت أحاول أن أتجنب عمتي زينب عبد الحميد لأنها الوحيدة التي تستطيع
كشف أكاذيبي وإجباري على البوح بأسراري. ولكنها كانت في كآبتها التي زادت
بعد وفاة جدي فلم تتكلم معي كثيراً.

جلست مع جدتي أنيسة التي رغم حزنها على جدي لم تتخلَّ عن عاداتها
في تقديم النشرة الأخبارية التي تتضمن كل ما فاتني أثناء غيابي. بعد مشكلة
نائب المجلس مع القروض وإيداعه السجن توقف مشروع استغلال أرض رجع
الجنينة بل وتأجل مشروع الطريق الجديد، بعدها وُكِّل المهندس إبراهيم عمي
عبد القادر بإعادة زراعة نصيبه من أرض رجع الجنينة بينما تولى أبي زراعة
الجزء الخاص بجدي، بدأت الخلافات بعد وفاة جدي نتيجة تعدي عمي عبد
القادر على أرض جدي ولما كلمه أبي ادعى أن القسمة لم تكن سليمة وأن
الجسر الفاصل لابد أن يتحرك لداخل أرض جدي وعندما رفض أبي وقف عمي
طه مع عمي عبد القادر وأكد على كلامه. وعندما سألتها مندهشاً من موقف
عمي طه تجاه أرض أبيه قالت:

طه كان طوال عمره طماعاً، أنت تعرف أن عمك عبد القادر خلفته كلها
بنات حتى رزقه الله بولد منذ عدة سنوات وطه خطب بنته الكبرى وصار
يساعده في زراعة أرضه وتربية مواشيه حتى قبل وفاة جدك.

"لقد حان وقتك".

الصوت يرن في أذنيّ بينما أنا أجري بين الأشجار.

"أنا في انتظارك".

صرخت بعلو صوتي "لن آتي".

ظهر فجأة أمامي وقال بغضب: لا أحد يعصاني، لا أحد يستطيع، انظر حولك، كل من أمره يأتيني طائعاً.

تلفتُ حولي وقد بدأت التفاصيل تظهر مع الضوء الأصفر، بدأتُ ألاحظ الملامح شبه البشرية في جذوع الأشجار التي كانت أغصانها تتحرك كأنها تتلوى ألماً.

هذه الملامح تبدو كعوضين بشاربه الضخم، وهذه تبدو كعمي السعيد والد علاء وتلك تحمل ملامح شخص لا أعرفه، أخذت أنقل بصري بسرعة بين جذوع الأشجار التي تحمل ملامح بشرية وسط صوت ضحكاته حتى وقع بصري على شجرة تحمل ملامح مألوفة، عمي حافظ!، هل هذا معقول؟.

"لا أحد يستطيع الهرب مني"

هنا كانت صدمتي أمام إحدى الأشجار عندما ارتفع صوته "لا أحد" كانت الشجرة تحمل ملامح جدي عبد الحميد، لم يكن هنالك شك، هذا وجهه، مغمض العينين لكنه هو.

"هذا دورك، قبل أن تأتيني عليك أن تقوم بتقديم تضحيتك"

"وكما قلت لك من قبل، ما أريده سيكون، إن لم تقدمه أنت، سيقدمه
غيرك، وتبقى أنت خاسراً"

ركعت على ركبتَي ووضعت يديَّ على أذني وصرخت " لا اا اا اا، لن
أقدم أي شيء"

-عبد القادر، لا بد ألا يتقدم.

لا تعد

"خائب بلاده خائب بلاد الناس"

عمتي زينب الكبيرة.

تمت الأمور بسرعة، أعطيت أوراقى لسمير وجاعني الرد أن عمه لديه عقد عمل لي في السعودية ولكنه يحتاج إلى مبلغ كبير من المال، لا أستطيع أن أطلب من أبي، لا أريده أن يعرف أنني سوف أسافر ولا إلى أين.

ذهبت إلى عمتي زينب الكبيرة وشرحت لها الأمر وطلبت أن أقترض منها المال وطلبت منها ألا تخبر أحداً من العائلة.

-ولماذا لا تريد أن يعرف أحد يا عبد الحميد؟

-أنت تعرفين يا عمتي سبب سفري أصلاً وأنت نفسك شجعتني على السفر وهذا يشترط ألا يعرف أحد، لو عرف أحد لما كان هناك فائدة من سفري هكذا كانت الرسالة.

صدقني عمتي زينب رغم أنني لم أكن أعرف بماذا أجيبها لو استفسرت أكثر، ووعدتني أن تدبر لي المال.

وعندما أعطتني المال وعدتها أن أردّه لها في خلال عام من سفري فضحكت قائلة: لا يا عبد الحميد أنا أحلك من وعدك هذا، اعتبرها هدية. المهم أن تنجو بنفسك ولا تعد.

ولكنني أستطيع أن أرسله لك دون أن يعلم أحد.

تستطيع ماذا يا عبد الحميد، خائب بلاده خائب بلاد الناس، هل تعتقد أنك ستعود من الخليج لتبني بيتًا وتشتري أرضًا مثلما نرى ممن يذهبون هناك؟ أنا أدعو الله فقط أن تملك تذكرة العودة إن أردت أن تعود.

ضحكت من كلامها وقلت: شكرًا يا عمتي على تشجيعي، ثقتك فيّ دائمًا بلا حدود.

أنا فقط أمزح معك، ولكنني حقًا لا أريد هذا المال، اعتبره هدية ولكن ما أريده منك حقًا هو ألا تعود للعزبة فأنا أرى لك أحلامًا سيئة، لا تعد أبدًا وإن اضطررت للعودة لمصر لا تعد للعزبة، اذهب إلى الإسكندرية أو الصعيد أو العريش أو أي مكان آخر.

شكرًا يا عمتي، اطمأني فأنا لن أعود أبدًا ولكنني أريد منك وعدًا ألا تخبري أحدًا عن مكان سفري أبدًا.

تحجبت بأن هناك مشكلة في إجراءات استخراج شهادة إنهاء الخدمة العسكرية لأبرر لأبي كثرة غيابي وسفري للمنصورة وللقاهرة، قضيت عدة أسابيع وسط دوامة استخراج جواز السفر وإجراء التحاليل المطلوبة للسفر والكشف الطبي وتوثيق الشهادات والحصول على الفيزا ثم تصريح السفر من منطقة التجنيد.

تقريبًا لم أنم في حجرتي طوال تلك الفترة إلا مرات معدودة، كنت أتعلم النوم في المواصلات أو في منزل جدتي حميدة ومع ذلك لم تنقطع الأحلام.

في الغالب كانت أحلامًا مشوشة ولكن الرسالة كانت واضحة:

" أنا في انتظارك، عبد القادر لابد ألا يتقدم".

أعطتني عمتي زينب الكبيرة المبلغ الذي طلبته حتى أدفع ثمن العقد ومصاريف السفر والأوراق ووعدتني أنها لن تخبر أحدًا ثم سألتني إن كنت متأكدًا أن عقد العمل سليم لأن النصب في هذه الأمور أصبح معتادًا.

فأخبرتها أنني أشتريت العقد من عم واحد من زملائي في الجيش وأنه قال لي أنني سأعمل في مركز لصيانة السيارات وأن زميلي نفسه سيسافر معي للعمل هو الآخر.

هزت رأسها وقالت ضاحكة: ألم أقل لك أنك ستظل ساذجًا طوال عمرك، خذ هذه الورقة ربما تحتاجها إذا ضاقت بك الأمور.

ما هذه؟

رقم أخي فتحي.

-أنا لا أريد أن يعرف أي أحد أنني سافرت ولا أريد أن أحتك بأحد من عائلتنا أو من العزبة كلها، ثم إن أبي قال لي أنه كلم عمي فتحي كي يحضر لي عقدًا.

فتحي لن يحضر عقودًا، هو قد فرّ هو الآخر ويعيش وحيدًا حتى أنه انفصل عن زوجته التي عادت إلى مصر وتعيش مع أبنائهما في القاهرة بينما يعيش هو وحيدًا في الرياض، صدقني هو أيضًا لا يريد أن يرى أحدًا ولكن دع هذه الورقة معك ربما احتجت إلى مساعدته يومًا ما.

" ستعود إليّ.

مهما حاولت الابتعاد.

ستعود نادمًا.

وستدفع ثمن تأخرك.

أنا في انتظارك.

ستعود."

حملت حقيبتني قبل الفجر وتسللت.

وعندما وصلت لنهاية العزبة غالبني شعور أن أنظر خلفي، أن أنظر نظرة أخيرة على سنوات عمري التي سأمحوها من حياتي، ولكنني قاومت ومشيت مسرعاً دون أن ألتفت ورائي.

نزلت دمعة من عيني وأنا أتذكر وجوه عبير وعمتي زينب عبد الحميد وجدتي أنيسة وعمتي زينب أم جمعة وجدتي حميدة وعمر وماجد حتى تذكرت أبي فمسحت دمعتي وهممت الخطا مسرعاً عابراً كوبري الزواينة، لمحت عمتي زينب الكبيرة واقفة خلف باب شرفتها الموارب تُراقبني. ترى هل ستحفظ السر ولن تقول لأحد؟ ترى ماذا رأت في منامها حتى تصرّ على تشجيعي على السفر ومساعدتي؟ هل رأت أنه طلب مني أن أؤدي أخاها عبد القادر؟ ربما رآته يطلب مني إبداءها هي ذاتها أو ربما أحد أبنائها؟ ترى هل يلح الجميع على أن أسافر خوفاً على أم خوفاً مني ومن الشر الذي قد يأتي من ورائي إن اتبعت إغواء ذلك الشيء؟ أنا نفسي صرت أخاف مني.

كانت السيارة تنتظرني على الطريق الزراعي أمام المدرسة الإعدادية لتقلني إلى المنصورة، وهناك قابلت سمير وركبنا سوياً الحافلة التي ستقلنا إلى السعودية.

كان الأمر كما توقعت عمتي زينب الكبيرة، بعد الرحلة الطويلة جدًا والشاقة للغاية وصلنا جدة، وكان هناك رجل من طرف عم سمير في انتظارنا.

مركز صيانة السيارات الذي جئت لأعمل فيه هو ورشة صغيرة لصيانة إطارات السيارات وتغيير الزيت وملحق به مغسلة سيارات، وعندما قابلت مالك المحل الذي هو كفيلي قال لي أنه لا يحتاجني فهناك عامل يماني يدير الورشة وعامل من بنجلاديش للمغسلة، فقلت له أنني سأعمل معهما فقال إن العمل قليل ولا يحتاج للمزيد من العمال.

كان الأمر معتادًا ولكني كنت ساذجًا كما قالت عمتي، لقد استخرج لي فيزا للعمل بينما هو ليس في حاجة لخدماتي ولكنه أخذ جواز سفري وقال إنه سيسمح لي أن أبحث عن عمل في أي مكان في مقابل مبلغ من المال أسلمه له نهاية السنة حين يأتي موعد تجديد الإقامة.

كان الأمر مخالفًا لما كنت أتوقعه ولما قاله لي عم سمير، ذهبت لسمير الذي استلم عمله في معرض لتأجير السيارات وحكى له ما حدث فقال أن هذا شيء معتاد وأنه سيطلب من ابن عمته الذي يعمل في جدة منذ سنوات أن يساعدني في البحث عن عمل. سكنت مع سمير في الشقة التي يسكن فيها ابن عمته واثنان آخران. وأخذت أبحث يوميًا عن عمل دون جدوى، بعد أسبوع قال لي سمير أنه وابن عمته طارق ذاهبان لأداء العمرة فذهبت معهما، أخذ طارق يشرح لنا عن الإحرام وطريقة أداء العمرة وعندما وصلنا الحرم أوقفنا قبل أن ندخل وقال: عندما يقع بصرك على الكعبة أول مرة سيكون لك دعوة مجابة، فاتبعاني ولا ترفعا نظريكما من على الأرض حتى تكون الكعبة ظاهرة أمامنا

حينها سأقول لكما، وعندما فعلنا ذلك، رفعت رأسي فوجدت الكعبة أمامي، هي نفسها كما كنت أراها في التلفيزيون، لكن في الواقع وعندما تراها من داخل الحرم وترى ضخامتها وجموع المعتمرين الذين يطوفون حولها يكون لها تأثير ورهبة، رفعت يدي وأخذت أدعو، انهمرت دموعي دون أن أدري، جلس سمير وطارق في انتظار انتهائي من الدعاء ولكني لم ألتفت لهما، كنت أشعر أنني أمام بيت الله حقاً، بل كأنني أتحدث إلى خالقي دون حجاب، فشكوت له ضعفي وقلة حيلتي وخيبة أمني في كل من حولي، شكوت إليه أن الشر استقوى وسيطر على عبادته وبدأ الخير في الانزواء، لولا إلحاح سمير وطارق لظلمت واقعاً أمام الكعبة أدعو طوال الليل.

أكملت مناجاتي لله أثناء الطواف حول الكعبة محاولاً الاقتراب منها أثناء الطواف قدر استطاعتي، وبعدما انتهينا من السعي خرجنا من الحرم وقادنا طارق نحو صف من محلات الحلاقة، دخلنا أحدها حيث جلسنا وبدأ الحلاقون في حلق شعورنا بالموسي، وضع الحلاق على رأسي الصابون وبدأ في الحلاقة بسرعة حتى أنه جرح رأسي، وعندما تألمت وحاولت أن أنبهه لكزني في كتفي وقال "ما في كثير جرجر" لم أفهم ما يقصد ولكني وجدت طارق يضحك ويفسر لي ما يحدث حيث أن حلاقي الحرم في مواسم العمرة والحج غالباً ما يكونوا عمالاً لا دخل لهم بمهنة الحلاقة ويتم الاستعانة بهم فقط أثناء مواسم الزحام، ولأنهم يريدون أن ينتهوا من أكبر عدد ممكن من الزبائن فإنهم يحلقون بسرعة جداً فتكون النتيجة هكذا.

ثم أشار إلى رأسي الذي سال الدم من أكثر من موضع فيه، وضع الحلاق على كل جرح قطعة منديل ورقي ثم دفعني من على المقعد.

بعدها عاد سمير وطارق إلى جدة بينما قلت لهم أنني سأبقى هنا بعض الوقت، غيرت ملابسي في حمامات الحرم ثم أخذت أتجول في الحرم حتى غلبني النوم فتمت في أحد الأركان الباردة.

لأول مرة منذ سنوات أنام دون أحلام، ظللت يوماً كاملاً نائمًا، أستيقظ على الأذان فأقوم وأتوضأ وأصلي الفرض وأعود إلى نومي.

ظللت في مكة أسبوعاً كاملاً شعرت فيه أنني فعلاً قد ابتعدت بما فيه الكفاية، شعرت أنني ولدت من جديد، وقررت أن أنسى كل ما فات كأنه لم يكن.

عندما عدت إلى جدة قال لي سمير أن طارق وجد لي عملاً.

وبدأت رحلتي مع العمل في السعودية، ورغم أنني محوت ماضي كاملاً وبدأت حياتي من جديد إلا أنني احتفظت بسوء حظي وفشلي المتكرر.

لا داعي لذكر التفاصيل ولكن ماحدث أنني أحرزت فشلاً ملموساً في كل عمل التحقت به، بدأت بالعمل الذي وجده لي طارق، في محل بقالة على أطراف جدة، لم أستمع هناك أكثر من شهرين حتى طُردت، بعدها وجدت عملاً في مخبز ثم في مخزن قطع غيار سيارات. اكتشفت أن الشر الكامن في نفوس الناس يتضاعف في الغربة أو كما يقولون أن الغربة تخرج أسوأ ما فينا، فالمغتربون- المصريون بالذات- يكاد يأكل بعضهم بعضاً، ليس الأمر تنافساً في العمل أو الرزق بل الرغبة في ضرر الآخرين حتى ولو لم يعد عليك ذلك بفائدة، ويتجلى

الأمر عند ظهور وافد جديد للمكان كأن كل منهم ينتقم مما تعرض له أثناء غربته في شخص الوافد الجديد.

طال تنقلي بين الوظائف مع فترات من البقاء دون عمل تصل أحياناً إلى شهور، كما توقعت عمتي زينب الكبيرة لم أستطع توفير أي مال بل بالكاد كنت أجمع المبلغ الذي أدفعه لكفيلي عند تجديد الإقامة وأحياناً كنت أقترضه.

بدأت أتنقل في المملكة؛ محل أحذية في المدينة، مزرعة جمال في تبوك، مصنع طوب في ينبع، مزرعة نخل في القصيم. حتى حدث الخلاف مع كفيلي حين طلبت منه أن أنقل كفالتي على صاحب المزرعة التي أعمل بها، فرفض بشدة بل وزاد المبلغ الذي يطلبه عند تجديد الإقامة.

ونظرًا لأنني لم أكن أملك ما يكفي لسداد المبلغ تصاعد الخلاف بيننا، وهددني أنه سيبليغ الشرطة عني حتى يتم القبض على وترحيلي وعندما علم صاحب المزرعة طردني خوفاً من المشاكل مع كفيلي.

وعندما ضاقت بي الدنيا فتحت حافظتي وأخرجت الورقة التي أعطتني إياها عمتي زينب الكبيرة واتصلت بعمي فتحي.

الهدوء الذي.

"هناك اعتقاد خاطيء أن الموت والحياة ضدان لا يلتقيان، فرغم أنه في معظم الأوقات عندما يأتي الموت تنتهي الحياة إلا أنه من الوارد أن يأتي الإنسان الموت ثم يستمر في حياته، أنا شخصياً مُت منذ سنوات ولكني لازلت حياً، صحيح أنها حياة أقرب إلى الموت ولكنها ينطبق عليها شروط الحياة، لذلك لقد أوصيت أنه عندما يتم إعلان نهاية حياتي يكتب على قبوري تاريخ وفاتي الحقيقي وليس تاريخ دخولي القبر"

عمي فتحي الشرقاوي

كان عمي فتحي مقتضباً جداً في كلامه، عندما قلت له من أكون ظل صامتاً لدقائق ثم قال: وأين أنت يا عبد الحميد؟

-أنا في القصيم.

ثم حكيت له مشكلتي مع كفيلي، فطلب مني اسم كفيلي ورقم هاتفه وطلب مني أن أظل مكاني وعندما سألني عن رقم هاتفه قلت أنه ليس معي هاتف، فطلب مني أن أتصل به بعد ثلاثة أيام ثم أنهى المكالمة.

بعد ثلاثة أيام اتصلت به، فأخبرني أنه أنهى الأمر مع كفيلي وطلب مني أن أذهب إلى الرياض وأعطاني عنوان الشركة التي يعمل بها.

في اليوم التالي كنت أمام باب الشركة في الثامنة صباحًا وأخبرتهم أنني أريد مقابلة المهندس فتحي الشرقاوي فقالوا لي أنه لم يأت بعد فجلست أنتظره.

في العاشرة رأيت، كان يرتدي جلبابًا أبيض مثل السعوديين ولكن بدون عقال أو شماغ، دخل من الباب فاندفع فرد الأمن وحمل حقيبته وفتح له باب المصعد، حاولت أن أذهب إليه وأكلمه فمنعني فرد أمن آخر فقلت له إنه عمي وأنه هو من طلب لقائي.

فأمرني أن أنتظر. جلست مكاني وسألت أحد الموظفين: ما هو منصب المهندس فتحي الشرقاوي في الشركة؟

فقال: إنه نائب رئيس مجلس الإدارة، في الحقيقة إنه هو من أسس الشركة مع الشيخ، وهو الذي يدير كل شيء هنا.

اتصل فرد الأمن بمكتبه وقال أن هناك من يدعي أنه على موعد مع المهندس فتحي واسمه عبد الحميد الشرقاوي.

انتظر حتى جاءه الرد ثم أشار لي: تفضل، مكتب المهندس فتحي في الدور الأول.

صعدت إلى الدور الأول وسألت على مكتبه فأشاروا لي على نافذة من الزجاج المصنفر في أسفلها فتحة صغيرة رأيت أحد الموظفين يدس أوراقا بها. سألته: هل هذا هو مكتب المهندس فتحي؟

نعم، عليك التحدث مع السكرتيرة من هنا وهي ستأخذ أوراقك لعرضها عليه.

ظهر ظل وراء الزجاج ثم ظهرت أوراق من الفتحة مع صوت أنثوي يقول أن المهندس وقعها بالفعل.

هياً إلى أنني أرى ألواناً خلف الزجاج كأن السكرتيرة ترتدي ملابس ملونة أو تضع أحمر شفاة وهي أشياء لم أرها منذ أتيت إلى السعودية.

قربت فمي من الفتحة وقلت: لو سمحت أريد أن أقابل المهندس فتحي، قل لي له عبد الحميد الشرقاوي.

تفضل من الباب.

ذهبت إلى باب المكتب وطرقته فقالت: انتظر دقيقة لو سمحت.

ثم فتحت الباب وأشارت لي بالدخول.

كانت الغرفة تحتوي على مكتبين أحدهما تجلس عليه سكرتيرة لا تغطي وجهها على غير المعتاد هنا وكانت تضع على رأسها طرحة تكشف نصف شعرها يبدو أنها وضعتها حالاً قبل دخولي، السكرتيرة الأخرى التي فتحت لي الباب كانت مثلها تضع الأصباغ على وجهها ولا ترتدي العباءة السوداء وتضع على رأسها طرحة لا تكاد تغطي شيئاً، أشارت لي إلى باب مكتوب عليه رئيس مجلس الإدارة فدخلت.

كان عمي فتحي جالساً على المكتب ينظر في أوراق أمامه، كنت لا أزال في دهشتي مما رأيت في الخارج فوقفت صامتاً، رفع رأسه إلى وقال: أهلاً يا عبد الحميد.

تقدمت إليه فسلم على سلاماً بارداً وأشار لي أن أجلس. بدا غير سعيد برويتي فتذكرت كلمات عمتي زينب الكبيرة أنه أيضاً هارب ولا يريد أن يرى أحداً من العزبة.

-لقد أنهيت الأمر مع كفيلك الجشع وسنقوم بنقل كفالتك على الشركة هنا.

-وماذا سأعمل هنا؟

-هذه شركة تشغيل، نتولى تشغيل مستشفيات كبيرة، نعين فيها طاقم الأطباء والتمريض والفنيين والعمال، أنت ستعمل كمشرف نظافة دورك أن تراقب عمال النظافة وتوجههم وهو عمل سهل ولكن عليك أن تكون ملتزماً، لا أريد أن تصلني أي شكاوى منك.

-ومتى سأبدأ العمل.

-غداً يمر عليك سائق الشركة ليوصلك إلى المستشفى التي ستعمل فيها، إنها تبعد تقريباً مائة كيلومتر عن الرياض، ستبدأ العمل غداً حتى ينهي موظفو الشركة إجراءات نقل كفالتك واستلام جواز سفرك من ذلك النصاب كفيك.

-وأين أذهب الآن؟

-ستنتظرنى في قاعة الانتظار حتى أنهى عملي وتأتي معي للبيت.

بعد عدة ساعات قضيتها مع حقيبتى في قاعة الانتظار أشار لي عمي فتحي كي آتى معه.

ركبت معه في السيارة.

-هل معك شيء آخر غير هذه الحقيبة؟

-لا شيء، هذه فقط.

-هذا جيد.

وتحرك بالسيارة صامتاً.

-لقد تغيرت كثيراً يا عمي.

كل شيء يتغير يا عبد الحميد، الزمن لا يترك شيئاً على حاله، وأنت أيضاً كبرت وتغيرت كثيراً.

كان عمي فتحي فيما سبق رجلاً مرحاً لا يكف عن المزاح وكان عندما يجتمع مع أبي وعمي حافظ كانوا قادرين على تغيير جو أي تجمع ونشر البهجة والمرح، ترى ماذا حدث له؟

-عمي، هل يعرف أبي أنني في السعودية؟

لم يكن يعرف ولكني أخبرته بالطبع.

-هل قابلت عمي حافظ قريباً؟

صمت عمي فتحي ولم يرد، لم يبد على ملامحه أي تغيير وإن جاء صوته محشرجاً: لا، لم أره منذ سنوات.

-الايزال هنا في السعودية؟

-آخر مرة كلمني قال أنه سيسافر إلى الكويت.

وصلنا إلى البيت فركن سيارته وأشار لي أن أنزل.

كان يقيم في شقة واسعة وجميلة ولكن لا حياة فيها، صور زوجته وأبنائه، صوت الشيخ الشريم ينبعث من مكان ما.

دق جرس الباب، كان عامل التوصيل يحمل طعام الغداء، أكلنا في صمت، ثم أشار عمي فتحي نحو غرفة وقال: أعرف أنك مرهق يا عبد الحميد تستطيع أن ترتاح هنا.

-أريد أن أتكلم معك قليلاً يا عمي إن لم تكن مشغولاً.

-ليس الآن يا عبد الحميد، أنا سأذهب الآن لأن لدي موعد هام وعندما أعود سنتكلم كما تريد.

طبعاً لم يعد إلا في الواحدة صباحاً، وفي تمام الساعة كان السائق السريلانكي يدق الباب ليحملني إلى مكان عملي.

الوضع في المستشفى كان مختلفاً تماماً عن مستشفيات مصر، كل شيء هنا منظم ودقيق، معظم العاملين في المستشفى مغتربين، ربما حراس الأمن وموظفو الإدارة فقط سعوديون.

واجهت صعوبة في البداية في فهم نظام العمل ولكن كوني من طرف المهندس فتحي جعل مدير الموقع يتغاضى عن أخطائي، مع الوقت فهمت أن عملي بسيط جداً، أمر في الحديقة والمستشفى لأتأكد أن العمال-معظمهم من بنجلاديش- يقومون بعملهم على أكمل وجه، قص الحشائش، نظافة الأرض، أبواب المستشفى، نظافة الأقسام، تلميع الأرضيات، حتى ري نباتات الظل داخل المبنى وتنظيف اللوحات المعلقة على الجدران.

بدا الأمر سهلاً بعد معاناتي مع مزارع النخل والجمال، وبدأت فترة هادئة في حياتي، ذلك لا يمنع أن أحتفظ بسوء حظي وموهبة تواجدي دائماً في المكان والزمان الخاطئين.

المجتمع السعودي مجتمع محافظ جداً خاصة في المدن الصغيرة ولكن ذلك لم يمنع حدوث بعض المشاكل هنا وهناك.

الممرضات يقمن في سكن داخل المستشفى، السكن محاط بسور وسلك شائك ويجلس فردي أمن على البوابة باستمرار، وغير مسموح لهن بالخروج من المستشفى إلا بإذن رسمي وموافقة الإدارة ويخرج معهن فرد أمن ومشرفة السكن.

هذا لم يمنع أن تخرج ممرضة فلسطينية في عباءة سوداء ونقاب وتركب سيارة كأنها مرافقة مع مريضة، وطبعاً لا بد أن أكون بالصدفة شاهداً على ذلك، فرد أمن يتسلك نافذة أحد الأقسام ويدخل ليلاً لسبب معروف، ممرضة تحمل معها كمية كبيرة من المستحضرات الطبية في صندوق كبير لتسافر بها، طبيب يغادر المستشفى ليلاً ويذهب لبيته ليعود في الصباح كأنه قضى الليل في القسم.

ولكنني تعودت دائماً أن أصمت، ولم أدع شيئاً يعكر صفو حياتي التي صارت هادئة لأول مرة.

المرتب لم يكن كبيراً ولكنه كان يكفيني لأن متطلباتي كانت قليلة؛ فأنا لا أحول أموالاً لمصر، ولا أحمل هاتفاً جوالاً، ولا أجري مكالمات دولية، ولست مولعاً بشراء الملابس ولا أملك حتى تليفزيون.

كنت أقيم في سكن الشركة وهو بيت من دورين أقيم في غرفة وحدي- بتوصية من عمي فتحي- وبغية الغرف فيها اثنان من الفنيين أو الممرضين.

لم أكون صداقات كثيرة نظراً لانعزالي وقلة كلامي ربما باستثناء نصر الدين وهو ممرض سوداني يقيم في الغرفة المجاورة.

-عبد الحميد، نحن ذاهبون للنعب كرة، هل تأتي معنا.

-نحن ذاهبون إلى الرياض للتسوق هل تأتي؟

-عباس سيسافر نهائياً إلى بلده ويبيع تلفاز هل تريده؟

-هناك فرصة للعمل الإضافي سرّاً في صيدلية قريبة ما رأيك؟

حسن يعمل في تركيب أطباق التقاط البث التليفزيوني ويريد من

يساعده؟

-عندنا إفطار جماعي في الجمعية السودانية هل تفطر معنا؟

-سمعت ممرضة فلبينية في الطواريء تتكلم عنك أمس، هل تريد أن

تعرف ماذا كنت تقول؟

لم يمل نصر الدين من محاولاته إخراجي من عزلتي، وكان يبدي دهشته دائماً من الحياة التي أعيشها، ولكني كنت راضياً، لا أستطيع أن أقول أنني كنت سعيداً فأنا لم أستطع أن أنسى حياتي الماضية ولكني لم أشتق للعودة إليها فقط أشتاق إلى عبير، عمر، عماتي زينب، مضت حياتي بهذا الشكل الرتيب؛ عمل، مطعم، مسجد، نوم، وكل شهر أو شهرين أذهب لأداء عمرة أو لزيارة المدينة. سار كل شيء على مايرام حتى استدعاني مدير الموقع وقال لي: جهز نفسك سيمر جابر الآن عليك بالسيارة لتذهب إلى الرياض.

فقلت بدهشة: ولماذا أذهب إلى الرياض؟

-المهندس فتحي يريد أن يراك اليوم وبأقصى سرعة؟

العاصفة

"إنت يا زول أنت حكايتك شنو، شغل ما داير تشتغل، تليفزيون ما بتتفرج، هسي الناس كلها شايلة جوالات وانت لا معاك جوال ولا هناي، كورة ذاتو ما بتلعب، أنت عايش عشان تسوي شنو، اللي أنت فيه ده اسمه موت ساكت، الزول اللي زيك أصلو ما يستنى، تروح من هسي تنام في القبر عديل."

نصر الدين سر الختم

كان جابر سائق الشركة فتى من سريلانكا، اسمه الحقيقي جاناكا وبعد أن أعلن إسلامه اختار له مكتب توعية الجاليات اسم " جابر". كانت عائلته جميعها تدين بالبوذية بما في ذلك والديه وزوجته وأبنائه.

كان يقود السيارة بسرعة جنونية ويدندن مع الموسيقى المنبعثة من كاسيت السيارة، سألته عن الموسيقى العجيبة التي يسمعها فقال إنها شيء من تراث سريلانكا، بدت لي كالمواويل أو السيرة الهلالية التي كنا نسمعها في الموالد.

كان جاناكا يقيم معنا في سكن الشركة وكانت بيننا صداقة بسيطة ولقد حاول أن يعلمني قيادة السيارة من قبل وطبعًا دون فائدة.

سألته عما يقول المغني، تردد قليلاً ثم بدأ يترجم لي، كان المغني يحكي قصة بوذ-الذي فهمت أنه هو نفسه بوذا- الذي رغم أن أباه كان ملكًا إلا أنه عاش زاهدًا وكان يدعو للخير.

لم أفهم معظم قصته نتيجة صعوبة التواصل بلغته العربية الضعيفة ولكنه أخذ يحكي شيئاً عن روحه التي انتقلت بعد وفاته لشخص آخر وأن الناس جميعًا بعد وفاتهم تنتقل أرواحهم إلى أجساد أخرى تولد في لحظة وفاتهم، ومن قام بعمل شرير في حياته قد تنتقل روحه عند وفاته إلى جسد حيوان.

تركته منسجماً مع حكاية بوذا وأخذت أفكر فيما دفع عمي فتحي للقائي بشكل عاجل وهو من كان يتفادى لقائي والكلام معي.

هل وصلته شكوى من مدير الموقع؟

هل حدث شيء في العزبة؟

الغريب أيضاً أن جاناكا أوصلني لبيت عمي فتحي وليس للشركة.

فتح عمي فتحي الباب وأشار لي أن أدخل، بدا متجهماً كعادته، جلس في صمت فقلت له: ما الأمر يا عمي؟

فوضع ظرفاً أمامي وقال: هذا جواز سفرك، لقد سجلت لك فيزا خروج وعودة وأصدرت لك قرار إجازة سيصل إلى مديرك اليوم وستجد هنا تذكرة سفر للقاهرة موعدها غداً صباحاً.

-ولكني لم أطلب إجازة؟ هل حدث شيء في العزبة؟

صمت قليلاً ثم قال: أبوك في حاجة إليك؟

-هل حدث له مكروه؟

ليس بالضبط، ولكن من المؤكد أنك تعرف أن مسؤولياته كثيرة وأعمالك قد اختلفوا معه وصار الحمل ثقيلاً جداً عليه.

-ولكنه كان يلحّ على دائماً أن أسافر، هل طلب هو منك أن أعود؟

-هو لم يطلب ذلك، وأنا أعرف أنه لا يريدك أن تعود ولكن الأمر اختلف الآن، أخوك محمد مناعته صارت ضعيفة منذ زراعة الكلى، وأصيب بالتهاب رئوي وتم حجزه في المستشفى أكثر من مرة وبدأت الكلى الجديدة تتدهور هي الأخرى، وأبوك نفسه صار مريضاً وسقط مغشياً عليه أكثر من مرة، وأعمالك تشاجروا مع أبيك ووصلوا لطريق مسدود.

-تشاجروا طبعا بسبب أرض رجع الجنينة؟

طبعًا، عمك طه يريد أن يأخذ نصيب جدك ليضمه لنصيب المهندس إبراهيم الذي صار معه. وطبعًا أبوك رفض تنفيذًا لوصية جدك وعرض عليه أي ترضية ولكن طه رفض.

وكيف حصل طه على أرض المهندس إبراهيم؟

بعد وفاة المهندس إبراهيم ذهب هو وعبد القادر وأقنعا أبناءه بالتخلص منها واشتراها عبد القادر، وبعدما حدث لعبد القادر صارت الأرض مع طه.

وماذا حدث لعمي عبد القادر؟

لقد سقطت العربة على ابنه الوحيد وأصيب بكسر في العمود الفقري وظل في المستشفى شهورًا ولكنه خرج منها طريح الفراش غير قادر على تحريك أطرافه الأربعة ومن يومها وعبد القادر يحمل نفسه مسئولية ما حدث لأنه كان يجهز العربة مع طه بينما ابنه يلعب خلفها دون أن يلاحظ وجوده، فأصبح يقضي حياته بين البكاء ورعاية ابنه المريض ولم يعد يخرج من بيته أبدًا ووكل طه بصفته زوج ابنته الكبرى في التصرف في كل شيء. بعدها طالب طه بتقسيم تركة جدك عبد الحميد وصمم أن تكون رجع الجنيئة من نصيبه وصار الخلاف مع أبيك.

وما هو موقف عمر؟

-هنا تكمن المشكلة، عمر يرى أن يتم التخلص من هذه الأرض حتى تنتهي مشاكلها التي تتوارثها الأجيال وبالفعل قرر أن يلجأ للمحكمة لعمل إعلام وراثة رسمي مما أغضب أباك جداً.

-وماذا على أنا أن أفعل، أعتقد أن وجودي لن يفيد بشيء، هم فقط يعيدون التاريخ المكرر ولا فائدة من محاولة تغيير تفكيرهم.

-ماذا عن أبيك؟

-فليتركها لهم ويتفرغ لحياته ومشاكله.

-هل تعتقد أن هذا قرار صائب؟

-أعتقد هذا، عفوا يا عمي أنا لن أعود إلى مصر وإن أُجبرت على العودة لن أعود إلى العزبة، وأبي عليه أن يدبر شئونه بنفسه، وجودي لن يفيد.

نظر عمي فتحي إلى الأرض وصمت قليلاً ثم قال: دعنا نتكلم بصراحة يا عبد الحميد، أنت تعرف أن وجود هذه الأرض مع أبيك مهم جداً وتعرف أيضاً أن صمود أبيك يحمي الكثيرين ويمنع الكثير من الشر، ولكن الشر زاد جداً واستطاع الوصول لنفوس أشخاص آخرين وبدأت الأمور تسوء بشكل كبير، أبوك لا زال يقاوم ويحاول إخماد الغضب والشر المشتعل ولكني أرى أن الأمر يفوق قدرته هذه المرة، هل تعلم ماذا قال عمر عندما أخذ أباك إلى المستشفى بعدما فقد وعيه في الطريق؟ قال إنه مصاب بفقر دم شديد، هل تعرف كيف يفقد أبوك دمه؟ هل تعرف ماذا يفعل أبوك بدمه؟ ولماذا؟

لم أرد عليه فأكمل كلامه: ربما لا تعرف ماذا من الممكن أن يحدث لو استسلم أبوك أو استجاب لنداء الشر مرة واحدة، أنت لا تعرف القوة التي من الممكن أن يصل إليها ذلك الشيء، حينها ستراق الكثير من الدماء ولن يستطيع أحد مقاومته.

-أعتقد أنك تبالغ في رسم هذه الصورة الملائكية عن أبي، أنا لن أعود لبؤرة الشر هذه لأجد نفسي ملوثاً مثلما وجدت كل من حولي بما فيهم أبي.
ولكن أباك لم يتلوث بالشر ولولاه..

قاطعته في غضب بعدما فقدت قدرتي على إدعاء البرود والهدوء: بلى تلوث، تلوث جداً ولقد رأيته بعيني وهو يدفن ضحيته، عمه وصديق عمره، دفنه في أرض الجنيّة بعدما قتله.

امتع وجه عمي فتحي وقال بصوت متحشرج: ماذا تقصد؟

-أقصد ما سمعته، لقد رأيت أبي وهو يدفن عمي حافظ في الجنيّة، وادعى بعدها أنه سافر للسعودية، وعاش حياته بعدها بشكل عادي كأبي قاتل محترف، ربما تعرف أنت أيضاً بالجريمة لأنك ساعدته في إخفاء الأمر عندما قلت أنك قابلت حافظ في السعودية وأرسلت خطاباً باسمه.

بقى عمي فتحي ينظر للأرض في صمت لدقائق وعندما قمت لأغادر الشقة قال: لقد ظلمت أباك يا عبد الحميد، أنا قتلت أخي حافظ.

عُدت

"قد تصيبك حادثة في حياتك تترك جسدك سليماً ولكنها تقتلك من الداخل، فتتنفس وتأكل وتعمل ولكنك تمارس حياتك ميتاً، ما يفصلك عن الموت فقط هو مجيء تلك اللحظة التي يرسل أهلك في طلب طبيب الوحدة ليأتي الطبيب الشاب ليفحصك على عجل ويلقي كلمته قبل أن يفر هارباً (البقاء لله)، أنا لن أنتظر ذلك، أنا أعلنت وفاتي بالفعل ولا يهمني متى يضعوني في القبر الآن أو بعد سنوات. أنا بالفعل بدأت في ممارسة الموت"

عمتي زينب عبد الحميد

وقفت مكاني مصعوقاً ونظرت إليه في دهشة بينما بقي هو مطرقاً رأسه ناظراً للأرض.

كيف هذا؟ ولكني رأيته يدفنه في الجنيّة؟

بدأ الأمر حين أمرني ذلك الشيء في منامي أن أوقف حافظ.

- "حافظ لابد أن يصمت للأبد".

-أجل إنها نفس الرسالة، ولما حكيت لأبيك قال أن الرسالة نفسها وصلته وطلب مني أن أعجل بسفري حتى لا يؤذيني ذلك الشيء وقال إنه يعرف كيف يطفئ غضبه ولكن لابد أن أغادر أنا وحافظ العزبة، قابلنا حافظ على البحر الجديد وكان وقتها مصمما على بيع الأرض لنائب المجلس وأقنع المهندس إبراهيم وكانت الخلافات على أشدها في العائلة، حاولنا إقناعه أن يغير رأيه بشأن الأرض فرفض وأصرّ على رأيه، ولما أخبرناه أن في الأمر روح شريرة قد تضره، غضب منا ولم يصدقنا، تصاعدت وتيرة الغضب بيننا أثناء نقاشنا ولا أدري كيف حدث هذا ولكننا اشتبكنا بالأيدي وثار حافظ بشكل لم أعده فيه وكان كأنه ثور هائج، وكان أبوك يحاول التفريق بيننا دون جدوى، لا أدري كيف حدث هذا ولكنني دفعت حافظ بقوة فسقط أرضاً وارتمت رأسه بحجر ومات.

بعدها أخذت أصرخ وأبكي غير مصدق لما اقترفت يداي، أخذت أهز جسدي حافظ وأنادي عليه وأتوسل إليه أن يرد عليّ. يومها أمرني أبوك أن آخذ حقيبتني وأسافر وأنه سيتولى الأمر، كانت طائرتي بالفعل في اليوم التالي فأخذت حقيبتني وذهبت إلى القاهرة وفي الصباح سافرت.

لم أعرف ماذا فعل أبوك ولكنه تحمل المسؤولية ودفن حافظ، لولاه لافتضح الأمر، لا أقول أنه أنقذ حياتي لأن حياتي انتهت يومها ولم أستطع أن أعتبر نفسي حياً بعدها، انفصلت عن زوجتي وأبنائي وعشت هنا هذه الحياة الميته في انتظار انتهاء عمري، ولكن أبوك أنقذني من البقاء تحت سطوة ذلك الشيء الذي لوث روحي للأبد وكان من الممكن أن يدفعني للكثير من الشرور

بعدها دفعني لقتل أخي، وأنقذ العائلة من العار الذي كان سيصمها للأبد لو انكشفت جريمتي.

رفع رأسه إلى وقد أغرقت دموعه وجهه ثم قال: يا عبد الحميد، أبوك لم يتلوث بالشر، هو كان فقط يغسل عني جريمتي، وهو الآن في خطر، ذلك الشيء غاضب جداً، ولقد زادت قوته بعدما استجاب له بعض الناس في العزبة، وهو على استعداد لقتل أبيك وإخوتك وأعمامك في سبيل الوصول لما يريد، وكلنا نعرف منذ زمن طويل ما يريد.

إنه يريدك أنت.

عدت إلى العزبة.

وبعد جلسة مطولة مع جدتي أنيسة عرفت أخبار العزبة، عمي عبد القادر لازال لا يغادر منزله ومتفرغ لخدمة ابنه منذ إصابته، عمي طه صار فجأة من أثرياء العزبة من تجارة البصل، أحمد بن حامد أبي العوضي صديقي تزوج وأنجب ولدين، وأبوه حامد أبو العوضي أصيب بمرض في الكبد وتوفي. محصول "صالح أبي عطا" احترق بينما قام أحدهم بتسميم مواشي سليمان أبي عبد المقصود، حاتم ابن سعيد أبي زينة انقلبت به سيارته ومات هو وزوجته وابنته. أما بالنسبة للغائبين فضمت القائمة أسماء جديدة؛ محمد أبا حسانين، عوض أبا طه، حتى ياسر ابن عمتي سعاد الذي كان يعمل بوظيفة مهمة في الخارج وتوسط لي أثناء الخدمة العسكرية وتوسط لـ ماجد ووظفه في مدينة

الإنتاج الإعلامي اختفى فجأة ولم يعرف أحد مكانه حتى أن الشرطة فتشت بيوت العزبة بحثاً عنه واصطحبوا ماجد معهم للتحقيق معه.

كنت أمشي في الجنية بين الأشجار التي تحمل جدوعها الوجوه المشوهة، لم أكن أجري كما كان الأمر في الماضي.

كنت أمشي بثقة.

ظهر أمامي فجأة.

-ها قد عدت. عدت متأخراً ولكنك عدت.

لم أرد عليه فاستطرد: لعلك تأكدت أنا ما أريده يتحقق بك أو بغيرك، كل ما رفضت أنت تنفيذه نفذه غيرك ودفعت أنت ثمن ذلك مضاعفاً، والآن عدت ولكني لن أقبلك قبل أن تظهر ولاءك وتضحى التضحية الكبرى.

-أنا لن أضحي بشيء.

ضحك ضحكة عالية ثم قال: لا زلت في عنادك، ولكني واثق أنك ستطيعني هذه المرة، لأنني لم يعد لدي وقت لابد من أن أنهى الأمر في أقرب وقت.

سكت قليلاً ثم قال: عمر لابد أن يتوقف.

هنا ثار الغضب في قلبي وصرخت بصوت عالٍ:

|| || || || || || || || || || י-

من يظن نفسه هذا الشيء حتى يطلب مني هذا.

اختفى من أمامي واختفت الأشجار ووجدتني أمشي على الطريق بمحاذاة سور الجنينة من الخارج، كانت الذئاب تجري خلفي، أخذت أجري وكلما التفتُ وجدتُها تقترب أكثر وفجأة توقفت وبدأت تتراجع في خوف نظرت أمامي فوجدت عمتي زينب أم علي تجلس على الجسر بجوار صديقتها ستي كل.

- لا تخف يا عبد الحميد لن يؤذوك.

كانت ترفع في يدها شيئاً وكانت الذئاب تنظر لها في خوف.

-اقترب الأمر يا عبد الحميد، وأتمنى أن تكون على قدر المسؤولية، أعانك

الله.

لقد طلب مني أن أؤدي عمر، هو يعرف أنني لن أفعل ذلك أبدًا فهل يقصد أن أوقفه فقط.

-هو يعرف ما يريدہ جیڈا ويعرف كيف يحصل عليه. هو يعرف نقطة ضعفك ويضرب عليها.

ماذا على أن أفعل إذا؟

-لا أدري يا بني، حقاً لست أدري.

بدأ صوتها يخفت وصورتها تهتز

-ولكني تركت لك أمانة مع ابني حسن، ربما تفيدك.

وجدت بنتاً صغيرة تلعب في فناء البيت.

سألتها: ما اسمك؟

-زينب.

-زينب ماذا؟

-زينب عصام جابر.

-وماذا تفعلين هنا يا زينب؟

-جئت لزيارة ماما زينب.

وظهرت فتاة أخرى كانت تختبئ خلف باب المنزل فقالت زينب: وهذه أختي سماح.

خرج بعدها عصام من غرفة الضيوف ومعه عمتي زينب عبد الحميد،
فسلم على وهنائي بسلامة الوصول واستأذن في الانصراف، فجرت الفتاتان
على عمتي زينب وحضنتها مودعتين.

كانت جدتي أنيسة حكّت لي أن عمتي زينب لا زالت ترفض العودة إلى
عصام رغم أنه لم يتوقف عن زيارتها بحجة حسابات الصيدلية، وأنه أحياناً
يحضر بنتيه معه وأنهما متعلقتان بعمتي زينب ورغم رفض عمتي زينب العودة
إلا أن عصام رفض أن يتزوج مرة أخرى ويعيش مع أمه وبنتيه بعد وفاة أبيه.

قلت لعمتي زينب: لقد سمى عصام إحدى ابنتيه باسمك؟

-هما بنتان رانعتان بارك الله فيهما.

-طالما هما متعلقتان بك هكذا ألا تفكرين في العودة لعصام والحياة كأسرة
واحدة سعيدة.

-هذا الموضوع أغلقته منذ وقت طويل فلا تضيع وقتك في الثرثرة دون
فائدة بينما أنا أحمل لك مفاجأة.

ثم أشارت لي أن أتبعها حتى غرفتها ثم أخرجت هاتفاً محمولاً فلما نظرت
لها متسانلاً قالت: فقط انتظر.

ثم ضغطت أزرار الهاتف ووضعته على أذنها وبعد قليل قالت: هاهوذا،
لحظة واحدة.

تناولت الهاتف ووضعتة على أذني وقلت: ألو.

فانساب نهر من أنهار الجنة في أذني وأشرقت الشمس فجأة.

-أهلاً يا حميد، الحمد لله على سلامتكم.

-عبير، كيف حالك؟

-الحمد لله بخير، لقد سعدت جداً عندما عرفت أنك عدت في إجازة ولكني

حزنت عندما علمت بحالك من الدكتورة زينب، لماذا لم تعيش حياتك وتزوج
وتكون أسرة كما اتفقنا؟

لماذا لم تستمتع بحياتك؟ لماذا لست سعيداً؟

-أنا سعيد فقط منذ سمعت صوتك.

تذكر ما قلته لك في لقائنا الأخير، استمتع بحياتك وحاول أن تترك ذكرى
سعيدة لمن حولك، هل تعرف؟ لم يتوقع أي من الأطباء أن أعيش حتى الآن،
ولكن هذا لم يعد يهمني لقد استمتعت كثيراً بحياتي البسيطة في السنوات
السابقة، وأتمنى أن أكون ذكرى سعيدة في حياتك كما كنت أنت ذكرى سعيدة
جداً في حياتي.

بل أنت الذكرى السعيدة الوحيدة في حياتي، عبير هل أستطيع أن أراك.

-لا أعتقد أن ذلك ممكناً في الوقت الحالي نظراً لظروفي الصحية، وأريدك أيضاً أن تذكرني بصورتي القديمة وليس بحالتي التي أنا عليها الآن.

من يدري ربما يدبر لنا القدر لقاءً يثلج صدري.

من يدري، ربما.

فجأة ظهر صوت مرتفع وأخذ يرتفع رويداً رويداً.

ما هذا؟

ضحكت جدتي أنيسة وقالت: إنها الكراكة.

تذكرت الكراكة أو الحفار العملاق الذي كان يأتي كل عام ليحفر البحر القديم ويحمل الطين الذي يسد مجراه ويلقيه على الضفتين.

نظرت لها بدهشة: وكيف ستدخل الكراكة في طريق العزبة الضيق وهي ضخمة جداً.

-هذا صوت سيارة عمر ولكن الأولاد سموها الكراكة نظراً لصوتها المرتفع.

توقف الصوت وبعدها ظهر عمر.

رفيق عمري الذي صار طبيباً.

احتضنني وأخذ يربت على كتفي، ألم يخطر ببالك أيها النذل أن ترسل خطاباً أو تتصل بنا لنطمئن عليك، لقد وضعتك أُمي بالفعل في قائمة الغائبين وصارت تحكي عنك مع حكاية على الشرفاوي الكبير.

كان عمر هو مصدر البهجة الوحيد في هذا البيت الكئيب أخذ يمزح معي ثم قام وقال هيا نذهب ماجد ينتظرنا.

ولكني كنت أريد أن أتكلم معك في أمر هام.

دعنا نذهب لـماجد ونتكلم هناك.

ركبنا سيارته العتيقة أو الكراكة وهي سيارة فيات قديمة، أخذ يحكي لي أنه دفع فيها كل مايملك لأنه يحتاج إليها في التنقل، ولكنه صار يصرف كل دخله عليها ويقضي كل وقته في ورش الميكانيكا من أجل إصلاح أعطالها التي لا تنتهي. استغرق الأمر نصف ساعة كي يلف السيارة لنعود من طريق العزبة حتى منزل عمتي زينب الكبيرة وذلك لعدم خبرة عمر في السواعة.

لو كنا مشينا يا عمر كنا وصلنا ورجعنا.

-المشكلة في الدوران فقط لأن الطريق ضيق كما ترى، هل تصدق أنني أول ما اشتريتها جئت بها للبيت وفي الصباح لم أستطع أن أعود بها للخلف ولم

أستطع أن ألف بها فجاء شباب العزبة وحملوها حملاً وداروا بها مئة وثمانين درجة.

وصلنا بيت عمتي زينب الكبيرة، كان ماجد بانتظارنا.

-ألن تصلح هذا الشكمان يا عمر، صوت سيارتك أسمعته من على بعد خمسة كيلومترات.

-لقد غيرت الشكمان الشهر الماضي ولكن يبدو أن ذلك اللص ركب لي شكماناً قديماً.

سلمت على ماجد الذي رحب بي بشدة.

ثم ذهبت لأسلم على عمتي زينب الكبيرة فاستقبلتني ضاحكة: الحمد لله على السلامة يا عبد الحميد.

جذبتني بعيداً عن عمر وماجد وقالت: تعال احك لي أين كنت؟ وماذا حدث لك؟

ضحكت وقلت لها هامساً: شكراً يا عمتي على وفائك بوعدك وكتمان سري.

شكراً لك أنت على عدم وفائك بوعدك، ألم تعدني أيها الخائب ألا تعود أبداً؟ لماذا عدت؟

-لقد تغيرت الأمور في العزبة كما ترين وأصبح الأمر حرجاً؟

قالت بجدية: لذلك لم أكن أريدك أن تعود الآن فأنا أشعر أن هناك شيئاً شريراً سيحدث قريباً.

-أعتذر أيضاً يا عمتي عن عدم إعادة المال الذي اقترضته منك.

ضحكت وقالت: ألم أقل لك أنني لا أريده، اعتبره هدية، ثم إنني قلت لك أيضاً أنني كنت متأكدة أن خائب بلاده خائب بلاد الناس.

اقترب ماجد وقال: هل جئت لتجلس مع عمك زينب فقط، ألم تشتق لجلستنا وجدالنا وشجارنا؟

ذهبت معه وجلست معه وعمر، وبعد أن حكيت لهم عما فعلت في السعودية في اقتضاب بدأوا في النقاش والجدال كعادتهم حول كرة القدم والسياسة والعائلة والعزبة. تطرق الأمر لخلاف عمر مع طه وأبي. حاول ماجد إقناع عمر أن يحجم عن فكرته ببيع الأرض ولكن عمر كان مصراً.

لقد حان الوقت للقضاء على هذه الخرافات، هذه الأرض هي مصدر فتن وخلافات على مدار أجيال، فلو تركناها الآن لسالم أو طه لتكرر الأمر بعدها بسنوات بينهما أو بين أبنائهما، الكل يريد أن تكون هذه الأرض تحت يديه كأنها مجد عظيم.

-ولكن ما تفعله غير منطقي أيضاً، فإن عرضتها للبيع ستجد أخاك طه مستعداً لشرائها.

لن أوافق.

-وكيف تمنعه هو سيدفع الثمن المطلوب وربما دفع أحدهم ليشتريها ثم يعود هو ليشتريها منه.

-هناك مشترٍ بالفعل يريد أن يبني مكانها ثلاجة ضخمة لحفظ الخضروات وهو مستعد للبدء على الفور في البناء ومن لا يريد البيع سيقبله شريكًا في الثلاجة، أعتقد أنني قادر على إقناع طه طالما الأمر يتعلق بالمال وزينب لن يكون إقناعها صعبًا، يبقى سالم فقط.

-أعتقد يا عمر أن محاولتك لوأد الفتنة هي ذاتها إثارة للفتنة وإعادة للتاريخ، ويكون الخلاف هذه المرة بينك وبين سالم وربما وصل الأمر لـ..

قاطععه عمر: لن يصل لشيء، أخي سالم ليس أخي الأكبر فحسب إنه أكثر من ذلك ويعلم الله أنني أفعل ذلك لأقيه وأولاده من الفتنة.

تدخلت في الحوار لأول مرة: ولكنها كانت وصية أبيك يا عمر أن تظل الأرض مع أبي.

-أجل ولكنها كانت وصية جدي وجد جدي، إنها تلك الوصية اللعينة التي تفرق الإخوة وتزرع الفتنة بينهم، هي ليست قرآنًا.

-ربما كان في الأمر خطورة لو وصلت الأرض لشخص آخر.

-ها أنت بدأت تتكلم مثلهم يا عبد الحميد، التلميحات المستمرة عن أن الأرض فيها شيء ما ووقوعها تحت يد شخص آخر سيعود بالويل والثبور على الجميع، هذه محض خرافات وحان الوقت للقضاء عليها وأنا لن أتهاون في هذا.

هنا تدخل ماجد مرة أخرى وعادا لجدالهما الأزلي حول العلم والخرافة.

بعد قليل أستاذنت منهم وقلت أنني سأذهب لزيارة جدتي حميدة.

كانت جدتي حميدة وعمتي زينب أم جمعة لازالتا تقيمان في المنزل الذي استأجره لهما أبي بعد انهيار منزلهما، لازال ابني عمتي زينب غائبين ولكنها لم تفقد الأمل في عودتهما.

تدهورت صحة عمتي زينب كثيرًا وصارت تتنفس بصعوبة مع أقل مجهود.

جلست معهما وشربت الشاي بالقرنفل الذي اشتقت إليه كثيرًا وقبل أن أنصرف أوقفتني عمتي زينب أم جمعة وقالت: عبد الحميد، متى ستسافر مرة أخرى؟

-لا أعرف بعد يا عمتي.

حاول ألا تظل هنا كثيرًا، سافر في أسرع وقت.

"لماذا عدت يا عبد الحميد، هل عمك فتحي هو الذي طلب منك هذا؟"

ليس بالضبط يا أبي، هو فقط حكى لي عما يحدث في العزبة؟

-دعك مما يحدث في العزبة، كل شيء سوف يكون على ما يرام، المهم ألا تطيل إجازتك وتسافر قريباً.

-ولكنك في حاجة لوجودي معك يا أبي فالحمل صار ثقيلاً عليك.

-لا، بل أنا في حاجة إلى عدم وجودك، وجودك يمثل حملاً زائداً عليّ، ولقد ضحيت كثيراً كي تكون أنت بأمان فلا تفسد كل ذلك بسبب كلام فتحي، هو لا يفهم شيئاً والحقيقة أن وجودك لن يساعد مطلقاً.

-وماذا ستفعل وحدك يا أبي؟

-مثلاً أفعل دائماً يا بني، مثلاً أفعل دائماً، إن كنت تريد مساعدتي سافر مرة أخرى حتى يرتاح قلبي من ناحيتك وأتفرغ لحملي الثقيل.

-حسناً يا أبي كما تريد، وأنا أعتذر يا أبي أنني سافرت دون أن أخبرك واغفر لي يا أبي أنني شككت فيك فلقد أسأت فهم.

-لا بأس، لا داعي أن تكمل، لقد حكى لي فتحي ما حدث، وأنت معذور فيما حدث ولقد كان تصرفك سليماً، ولكن فتحي هو الذي أساء التصرف بدفعك للعودة ولن أسامحه أبداً على ذلك. متى ستسافر إذاً؟

في أقرب وقت إن شاء الله.

ثم قال لي أبي الخبر الذي كنت أنتظره:- لا تنس أن تزور عمك حسن
الرفاعي وتعزيه، لقد توفيت عمك زينب أم علي منذ عدة أشهر.

"هل قررت؟

لا وقت لدي، عندما يختفي القمر في آخر الشهر وتظلم السماء لابد أن
تأتي راکعاً هنا"

لن آتي.

ماذا عن التضحية؟

لن أفعل؟ ولن أسمح لأي أحد آخر أن يضره.

ضحك ضحكة عالية وقال: تبدو واثقاً، دائماً تنسى ما قلته لك، كل ما
أريده يتحقق، وكلما تأخرت في طاعة أوامري دفعت ثمناً أكبر، ترى بمن أبدأ؟

بالفتاة؟

بالمرأة المريضة؟

بالرجل ذي الدم القليل؟

حسنًا. بالطفل.

ذهبت لزيارة عمي حسن في عزبة المئة وثمانين، الجرار العتيق، الشرفة، طرقت الباب، عمي حسن كما هو، سلم على وأشار لي أن أجلس، عزيته في عمتي زينب الكبرى فهز رأسه في صمت.

جاءت زوجته وأخذت ترحب بي وأحضرت الشاي.

بقى عمي حسن صامتًا كعادته بينما دار حوار بيني وبين زوجته عن حنان ابنته التي صارت مدرّسة وتعمل في مدرسة في عزبة قريبة، وأنها صارت مسنولة عن تعليم أبناء العزبة والعزب المجاورة.

استأذنت لأنصرف فسألني عمي حسن السؤال المعتاد: متى ستسافر؟

قريبًا إن شاء الله.

وعندما هممت بالخروج أوقفني على الباب وقال: انتظر.

وفتح الباب الذي كان يقود إلى جنيّة عمتي زينب الكبرى واختفى هناك لدقيقة ثم عاد ليضع في يدي لفافة من القماش وقال: عمك زينب تركت لك هذه.

في الطريق تأكدت أن أحدًا لا يراقبني ففتحت اللقافة فوجدت فيها سكينًا عتيقة أقرب للخنجر، كان المقبض مليئًا بالنقوش الغريبة المتداخلة والنصل كان متعرجًا واحدًا.

اللقافة نفسها كانت من قماش غريب أشبه بالجلد.

ترى ما هذا السكين؟ ولماذا تركته لي عمتي زينب الكبرى؟

هل هو نفسه الذي رأيته ترفعه في المنام وكانت الذئاب السوداء تخاف منها؟ تذكرت شيئًا من حكاية عمتي زينب الكبرى التي حكته لي قبل سفري.

" لم يقل لي محمد غير أنه وجد شيئًا هناك، وأنا لم أجرو قط أن أسأله عن كنه هذا الشيء ولكن ما وجدته جعل الذئاب تطيعه فيما يريد."

هل تكون هذه السكين هي الشيء الذي وجدته محمد الرفاعي في جحور الذئاب؟، ولماذا أعطتني إياه عمتي زينب أما كان أولى أنت تتركه مع ابنها وأحفادها لحمايتهم؟ أعدت لف اللقافة كما كانت ثم وضعتها في جيبِي.

اقتربت العزبة، لم يعد بيت عبير يظهر واضحًا من بعيد بعدما غطت عليه بيوت جديدة، وعندما اقتربت رأيته، لا أدري لماذا بدا لي كنيبًا مظلمًا، ربما لأن شجرة المشمش جفت غصونها وبدت كهيكل عظمي بدون أي أوراق.

وصلت لدار الرفاعي فتناهى لأذني صوت بكاء.

دخلت فوجدت جدتي أنيسة تجلس على الأرض ودموعها تغرق وجهها
في صمت.

ماذا حدث يا جدتي؟ من الذي يبكي؟

خالتك سامية.

ولماذا تبكي؟

لقد عاد أبوك وأخوك من المنصورة اليوم، الطبيب قال أن كلية محمد
توقفت وأنه سيحتاج للغسيل الكلوي مرة أخرى.

الخطوة الأولى

"الخطوة الأولى تكون دائماً صعبة، ولكن إن خطواتها ستعبر بك حاجزاً نفسياً كبيراً، أولاً ستقطع عليك طريق العودة، لن تستطيع قط أن تعود لما كنت عليه، ثانياً ستجد أن الخطوات التالية التي كنت تراها صعبة أو مستحيلة صارت سهلة وربما معتادة، بعد قليل تنظر خلفك لتجد أنك قطعت أميالاً في الطريق الذي كنت ترفضه وفي وقت أقل من الوقت الذي استغرقته الخطوة الأولى، صدقني الصعوبة كلها تكون في الخطوة الأولى فقط"

عبد الحميد سالم عبد الحميد

هذه المرة كنت أمشي بسرعة أقرب للهرولة محاولاً تفادي النظر لجذوع الأشجار، لم أكن أمتلك الثقة التي كنت عليها في المرة السابقة، كنت أشعر بالتوتر والخوف. كان هناك دقائق منتظمة كأنها ساعة عملاقة تدق فوق الجنية في رتابة.

"هل قررت؟"

"هل عرفت أنه لا يمكن مقاومتي؟"

لم أرد وأخذت أجري.

"ألا زلت مصرًا على المقاومة التي سيدفع ثمنها أحباؤك؟"

"لا زال في جعبتي الكثير."

اقتربت من السور وحاولت أن أخرج ولكني لم استطع.

سمعت أصوات بالخارج ميزت منها صوت عمتي زينب الكبرى وعلاء
ولكني لم أفهم ما يقولون.

شبت النار في السور فتراجعت بسرعة فوجدته أمامي.

صوت دقات الساعة يتسارع.

الضوء الأصفر يغمرنني ويغشي بصري.

رفع يده عاليًا وقال: "لآخر مرة هل ستنفذ ما أمرتك به"

ازدادت سرعة الدقات وصارت غير منتظمة.

صرخت: "لا لا لا لا لا"

أنزل يده وقال: فليدفع أحباؤك الثمن إذا.
وتوقفت دقائق الساعة.

عرفت الخبر في الصباح.

ماتت عمتي زينب أم جمعة.

حاولت جدتي حميدة إيقاظها وعندما وجدتها لا ترد عليها صرخت حتى
تجمع الجيران وأرسل أحدهم ابنه لينادي أبي.

حاول أبي أثناء الجنازة والعزاء أن يبدو متماسكًا ولكن دموعه كانت
تسيل باستمرار وفي أثناء العزاء سقط مغشيًا عليه.

أما أنا فلم أستطع أن أبكي، كنت أمشي في الجنازة ولا أشعر بما يحدث
حولي.

ترى هل أنا السبب في وفاة هذه السيدة الطيبة التي لم تر في حياتها يومًا
سعيدًا.

آخر مرة رأيتها فيها كانت مريضة جدًا، ولكن هل يكون موتها في هذا
التوقيت مصادفة؟ هل هو من قتلها؟ أم أنا؟

بقيت خالتي سامية وأختي أمل مع جدتي حميدة في المنزل.

وصرت أقضي معظم وقتي في بيت جدتي حميدة.

منزل عمتي زينب أم جمعة الحبيبة التي قتلتها ومشيت في جنازتها
حرفياً.

عمتي زينب التي ذاقت في حياتها مختلف أصناف المعاناة وظلت صابرة
حتى دفعت ثمن خطأي.

لكن البقاء في بيت عمتي حميدة وسط رائحة وذكريات ضحيتي الحبيبة
التي كانت تعتصر ضميري اعتصاراً كانت أهون من قضاء اليوم في العزبة
بالقرب من الجنينة.

لكن الأحلام لم تعد تقتصر على مكان أو توقيت، فصارت تأتيني في العزبة
وخارجها، في الليل والنهار بل وأحياناً تأتيني وأنا مستيقظ.

كلمتني عبير على هاتف عمتي زينب عبد الحميد لتعزيني وسألني متى
ستسافر.

عمتي زينب الكبيرة جاءتني في بيت جدتي حميدة وطلبت مني أن أسافر.

عمتي زينب عبد الحميد تلح على أن أسافر.
أبي أمرني أن أحجز تذاكر السفر وأصر أن يراها بعينه.
ترى هل يعرف الجميع بما يحدث معي؟
حجرت تذاكر السفر وأقرب موعد بعد خمسة أيام.
خمسة أيام هي حقًا مدة طويلة جدًا.

"هذه آخر فرصة لك"
"تقدم تضحيتك اليوم"
"وغدًا تأتيني لتقدم فروض الولاء"
كنت أجري في الجنية في رعب.
أتعثر وأسقط فأقوم وأجري بين الأشجار.
لا أرى السور ولا أسمع إلا صوت راعي الذئاب.
"لقد صبرت عليك كثيرًا رغم أن الصبر ليس من شيمي"
"ولكن الآن لا تهاون"

"حياة أحباك بيدك الآن"

تدافعت أمامي صور عبير وأبي وأخي محمد وأختي أمل وجدتي حميدة
وجدتي أنيسة وعمتي زينب عبد الحميد.

"أستطيع إيذاءهم جميعاً، الآن، إن لم تنفذ أوامري"

"ليس هذا فحسب، بل سأجعل غيرك ينفذ ما أريد لتدفع أنت الثمن
مضاعفاً"

تدافعت مرة أخرى الصور في ذهني، عمر يرقد وسط دماؤه وبجواره
عمتي زينب عبد الحميد تحمل سكيناً ملوثاً بالدماء ثم تغيرت صورة عمتي زينب
لتصبح عمي طه ثم جدتي أنيسة ثم أبي ثم خالتي سامية.

كفى ا ا ا ا ا.

-هل ستقدم التضحية الكبرى؟

سقطت على ركبتني وهزرت رأسي في صمت.

لم أسمع ردك، هل ستقدم التضحية الكبرى؟

قلت وسط دموعي: أجل.

سمعت صوت الكراكة فنزلت من غرفتي.

كان عمر قد عاد للبيت وكانت عمتي زينب عبد الحميد في استقباله، دخلت فوجدتهما يتجادلان في شأن الأرض.

جلست مع عمر وأخذت أحاول أن أثنيه عن رأيه ولكنه استمر في عناده.

يا عمر، أعرف أنك تسعى لصالح الجميع ولكن سعيك هذا قد يأتي من وراءه ضرر شديد وأدى للكثيرين.

-أحياناً يكون العلاج مؤلماً ولكنه ضروري لمنع ألم وضرر أكبر.

قالت عمتي زينب: فيم إذن كان خلافاً أمس مع سالم؟

-هذا لم يكن بسبب الأرض، لقد أخبرته أنني أريد أن أخصص غرفة للكشف على أهل العزبة مجاناً في الأيام التي أتواجد فيها بالعزبة ولما قلت له أنني أفكر في بناء غرفة مكان المخزن غضب جداً، رغم أن أحداً لا يستخدم المخزن منذ سنوات.

اصفرّ وجه عمتي زينب وأشاحت بوجهها في صمت بينما قلت أنا: أرجوك يا عمر لا داعي للدخول في صدام مع أبي، إن كان تفكيره خاطئاً فليتحمل هو خطأه، أنت وضحت له رأيك ونصحتة، دعه إذا يقرر ما يريد.

-لا يا حميد، إن تركت الأمور تمشي كما كانت فأنا شريك في هذا الخطأ،
إن رأى أحدكم منكراً فليغيره، وأنا قررت منذ ما حدث لأبي ألا أسمح بحدوث
ذلك في العائلة أبداً.

ولكنك تكرر الأمر نفسه مع أبي.

-بالعكس أنا أحميه من نفسه ومن مصير أبي. دعك من هذا، متى تنتهي
إجازتك؟

-سأسافر بعد ثلاثة أيام.

-ماذا؟ بعد كل هذه الغيبة الطويلة على الأقل يفترض أن تقضي معنا
شهرًا.

قالت عماتي زينب: دعه يسافر أفضل، ولكن عدة أيام هي مدة طويلة جداً.

السماء مظلمة تمامًا.

دائمًا ما يهرب القمر عندما نحتاج وجوده.

لا أحب النجوم، لا هي تضيء ولا تترك السماء صفحة سوداء مصمتة.

تبقى فقط بضوءها الخبيث لأتخيل منها صورًا وأشكالاً.

أحياناً تبدو كثقوب في سواد السماء تخفي خلفها من يتلصص عليّ،
وأحياناً تبدو كأنها صور أو كلمات أو رسائل.

الليلة بالذات كنت أراها صوراً متداخلة، تارةً أرى صورة ذئب ثم صورة
سكين ثم صورة سيارة ثم يختفي كل شيء لتظهر صورة راعي الذئاب.

نظرت نحو الجنيّة من فوق سطح غرفتي فرأيت الضوء الأصفر يلمع في
جشع كأنه يذكرني بموعدي الليلة، كم تمنيت أن تنتهي حياتي قبل هذه الليلة،
أشعر كأنني فأر مذعور يتكور على نفسه في جحره يخاف الفرار ويخاف البقاء،
يعرف أنه هالك إن بقي وهالك إن هرب، إذا تقدم ستحدث عواقب وخيمة وإن
تراجع سيكون ذلك وبالاً عظيماً.

"لقد تأخرت كثيراً."

"لقد اقترب الفجر."

"فهل أنت مستعد لدفع الثمن."

نزلت مرتعشاً،

كانت تقف في فناء الدار، سيارة عمر العتيقة، تذكرت تعليمات الصول
عبد اللطيف، الفرامل، لو فككت الفرامل ستتكفل قلة خبرة عمر بالقيادة بالأمر.

ربما ينجو؟

حسناً يكون هذا من حسن حظي.

اتجهت نحو المخزن، أبي يضع أدوات إصلاح ماكينة المياه هنا، ربما وجدت فيها ما يصلح لفك الفرامل.

القفل مفتوح!

فتحت الباب، ليتني أحضرت مصباحًا، بدأت أتحمس في الظلام، هذه جراكن الوقود وزيت الماكينة، أكيد الأدوات ستكون هنا.

فجأة سطع الضوء الأصفر في وجهي.

"أخيرًا أتيت"

"هل جئت لتقدم التضحية الكبرى"

-أجل.

"هنيئًا لك رضي، ولأنعمن عليك بقوة لم تحلم بها"

"من اليوم أنت ظلي"

في الممش

"لقد ذبلت شجرة الممش.

من المعتاد أن تجف وتتساقط أوراقها في الخريف لتعود لتكتسي باللون الأخضر في آخر الشتاء ولكنها لم تكن قط بهذا الذبول.

كان أبي على وشك قطعها ولم يوقفه إلا شلال من الدموع انفجر فجأة من عيني مع كلمات غير واضحة ترجوه ألا يفعل.

لا أدري لماذا كان رد فعلي هستيريًا لهذا الحد كان يكفي أن أطلب منه ألا يفعل، ولكنني كنت دومًا مرتبطة بهذه الشجرة وزاد من ارتباطي بها الزهور التي كنت تتركها أنت لي بين أغصانها والتي توقفت بعدما تقدمت لطلب يدي وحدث ما حدث، أعرف أنه لم يعد من السهل عليك الاقتراب من بيتنا ووضع الزهور التي سيعلم الجميع أنك من وضعها ولكنني ظلت دائمًا أنتظر أن أجد زهورك وسط أغصان الممش.

لست أدري حقًا سر ارتباطي بهذه الشجرة ربما لتفردها، لقد حاول أخي زراعة بذور الممش كثيرًا ونبتت بالفعل بعض شجيرات الممش ولكنها كانت تذبل سريعًا ولا تنمو لهذا الحجم.

بحثت كثيرًا عن سبب ارتباط المشمش بالأمور الصعبة أو المستبعد حدوثها كما في التعبير الشهير (في المشمش)، قرأت الكثير من القصص والتفسيرات غير المقنعة، أعتقد أن السبب يرجع لأن موسم المشمش قصير جدًا وثمار المشمش نفسها عمرها قصير.

شجرتنا لم تكن مثمرة، فقط بضع ثمرات من المشمش يسرقها أطفال العزبة قبل أن تنضج.

هذا العام ذبلت شجرتنا واقترب الربيع دون أن تغزوها الأوراق الخضراء.

ترى هل يعني هذا شيئاً؟"

عبير

استيقظت على صوت جلبة وصراخ.

ترى هل كان هذا حلمًا.

نزلت مسرعًا فوجدت جدتي أنيسة تصرخ: عمر، حادثة، مستشفى، خذني هناك.

حاولت تهدئتها لأفهم فقالت أن عمر حدثت له حادثة بسيارته وأنه في مستشفى المركز وأن أبي وعمتي زينب ذهبوا إليه.

ذهبت معها إلى مستشفى المركز وأنا أفكر، لم يكن حلمًا إذًا، هل جرؤْتُ
فعلًا على فعل ذلك؟

وجدنا أبي وعمتي زينب وعصام في المستشفى، قال أبي أنه تعرض
لكسر في الساق وخلع في الكتف.

ذهبنا لرؤيته، كان رأسه محاط بالضمادات وساقه محاطة بالجبس ولكنه
كان بخير.

جلستُ على الأرض في صمت، لم تجرؤ دموعي على الفرار من محبسها.
ها هو عمر طريح فراشه بسببي.

من كان يتخيل هذا.

عدت للعزبة والصور تتداخل في عقلي.

أنا وعمر نلعب في العزبة.

نصطاد السمك.

نتسابق.

نجمع التوت.

نلعب الكرة.

نجلس سوياً في المدرسة.

عمر يغششني الإجابات.

عمر يشرح لي.

نعود سوياً من المدرسة.

لقد شاركني عمر معظم سنوات عمري.

كان أخي وصديقي وعمي.

ومع ذلك فعلت به ما فعلت.

كنت أتساءل طوال عمري كيف يجرؤ الأشرار على ارتكاب أفعالهم الشريرة، كيف يرون أنفسهم؟ ماذا يدور بعقولهم عندما يسترجعون ما قاموا به؟ كيف ينظرون إلى أنفسهم؟

كنت أعتقد أنه من المؤكد أن الذين يرتكبون الجرائم هم كائنات غيرنا لا يفكرون كما نفكر ولا يرون ما نرى.

الشر يجري في دمائهم من البداية.

ولكنني كنت على خطأ، الأشرار الذين يرتكبون الفظائع هم نحن.

هم أنا.

سيارة نقل تقف أمام دار الرفاعي.

ماذا يحدث يا أبي.

سننتقل أنا وخالتك سامية وإخوتك للعيش مع جدتك حميدة.

لماذا؟

-إنها تعيش وحدها بعد وفاة عمك زينب أم جمعة، ثم إنني لم يعد لي هنا ما أبقى عليه.

ماذا تعني يا أبي؟

أشاح بوجهه عني وقال:

كل ما كافحت طوال عمري من أجله ضاع، تضحياتي كلها كانت بلا فائدة.

قالها وتركني أحرق في الأرض في خجل.

جاءتني التعليمات.

لم أعد أجد الأمر شريراً إلى هذه الدرجة.

الخطوة الأولى فقط تكون صعبة، بعدها يصير الأمر هيناً.

بعد ما فعلته مع عمر أعتقد أنه لن يضيرني فعل أي شيء.

أخذت معي سكيناً وعلبة ثقاب ومصباح كيروسين قديم لم نستعمله منذ مدة طويلة، كان فارغاً من الكيروسين ولكن المخزن به جراكن وقود.

إنه اليوم الموعود كما قال راعي الذئاب.

فتحت باب المخزن، ملأت المصباح بالكيروسين ثم أشعلت الفتيل.

ذهبت إلى النقطة التي حددها لي. وسط أغصان الغاب، هو قال أنه لن يكون موجوداً لكنه وصف لي المكان بدقة.

بدأت أحفر بالفأس، الأرض تبدو رطبة ولزجة وأثناء الحفر بدأت تظهر عظام صغيرة يبدو أنها لطيور وحيوانات، واضح أن هذه بقايا مراوغات أبي التي كان يحاول بها تهدئة غضب راعي الذئاب والالتفاف حول طلباته.

حفرت أكثر حتى بدأ يظهر الكيس القماشي، أخذت أزيح التراب من حوله،

الرائحة شنيعة وخانقة، أعتقد أن الكيس مليء بالعظام، غالباً هي عظام آدمية.

كان الكيس مهترئاً وظهرت من فتحاته بعض العظام وكتل من الشعر.

حملت الكيس القماشي المهترئ ووضعتة في جوال قماشي آخر.

حملت معي الفأس وجركن الوقود والسكين والجوال وأطفأت المصباح
وخرجت من المخزن.

وجدت ذئبًا أسود أمام الباب.

لم أخف منه ومشيت خارجًا من باب البيت.

تبغني الذئب وظهر ذئبان آخران كانا ينتظران أمام البيت. مشيت بحملي
الثقيل نحو طريق البحر الجديد بينما الذئاب الثلاثة تمشي حولي وتتمسح في
ساقَيَّ كأنها قطط وديعة.

لا خوف بعد اليوم.

وصلت لأرض رجع الجنينة.

مشيت بحملي الثقيل وسط موكبي من الذئاب بين أعواد الذرة حتى توقفت
الذئاب وأخذت تحفر بأقدامها.

ظهر الضوء الأصفر ومعه صوت راعي الذئاب.

"أخيرًا إنه اليوم الموعد"

"اليوم نعيد الأمور لنصابها وأستعيد ما سرق مني"

"هيا يا ظلي، أنت تعرف ما يجب عليك فعله"

أخذت أحفر بالفأس في المكان الذي أشارت إليه الذئاب.

حفرت كثيرًا ولم أجد شيئًا ولكن راعي الذئاب أشار لي أن أوسع الحفرة
وأن أحفر أعمق.

ارتطم الفأس بشيء صلب فنظرت إليه فأشار إلى أن أكمل.

ظهر صندوق خشبي، ليس تابوتًا بالمعنى الحرفي بل صندوق من الخشب
ولكن في حجم التابوت، أخذت أزح التربة من حوله وحاولت أن أفتحه ولكنه
كان مغلقًا بالمسامير.

"اكسره"

أخذت أزيل بعض الألواح باستخدام الفأس، كان الصندوق شبه خالٍ إلا
من أشياء سوداء في قاعه لم أستطع رؤيتها جيدًا.

"كفى"

"أحضر الأمانة"

حملت الكيس ووضعتة داخل الصندوق

"أنت تعرف ما عليك فعله"

جرحت يدي بالسكين وتركت دمائي تسيل على الكيس.

ازداد الضوء الأصفر سطوعًا.

تحرك راعي الذئب وانزلق بجسده داخل الصندوق.

بدا الضوء الأصفر كأنه شمس وبدأت الأرض تهتز

"أخيرًا سأعود"

"لن يوقفني أحد بعد الآن"

"ولن أحتاج لرعاية هؤلاء البشر الفانين"

لم أفكر، فقط حملت جركن الوقود وسكبته بسرعة فوق الصندوق وأخرجت علبة الثقاب ولكن أحد الذئب هجم على وغرس أنيابه في ساقي.

"أوقفوه"

هجم الذئبان الآخران على فأخرجت اللفافة من جيبتي وفتحتهما وأخرجت منها سكين عملي زينب الكبرى ورفعتها عاليًا.

تراجعت الذئب للخلف في خوف.

صرخ فيهم "أوقفوه"

ولكن الذئاب بدت مترددة تتقدم قليلاً ثم تتراجع.

انتهزت الفرصة وأشعلت عود ثقاب وألقته على الصندوق فشبت النار فيه سريعاً.

حاول أحد الذئاب أن يطفىء النار فألقى جسده عليها فألقيت عليه ما تبقى من جركن الوقود فشبت النار في جسده فأخذ يعوي وانطلق يجري وسط أعواد الذرة ناشراً اللهب من حوله.

"لا تعتقد أن هذا سيقضي عليّ، وستنال جزاءك، سأجعلك تتمنى الموت ألف مرة "

وجدته يحاول الخروج من الصندوق فاندفعت وسط النار وغرست النصل المتعرج في صدره حتى المقبض.

أطلق صرخة قوية شعرت أن الأرض اهتزت من هولها. ازدادت حرارة السكين في يدي فأفلتتها من يدي، هنا انقض أحد الذئاب على من الخلف.

حاولت انتزاع السكين مرة أخرى ولكنها بدت كجمرة مستعرة، وجدت الفأس بجواري فضربت بها الذئب وانطلقت أجري مبتعداً.

كانت النار قد انتشرت في حقول الذرة ووصلت لسور الجنيئة وساعد الذئب الأول في نشرها بسرعة.

كنت أحاول أن أطفئ النار التي وصلت لأطراف ملابسي بينما أجري محاولاً الابتعاد عن الحقل الملهب والاقتراب من التربة.

كان الذئبان الأخيران مازالا في أثري رغم أن النار كانت وصلت لذيليهما.

أخذت أطوح الفأس نحوهما، ولكن أحدهم قفز وغرس أنيابه في ساعدي فأقلتُ الفأس، هجم الآخر علىّ وغرس أنيابه في ساقي فوقعت أرضاً وسط أعواد الذرة المشتعلة.

شعرت بالنار تلفح وجهي وصدري بالإضافة للألم الرهيب نتيجة أنياب الذئاب التي تطبق على ساقي وساعدي ومخالبها التي تخمش جسدي.

فجأة سقط حجر كبير على الذئب الذي يطبق على ساعدي فعوى بقوة وترك ساعدي فبحثت حولي حتى التقطت الفأس وهويت بها بكل قوتي على رأس الذئب الآخر.

رأيت ظلاً يقف على الجانب الآخر من التربة وسمعت صوت صراخ، كان الذئب الذي أصابه الحجر يقف على قدميه مستعداً لقفز التربة لمهاجمة الظل فاستجمعت آخر قواي وهويت عليه بالفأس ثم سقطت في التربة.

سأنتظر ك هناك

" قد تقضي حياتك محاولاً إحداث أي تغيير فيما حولك والبحث عن قيمة
لحياتك ووجودك وتفشل في ذلك مرات ومرات، لتجد في النهاية أن موتك هو ما
يحدث تغييراً هائلاً، أن موتك هو نجاحك "

عبد الحميد الشرقاوي

ألم رهيب في جسدي كله.

لم أستطع تحديد مكان الألم كأن جسدي كله يئن في نفس الوقت.

سمعت أصواتاً متداخلة.

"نسبة الحروق كبيرة جداً".

"جروح عميقة في أكثر من مكان".

"آسف، فرصة الشفاء تكاد تكون منعدمة".

فتحت عيني، الرؤية مشوشة جدًا.

"حميد، هل تسمعي".

صوت عماتي زينب عبد الحميد يغالبها البكاء.

-أجل يا عمتي، ماذا حدث؟

-لقد انتهى الكابوس يا حميد، لقد أنقذتنا جميعًا.

-هل انتهى فعلاً؟

-بالتأكيد، بعد أن انتهت سيارة المطافيء من إطفاء الحريق الذي التهم أراضٍ كثيرة وجزء كبير من الجنيحة وجدوا آثار عظام متفحمة وبقايا صندوق محترق وجثث محترقة لثلاثة حيوانات، أنا متأكدة أنه انتهى، لقد شعرت بنهايته، كل هذا بفضلك يا حميد، أنا فخورة بك جدًا.

-لو علمت الحقيقة لن تكوني فخورة بي، أنا من تسبب في إصابة عمر، لقد أفسدت فرامل السيارة.

لا، لم تفعل. لقد شاهدتك وأنت تدخل المخزن ذلك اليوم فتوجست خيفة وراقبتك حتى أمنعك من ارتكاب أي عمل متهور، ولكنك خرجت من المخزن تمشي كالمسحور وصعدت غرفتك ولم تغادرها حتى الصباح.

من الذي فعلها إذاً؟

-لا يهم أن تعرف يا حميد، وعلى كل حال عمر حالته جيدة وسيكون بخير، أنت أيضاً ستكون بخير لقد طمئني الأطباء و..

-لا يا عمتي أنا لست بخير أنا في الطريق إلى هناك، أنا أشعر بذلك وأراه. ولكن أخبريني هناك شخص ساعدني عندما هاجمتني الذئاب، لقد رأيت ظله على الجانب الآخر من التربة، من يكون؟

-عبير، لقد اتصلت بي وقالت أنها رأتك تتجه نحو أرض رجع الجنية ثم سمعت أصواتا غريبة وقالت أنها ستذهب لتطمئن عليك وطلبت مني أن أطلب العون، لم يكن في البيت سواي وأمي فأيقظتها وذهبنا فوجدنا عبير جاثية على الأرض تصرخ بجوار الجسر ثم رأيناك والنار مشتعلة في ثيابك ثم سقطت في التربة. فتعاوننا معها في إخراجك من التربة واتصلنا بسيارة المطافيء وتجمع أهل العزبة عندما رأوا النار ونقلناك للمستشفى.

-وعبير، هل أصابها مكروه؟

-لا، هي بخير.

-أريد أن أكلمها.

حسناً هي محجوزة في المستشفى لأنها لم تتحمل المجهود الذي بذلته
أنت تعرف حالة قلبها ولكنها ستكون بخير.

سمعت صوت أبي يسألها عن حالي فناديت عليه:

أبي، أنا آسف على كل شيء.

-لا بأس يا بني، أنا راضٍ عنك وفخور بك.

-أبي، هل انتهى كل شيء حقاً؟

"أجل يا بني انتهى كل شيء بفضلك."

بدأت أشعر كأنني أغرق، كأن الفراش يهبط بي لأسفل، حتى الرؤية
المشوشة صارت سواداً.

سمعت عمتي زينب الكبيرة تتحدث مع أبي وتحاول أن تطمنه أنني بخير.

عمتي زينب عبد الحميد اتصلت على هاتف عبير.

حميد، تكلم عبير تسمعك.

-عبير، أريد أن أشكرك على إنقاذي، وأنا آسف جداً لأنني لم أستطع أن
أكون ذكراً سعيدة في حياتك، لم أرد أبداً أن أترك لك هذه الذكريات الحزينة.

-لا تقل هذا يا حميد لقد كنت وستظل أسعد ما حدث في حياتي، وقريباً إن شاء الله تخرج من المستشفى بسلامة الله و..

-لا يا عبير أنا ذاهب، أنا أعرف ما أقول، أنا ذاهب وأرجو أن أكون تركت لك ذكرى سعيدة كما كنت تقولين.

اختلطت الأصوات في أذني.

كنت أمشي في الجنيحة وسط الأشجار المتفحمة، الأرض نفسها صارت سوداء.

صوت عمتي زينب عبد الحميد تصرخ طالبة المساعدة.

رأيت بقايا سور الجنيحة المحترق ووراءه الجسر، على الناحية الأخرى حقول خضراء يانعة.

صوت عمتي زينب الكبيرة تتشاجر مع الممرضات: أين الطبيب؟ نادوه بسرعة الولد سيضيع منا.

وسط الحقول الخضراء يقف مجموعة من الناس.

ميزت فيهم أمي وجدتي نعمت وستي كل وعمتي زينب الكبرى وعلاء وعمتي زينب أم جمعة، ابتسمت أمي وقالت: كم أنا فخورة بك يا حميد.

صوت إنذار من جهاز طبي في المستشفى.

عمتي زينب الكبرى تشير إلى وتقول: أحسنت صنعًا يا بني لقد قطعت
غصن النارينج في الوقت المناسب.

-الفضل لسكينك يا عمتي.

-الفضل لعزيمتك وقلبك الطاهر.

تناهى إلى مرة أخرى صوت عبير " حميد، هل أنت بخير "

عمتي زينب أم جمعة تشير إلى أن أقترّب " تعال يا حميد، لا تخف، هنا
أفضل "

وداعًا يا عبير أنا ذاهب. سأنتظرك هناك.

لن أتأخر عليك يا حميد، أنا أعرف أنني اقتربت جدًا.

سوف أنتظرك.

اختلفت في أذني أصوات بكاء عمتي زينب عبد الحميد وشجار عمتي
زينب الكبيرة وأبي يلقني الشهادة.

تلوت الشهادة.

علاء يمد إلى يده ويقول:

اقفز يا صديقي ولا تخف.

نظرت إلى التربة.

سمعت صوت عبير

" صدقني يا حميد لن أتأخر "

ثم قفرت.

تمت

الفهرس

1	إهداء
3	عزبة الجنينة
7	دار الرفاعي
13	العائلة
21	عُمر
31	فيفا جنينة
47	الموت
59	عمتي زينب أم عبد الحميد
71	الأسماء
91	الجنينة
111	التابعي
125	مسجد شهيد الفجر
145	عبير
167	المصائب لا تأتي فرادى
177	"الأولى"
187	"الثانية"
199	"الثالثة"
209	أستطيع
233	الغائبون

247	الساكت
255	الرابعة
269	النارينج
281	اليأس
291	الشر
303	عوضين
313	اقترب أكثر من اللازم
323	"لن تندم أبدا"
333	جدي
345	الظل
359	إنه هو
369	اهرب
379	لا تعد
389	الهدوء الذي
399	العاصفة
405	عدت
425	الخطوة الأولى
435	في المشمش
447	سأنتظرك هناك

